الألف كتاب
الثاني
١٣٤

رحلات فارتيما

(الحاج يونس المصري)



ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

رحلات ڤارتيما

(الحاج يونس المصري)

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

محسنة عطية

مدحت عابد

رحلات ڤارتيما

(الحاج يونس المصري)

ترجمة وتعليق

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لرحلات فارتيما التى نشرت بالايطالية فى عام ١٥١٠ ، وقد نقلت الى العربية من الترجمة الانجليزية التى أعدها جون وينتر جونز وصدرت فى نيويورك عام ١٨٦٣ تحت عنوان :

The Travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta, Arabia Flix, in Persia, India and Ethiopio.

by

JOHN WINTER JONES

وقام بتحقيقها : George Percy Badger

هذه الرحلات وثيقة هامة ترسم صورة للشرق القديم من عين رحالة غربى ، لذا كان من الضرورى الابقاء على نص الوثيقة كما هو دون نقصان ، ودون زيادة اللهم الا من تعليقات منفصلة عن النص - وقد فعلنا ذلك لتوضيح فكرة أو تبيان موقع أو تحقيق واقعة . والذى لا شك فيه أن النظرة الأوربية قد تغيرت على نحو ما لبلاد الشرق منذ قيام فارتيما (الحاج يونس المصرى) برحلته ، لكن هذه الوثيقة أو الوثائق لا تخلو من دلالات تاريخية على أقل تقدير . وكتب الرحلات ليست عدة للمؤرخ فحسب ، وانما تضم بين دفتيها أدبا وفنا وعلما ومتعة .

عبد الرحمن الشيخ

فهرس

مقدمة الطبعة العربية

رحلة فارتيما ، أو الحاج يونس كما سمى نفسه (١٥٠٣ - ١٥٠٩) حول العالم ، هى الجناح البرى - ان صح هذا التعبير - لجهود البرتغاليين فى اكتشاف الطرق المؤدية الى ثروات الشرق عامة ، والهند خاصة ، وجهودهم كذلك لتطويق العالم الاسلامى ، استمرارا لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد ٠

وهـذه الرحلة التى نقدم اليوم ترجمتها الكاملة للعربية زامنت تقريبـا رحلات فاسكو دى جاما الذى وصل الى كلكتا - بعد الدوران حول أفريقيـا - سنة ١٤٩٨ ، ووصلها فى رحلة أخرى سنة ١٥٠٢ ، وبينما كان رحالتنا فارتيما يبحر من البندقية قاصـدا مصر فالشـام فالحجـاز فاليمن فالخليج ففـارس ٠٠٠ الخ كانت الأساطيل البرتغـالية تقيـم المحطات التجارية على السواحل الهندية وتقصف مدنها ٠

واذا كانت مهمة دى جامـا قد انتهت باكتشاف الطريق البحرى للهند ، فان مهمة فارتيما كانت أكثر تعقيدا ، فقد كان مكلفا بوصف عادات الشـعوب التى يمر بها فى طريقه للهند ، وفى الهند نفسها ، وكتابة تقارير عن جيوشها خاصة ما يتعلق بالمدافع ، وحصر منتجاتها الزراعية والصناعية ، خاصة ذات القيمة فى التجارة العالمية ٠ وباختصار ، فان مهمته كانت التجسس الشامل على كل الشعوب والجماعـات التى مـر بها ، خاصة الاسلامية منها ٠

وقد قدم فارتيما نفسه لأهل الحجاز واليمن وسكان الخليج العربى وبلاد فارس ، باعتباره الحاج يونس المصرى ، أو يونس المملوك المصرى ، أما فى بلاد الهند ، فقد قدم نفسه باعتباره الحاج يونس العجمى (الفارسى) وذلك بمعاونة صديق له فارسى كان قد تعرف به فى مكة المكرمة ٠

لقد قام هذا الفارسي واسمه خوجه ذو النور ، بالدور نفسه الذى قام به ابن ماجد بالنسبة لفاسكو دى جاما ، فاذا كان ابن ماجد قد دل دى جاما على الطريق الى الهند دون أن يدرى عواقب ذلك ، فان خوجه ذا النور قد قدم خدمات هائلة لرحالتنا فارتيما فهو الذى أتاح له التغلغل فى المجتمعات الاسلامية فى الهند ، وقدمه مرة على أنه مملوك حاج ، ومرة على أنه الحاج يونس المصرى ، ومرة على أنه الحاج يونس العجمى ، بل وقدمه أحيانا على أنه رجل صوفى أو درويش وجعل الناس يقبلون يديه وأحيانا ركبتيه التماسا للبركة ، وبفضل خوجه ذى النور تجول فارتيما فى الموانىء ، والمعسكرات ، ورصد الاستعدادات العسكرية .. وقدم كل ذلك ـ كما ذكر هو فى رحلته هذه ـ لنائب الملك البرتغالى فى الهند .

ورغم أهمية رحلة فارتيما ، فاننا لا نكاد نعرف عن حياته الا النزر اليسير ، اذ يقول المستشرق بيرسى بادجر ان معظم ما نعرفه عن فارتيما هو ما ذكره فارتيما عن نفسه ، وفى موسوعة التراجم العالمية فى القديم والحديث المطبوعة فى باريس سنة ١٨٢٧ ، نجد نصا فرنسيا نعرف منه أنه رحالة ايطالى قام برحلة فى القرن السادس عشر (هكذا دون تحديد للسنة أو السنوات) وان هذه الرحلة هامـة جدا للمشتغلـين بتاريـخ الجغرافيا ، وللمؤرخين بشكل عام ، وأنها اضافة حقة تعرفنا بالعالم من حولنا ، ويعجب بادجر من أن المراجع التى كتبها أبناء جلدته (الايطاليون) قد أغفلته أو كادت ، فالمؤلف الايطالى زورلا Zurla لم يذكره ضمن أشهر الرحالة الايطاليين ، أما المؤرخ الايطالى فانتوزى Fantuzzi فلم يتعرض لفارتيما الا من خلال أسطر قلائل شكا فى مطلعها من قلة المعلومات عنه ، وأنهاها بالتشكك فى عودته الى ايطاليا ، وتفسير ذلك أن فارتيما لم يكن فيه من ايطاليا سوى أنها موضع مولده ، ومصدر لغته ، أما فيما عدا ذلك فالرجل كان يعمل لحساب ملك البرتغال ، الذى مول رحلته ، والذى قدم له نائبه فى الهند براءة الامتياز والفروسية ، وضمـه لجيوشه المحاربـة أحيانا ، لذلك فبعض المصادر تشير اليه على أنه رحالة برتغالى ، تماما مثل كولومبس الذى تعارف الناس أنه رحالة اسبانى مع أنه من أصول ايطالية .

ومع كل هذا الغموض الذى يحيط بحياة رحالتنا فهناك اجماع على أنه ولد فى بولونيا Bologna بايطاليا ، وأنه رحل منها الى البندقية ، وقد ذكر هو فى رحلته أن والده كان طبيبا ، ويميل بادجر أنه كان عسكريا لاهتمامه الكبير فى رحلته بوصف الأسلحة والتجمعات العسكرية ، كما نعلم من حديثه أنه كان زوجا وأبا .

أما عن الظروف التاريخية التى تمت خلالها الرحلة ، فمعرفتها من الأمور الضرورية ، لفهم الرحلة والاستمتاع بها فى آن . لقد كان لابـد لأوروبا فى أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر أن

تعيد تقويم معارفها عن العالم الاسلامى ، وأن تعيد ترتيب أوراقها لمواجهته بأساليب جديدة قوامها العلم والمعرفة . بالاضافة الى أسباب عملية ملحة تلح على الأوربيين لتعميق معرفتهم بالنظم السائدة فى العالم الاسلامى خاصة . فالتاريخ الأوروبى الحديث ـ كما يذكر لورد أكتون Acton يبدأ تحت مطارق العثمانيين المسلمين فالدور الاسلامى فى تشكيل التاريخ الأوروبى لم ينته بنهاية العصور الوسيطة وإنما استمر فاعلا مؤثرا فى التاريخ الحديث ، فقد أسهم المسلمون فى تشكيل التاريخ الأوروبى ـ فى أوروبا ذاتها ـ بقدر قريب من اسهام الأوروبيين فى تشكيل تاريخنا الحديث . فبعد سقوط غرناطة ظهرت حركة مجاهدى البحر أو ما عرف بحركة القرصنة فى البحر المتوسط ، التى أثرت على اقتصاديات الدول الايطالية واسبانيا والبرتغال ، فعلى سبيل المثال عندما وصلت أخبار مفادها أن كمالى القرصان ذائع الصنيت بدأ يمارس أعماله ، ارتفعت تكاليف التأمين البحرى من ٢٪ الى ١٠٪ . لقد كان المسلمون بالنسبة للدول الأوربية المطلة على البحر المتوسط هم مجاهدى البحر أو القراصنة ، وكان هؤلاء هم سكان الشمال الأفريقى ، والأندلسيون ، فكل مسلم بالنسبة لهم هو بربرى أو هو Moor ، لذلك لاحظنا أن فارتيما يطلق هذا اللفظ على كل المسلمين دون استثناء ، فسكان مصر (مور) أى مسلمون ، وسكان الحجاز (مور) أى من المسلمين ، وكذلك سكان فارس والخليج وبعض مناطق الهند ، كلهم Moors ، وبدون معرفة هذه الخلفية التاريخية يصعب ترجمة هذا اللفظ ترجمة صحيحة وهى هنا (المسلمون) .

واذا انتقلنا لجبهة أخرى كانت فى حالة مواجهة مع أوروبا فى هذه الفترة ، وجدنا المماليك الذين يشير لهم فارتيما فى رحلته هذه على أنهم مسيحيون مرتدون ، لذلك نجد فارتيما يقسم سكان البلدان الاسلامية التى زارها الى قسمين هما : المسلمون والمماليك ، مع أن المماليك أيضا من المسلمين ، لكن ثقافة فارتيما وتعصبه جعلاه يقسم سكان مصر الى مسلمين ومماليك ، وسكان الشام الى مسلمين ومماليك ـ ويقصد بالمسلمين هنا أهل البلاد ، ويقصد بالمماليك هنا أبناء جلدته ممن تحولوا للاسلام . ويتحدث فارتيما فى رحلته عن التدريبات العسكرية للمماليك ويشيد بمهاراتهم .

فاذا انتقلنا الى الجناح الشرقى لأوروبا قبل قيام فارتيما برحلته وأثناءها ، وجدنا الضغط العثمانى قد بلغ أشده ، فمنذ سقطت القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ وحتى أيام فارتيما كان المسلمون العثمانيون يتغلغلون فى عمق القارة الأوربية ، وقد وجد المسلمون واليهود المطرودون من اسبانيا فى رحاب الدولة العثمانية ملاذا ، فأوروبا كلها لم تتقبل اليهود المطرودين من اسبانيا ، بينما استقبلتهم الدولة

العثمانية ونعموا فى رحابها بالحرية الدينية ، بل ووصلوا فيها لمناصب عليا وراجت فيها تجارتهم • لقد كانت كراهية الاسبان والبرتغال موجهة أساسا لليهود ، اذ كانوا يعتبرونهم أساس كل فساد ، ومنبع كل رذيلة ، كما كان الاسبان والبرتغال يعتبرون اليهود أحد أسباب خراب الاقتصاد فى بلادهم • وقد انعكست هذه الأفكار وتلك المشاعر السائدة فى أوروبا فى ذلك الوقت على كتابات فارتيما الذى يصف اليهود بأقذر الصفات ، ويشبههم بالخنازير البرية ، ويزعم أنه رأى منهم جماعة فى الطريق الى المدينة المنورة ، وهو قول فيما يبدو غير صحيح • ويتحدث فارتيما بدون تعاطف عن يهودى كان يصنع المدافع للمسلمين فى بعض مناطق الهند ، ولم يخف تشفيه عندما قال انه ذهب — أى هذا اليهودى — كى يستحم فى بركة ماء فلقى حتفه • هل أغرقه هذا الايطالى ؟ لا أدرى • المهم هنا أن الأفكار التى سادت أوروبا فى هذه الفترة أثرت على كتابات فارتيما وهو ما يهمنا التركيز عليه لفهم النص الذى بين أيدينا •

بقيت بعض الملاحظات عن النص الكامل للرحلة الذى نقدم ترجمته الكاملة للقارىء العربى للمرة الأولى ، وهى :

١ — الصلاة على النبى ، والترضى على الصحابة ، ووصف مكة بالمكرمة ، والمدينة بالمنورة — كل ذلك من عند المترجم ولا وجود له فى النص الانجليزى الذى ترجمنا عنه ، كما لا يخفى على فطنة القارىء •

٢ — بعض الأفكار ذوات المعانى التى لا ترضى القارىء المسلم ، أو المسيحى أو المخالفة للحقيقة ، حذفت من المتن ، مع الاشارة لها كاملة فى الحواشى حتى لا نخل بالأمانة العلمية ، فنحن لم نحذف كلمة واحدة من هذه الرحلة •

٣ — كل ما بين الأقواس اضافة من المترجم لايراد عبارة بديلة ، أو فقرة شارحة بقصد توضيح المعنى ، أو رد تهمة عن دين أو خلق ، وقد أشرنا فى الحواشى لذلك فى موضعه •

٤ — جانب كبير من التعليقات الواردة فى الحواشى هى للمستشرق الكبير بيرسى بادجر ، وقد لخصتها ونسبتها اليـه ، ولم أجـد أى مبرر لترجمة تعليقات بادجر ترجمة كاملة لأنها طويلة جـدا ، وبعضها ليس بذى قيمة للقارىء العربى ، خاصة تعليقاته على رحلة فارتيما فى مصر والشام ومكة المكرمة والمدينة المنورة واليمن والقرن الأفريقى — فهى جميعا مناطق معروفة للقارىء العربى ، أما فيما يتعلق بالرحلة الى فارس والهند وشرق أفريقيا فقد اعتمدنـا اعتمـادا كبيرا على تعليقات بادجر التى لخصناها كما سبق القول •

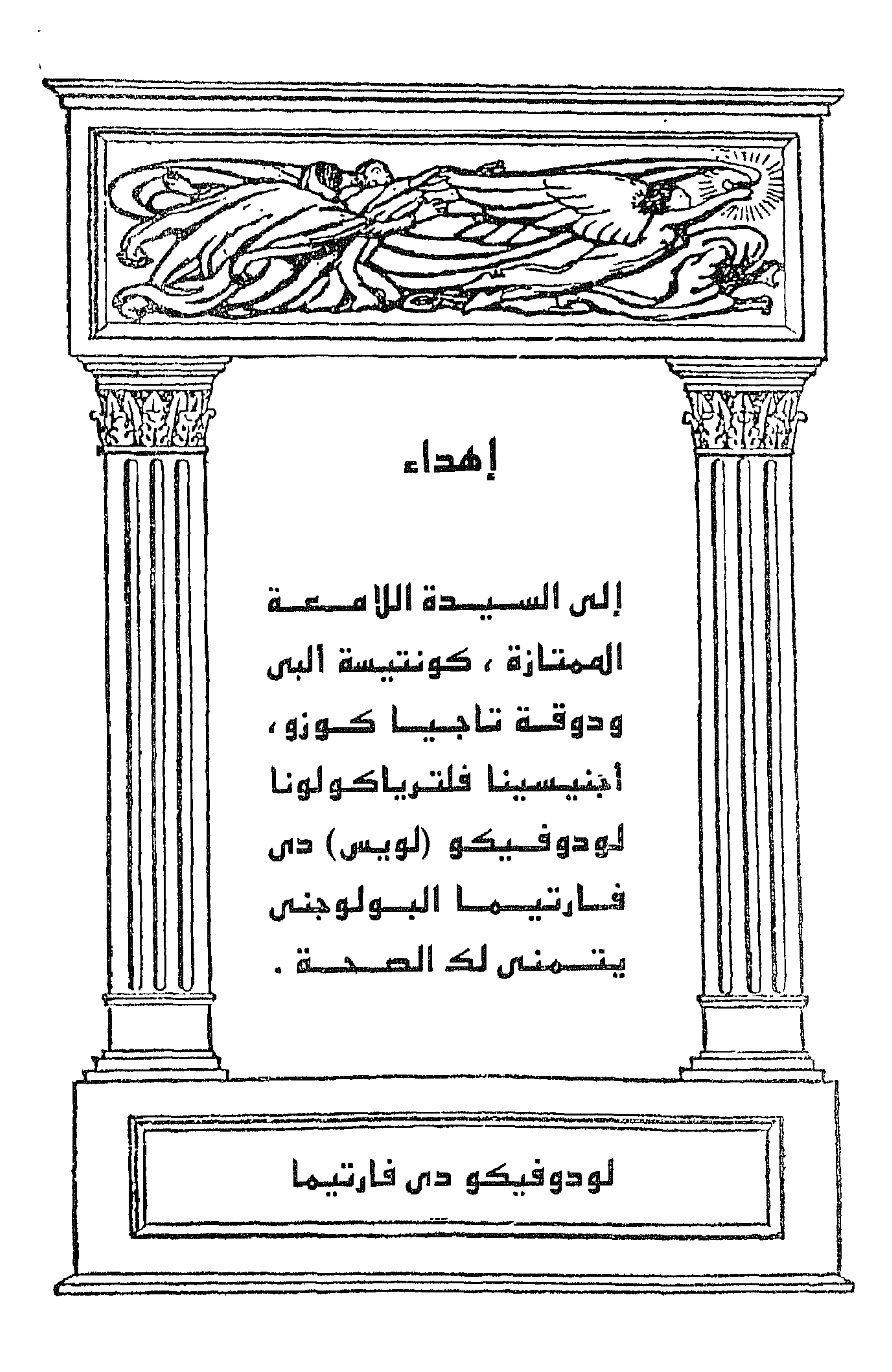
٥ ـ فيما يلى البيانات الكاملة للطبعة التى ترجمنا عنها :

The travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta, Arabia Felix, in Persia, India and Ethiopia. Translated from the original Italian edition of 1510 with a preface by John Winter Jones, and with notes and an introduction by George Percy Badger. New York : Burt Franklin, 1863 (works issued by the Hakluyt Society).

وأخيرا فقد كان من الصعب انجـاز هذا العمل دون مساعـدة من آخرين ، لذلك فقد لزم التنويه بأننى استعنت بالأخ الأديب دكتور يحيى ساعاتى رئيس تحرير عالم الكتب السعودية فى توضيح بعض النقاط عن الأراضى الحجازية ، وأسرة تحرير مجلة التوباد التى تصدر فى الرياض لنشرها مقتطفات مترجمة من هذه الرحلة لفتت الانتباه لأهميتها ، ولمجلة جامعة الملك سعود المحكمة لنشرها مقالا لى عن حياة فارتيما ، ولكل من أمدنى بمرجع أو ساعد فى توضيح معلومة ـ وشكر وافر لأسرة تحرير الألف كتاب الثانى خاصة الأستاذ أحمد صليحة رئيس التحرير لافساحه مكانا لنشر هذا العمل الهام .

وعلى الله قصد السبيل

دكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ



إهداء

إلى السيدة اللامعة
الممتازة ، كونتيسة ألبى
ودوقة تاجيا كوزو،
أبنيسينا فلترياكولونا
لودوفيكو (لويس) دى
فارتيما البولوجنى
يتمنى لك الصحة .

لودوفيكو دى فارتيما

مقدمة الطبعة الأصلية

ثمة اناس كثيرون كرسوا أنفسهم للبحث في هذا العالم ، بتقديم العون للبحوث والدراسات والرحلات وما له صلة وثيقة بكل هذا ، محاولين بذلك تحقيق رغباتهم • ومن ناحية ثانية ، هناك آخرون ، كان ذكاؤهم أكثر حدة ، فلم تكن الأرض لتتسع لبحوثهم وتأملاتهم ــ مثل الكلدانيين Chaldeans والفينيقيين Phoenicians فبدأوا يستعرضون المناطق العليا في السماء ويتفحصونها ويلاحظونها بدقة ، وقد حظى هؤلاء من كل من عرفت بالمديح الذى هم جديرون به ، كما حققوا ذواتهم وشعروا بالرضا عن أنفسهم • ولهذا السبب فقد قررت أن أتقصى بعض البقاع الصغيرة من كرتنا الأرضية ، شاعرا برغبة عارمة لتحقيق الغايات نفسها (أى مديح الآخــرين وتحقيق ذاتى) ، تاركا جانبا عبء دراسة السماوات لأطلس Atlas وهرقل Hercules ، فاكتافهما ملائمة لمثل هذا الحمل • ولم أجد فى نفسى القدرة (وأنا أعلم أن قدراتى على الفهم متواضعة) للوصول الى هذه الغاية عن طريق الدراسة والاستنتاج ، لذا فقد قررت ، أن أرى شخصيا ، وبعينى ، وأن أحاول التأكد من مواقع الأماكن ونوعيات البشر، وأجناس الحيوان ، وأن أرى بنفسى الثمار المختلفة والأشجار العطرية التى تنبت فى مصر وسوريا ، وصحراء شبه الجزيرة العربية ، وبلاد العرب السعيدة وبلاد فارس والهند وأثيوبيا ، واضعا فى اعتبارى أنه ليس من رأى كمن سمع وأن دليلا واحدا تقدمه عين شاهدت يفوق فى قيمته عشر روايات مسموعة • وبعون من الله ، شرعت على نحو ما فى تحقيق هدفى فاستقصيت البلاد المختلفة والأمم الأجنبية وتبين لى أننى سأضيع حصاد جهدى اذا ما أخفيت فى نفسى ما شاهدته وعاينته وجربته ، وبدلا من هذا وجدت أنه يتعين ايصال هذه المعلومات والخبرات الى الدارسين • لذا فقد فكرت فى نفسى فى أن أقدم وصفا صادقا جدا لرحلتى هذه ، بقدر طاقاتى المتواضعــة ، لأنى أظن أننى بهذا أقدم عمــلا أتمنى أن يكون مقبولا من قرائى • وبما أننى قد حققت السعادة والمسرة برؤية ما هو جديد من أحوال الناس وعاداتهم وتعرضت فى سبيل ذلك لأخطار جسام وارهاق لا يحتمل، فان فى مكنة القراء أن يحققوا القــدر نفسه من السعادة ويحصلوا على

القدر نفسه من المعارف ، بدون أن يتعرضوا لارهاق أو خطر ــ وذلك من خلال القراءة فحسب ٠

فاليك يا من أهديت اليك هذا العمل الصغير المضنى ، والتى صدرت باسمها هذا الكتاب فكان نعم الاستهلال ٠ اليــك يا أكثر النساء تفردا وامتيازا لقد خطرت ببالى كملاحظة ومراقبة لكل ما هو جدير بالاهتمام ، وكمحبة لكل فضيلة ٠ ولم يكن حكمى هذا عبثا فقد انتقل اليك العلم عن طريق النور المشع المنبعث من والدك دوق أوربينو Duke of Urbino ذلك اللورد الشهير الممتاز ، فقد كنت كما كان بالنسبة لنا شمس الفضيلة والعــلم ٠

ولم أتحدث عن أخيك ، هذا اللورد البارز ، فهو رغم حداثة سنه قد برز فى الدراسات اللاتينة واليونانية ، فاقترب فى نطقهما من مستوى ديموسثنيوس Demosthenes وشيشرون Cicero ٠ ولــذا فقــد استخلص كل فضيلة من مثل هذه الفيوضات الواسعة المشرقة ٠ فليس أمامك الا السرور والسعادة لهذه الأعمال المشرفة ٠ فهو الذى يقدر على تثمينها بدقة ، ويرغب فى الذهاب بقدميه ، والتحليق بعقله ، ذاكرا أن أحد مناقب أوليس Olysses البليغ ، التى جلبت له المديح ، هو أنه كان قد رأى كثيرا من عادات الناس وبلدانهم ٠

لكن صاحبة النبل مشغولة بأمور زوجها اللورد العظيم (فهو مثل أرتيمزيا Artemisia الآخر ، موضع حبك واحترامك) وبأمور أسرتك المميزة بحكمها الزاهر ــ والتى تشمليها بعطفك ودعائك ، لذا فانى أقول انه يكفيك ، بالاضافة لمشاغلك الأخرى أن تغذى عقلك بقراءة هذه الرحلات التى وان كانت صادقة ، الا أنها قد تكون غير منمقة ، فأنت لست كنساء كثيرات أخريات يصخن السمع للأغانى التافهة والكلمات الفارغة ، يبعثرن الوقت بلا حساب ، وهن فى ذلك غيرك يا صاحبة النبل ، ويا ذات العقل الملائكى ، فأنت لا تسمحين بلحظة واحــدة تمر دون أن تقطفى فيهــا بعض الثمار الطيبات ٠ فبفطنتك ولطفك ستدركين سريعــا ما فى النص من قصور ، وستخلصين الى صدق الحقائق التى أوردتها ٠ واذا كان عملى هذا ــ كما أتمنى ــ قد حاز قبولك ولاقى استحسانك فسأعتبر نفسى قد نلت الاطراء الكافى والرضا لما قمت به من طول تجوال ، وما واجهته من غربة مخيفة ، تحملت فيها طوال أيام لا تحصى ــ الجوع والعطش ، والبرد

والحر ، والحرب والسجن ، وأخطارا أخرى لا تحصى ، وسأستعيد الشجاعة لهذه الرحلة الأخرى التى آمل انجازهـا فى وقت قصير ، لدراسة بعض المناطق والجزر فى الشرق والجنوب والغرب ، كما اعتزمت ـ ان كان ذلك يرضى الله ـ أن أتقصى مناطق الشمال وجزرها ٠ وأتمنى أن أقضى ما بقى من أيامى القليلة فى هذه الدنيا فى انجاز هذه الرحلات الجديدة بالثناء ـ فلست أرانى أصلح لعمل آخر سواها ٠

لودوفيكو دى فارتيما

السفر الأول

ملاحظات عابرة عن الاسكندرية والقاهرة
وبيروت وطرابلس وحلب وحماه ودمشق

الوصول للاسكندرية

ان الرغبة التى دفعت الآخرين لمشاهدة ممالك العالم المختلفة ، هى نفسها التى دفعتنى للقيام برحلاتى هذه ٠ ولما كانت كل البلدان مطروقة على نحو كبير بالنسبة لشعبنا ، فقد فكرت فى أنه يجب على أن أرى البلاد التى لم يرها أهل البندقية ، أو لم يترددوا عليها كثيرا ٠ ولذا نشرنا أشرعتنا فى يوم ذى ريح مواتية ، طالبين من الله المساعدة ، وأسلمنا أنفسنا للبحر ٠ وعندما وصلنا للاسكندرية ، احدى مدن (موانىء) مصر ، تطلعت لكل جديد ، وكنت كظمآن طال انتظاره للماء العذب ، وسرعان ما غادرت الاسكندرية فهى معروفة للجميع (١) ، وعن طريق النيل اتخذت سبيلى للقاهرة ٠

القـاهرة

عند وصولى للقاهرة وجدتها ليست كبيرة جدا كما أخبرتنا التقارير عنها قبل ذلك ، اخبارا كان يثير دهشتنا ٠ فمحيط القاهرة يساوى تقريبا محيط روما ٠ الا أنها على أية حال تضم مساكن أكثر بكثير من روما كما أن سكانها أكثر عددا ٠ ومنشأ الخطأ هو وجود قرى صغيرة مختلفة خارج أسوار القاهرة مما جعل بعض الناس يظنها ضمن دائرة القاهرة ذاتها (٢) ٠ ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك على أية حال لأن هذه القرى الصغيرة تبعد حوالى ميلين أو ثلاثة ، كما أنها تمثل قرى منفصلة ٠ ولن أتحدث طويلا عن عقائد المصريين وعاداتهم ، فكل الناس يعرفون أن مصر

---

(١) يقصد الايطاليين عامة ، والبنادقة خاصة ٠ وقد كان لكل من البندقية وجنوة على سبيل المثال امبراطوريات تجارية فى مختلف أنحاء البحر المتوسط وكان للبنادقة جاليات بل وأحياء فى اسطنبول ، كما كان لهم حى مشهور فى الاسكندرية ٠ وهذا يفسر قول فارتيما ان الاسكندرية معروفة تماما لشعبه ــ (المترجم) ٠

(٢) اعتبر فارتيما القاهرة هى تلك الداخلة فى حدود السور ، لكنه لم يحدد لنا أى سور يقصد ٠ ويذكر بادجر فى تعليقه على هذه الأفكار التى أوردها فارتيما أن الأوربيين يخلطون الأمر فيعتبرون مصر العتيقة (حى مصر القديمة أو العتيقة الآن) هى القاهرة الأصلية ، وقد يقصد فارتيما بالقرى المنفصلة هنا ، حى بولاق الكبير ، وان كان هذا ما يقصده فانه ــ أى حى بولاق ــ داخل فى زمام القاهرة ٠ (عن بادجر)

يقطنها المسلمون Moors (٣) والمماليك (٤) ، ويحكم مصر السلطان الكبير ، الذى يخدمه المماليك ، والمماليك بدورهم سادة (حكام) للمسلمين (العـرب) Moors (٥) ·

بيروت وطرابلس وحلب

لم أذكر شيئا عن ثراء القاهرة وجمالها ، وعن كبرياء المماليك ، فكل أولئك معروف لأهل بلدى · لقد أبحرت الى سوريا ، ورسوت أول ما رسوت فى بيروت (٦) بعد مسافة استغرقت ٥٠٠ ميل ، ومكثت فيها بضعة أيام · وهى مدينة مزدحمة جدا بالسكان المسلمين ، وتزخر بالبضائع المختلفة ويضرب البحر بأمواجه فى سورها ، وان كان عليك أن تعرف أن منطقة بيروت ليست محاطة احاطة كاملة بالأسوار ، وانما فى بعض أجزائها فقط ، وبالتحديد من ناحية الغرب ومن ناحية البحر (٧) · ولم أر فى بيروت ما يستحق أن أسجله خلا مبنى قديم يقولون انه كانت تسكنه ابنة الملك ، عندما أراد التنين the dragon افتراسهـا فقتله القديس جـورج

---

(٣) سبق أن أوضحنا فى مقدمة الترجمة العربية لم أطلق الأوربيون ، الذين تطل بلادهم على البحر المتوسط (جنوب أوروبا عامة) لفظ البربر Moors على العرب والمسلمين بشكل عام ، وقلنا ان ذلك يرجع الى قيام سكان شمال أفريقيا والمسلمين المطرودين من الأندلس بحركة جهاد كبرى روعت أوروبا فى ذلك الوقت ، كان المقصود منها استرداد أموال المسلمين الذين طردوا من الأندلس بعد أن سلبوا أموالهم بل وأبناءهم ، ولما كان هؤلاء بربرا مسلمين ، أطلق أهل أوروبا على كل المسلمين ، لفظ بربر ، من باب اطلاق اسم الجزء على الكل ·

(٤) المماليك أيضا مسلمون ، وقد يقصد فارتيما من هذا التقسيم أن المماليك كما ذكر فى موضع آخر من رحلته مسيحيون تركوا المسيحية وتحولوا للاسلام ·

(٥) راجع مقدمة الترجمة العربية ·

(٦) يذكر بادجر أن الايطاليين المقيمين فى سوريا على أيامه (القرن التاسع عشر) وكذلك بعض سكان الشرق الأدنى لا يزالون ينطقون بيروت كما كتبهـا فارتيما Baruti أى باروتى ·

(٧) يذكر بادجر أن بيروت (باروتى) كانت لا تزال على أيامه محاطة بالأسوار احاطة كاملة من جهة البر ، الا أنه يذكر أنه لا يوجد الا امتداد قليل للسور من جهة البحر · وربما كان بعض أجزاء السور المحيط ببيروت من ناحية البر ، قد تهدم وسوى بالأرض أثناء زيارة فارتيما ، حيث قام الأمير فخر الدين بعد ذلك باصلاحه ، اذ أن هذا الأمير قد رمم وأصلح تحصينات بيروت فى بداية القرن السابع عشر للميلاد · ويقول بادجر ان فارتيما ربما أخطأ فظن الأعمدة القديمة المتعددة التى تكون حدود رصيف الميناء the quay والتى يلطمها البحر بأمواجه لطما عنيفا ـ ظنها (أى فارتيما) سورا ·

St George (٨) • وهـذا المبنى القديم مخرب تماما ، وقد غادرت بيروت متخذا طريقى الى طرابلس Tripoli فى سوريا التى تستغرق الرحلة اليها من بيروت يومين صوب الشرق •

وطرابلس تتبع السلطان الكبير (فى القاهرة) (٩) وكل سكانها من المسلمين ، وتضم طرابلس من كل شىء (مختلف البضائع) وقـد غادرتها متجها الى حلب فى رحلة برية استغرقت ثمانية أيام ، وهى مدينة جميلة ، وتخضع لسلطان القاهرة وسكانها مسلمون ، وهى سوق لتركيا وسوريا • وهى ممر عظيم للبضائع خاصة الفارسية التى تصل الى هنا • وتعتبر حلب هى الطريق المؤدى الى تركيا وسوريا بالنسبة لأولئك القادمين من بلاد العجم Azemia (١٠) •

---

(٨) حكاية القديس جورج والغول ـ فيما يقول بادجر ارتبطت فى الأذهان فى هذه الأنحاء منذ أيام الحروب الصليبية • وينقل بادجر عن بعض الباحثين أن هذا المبنى كان كنيسة سنة ١٦٦٠ (أى بعد رحلة فارتيما بحوالى خمسين سنة) ثم حول الى مسجد ، وأن باحثا آخر (بوكوك pococke) قد أعاد المقالة ذاتها سنة ١٧٣٨ • ويذكر بادجر أن المسلمين اعتبروا القديس جورج أيضا أحد أوليائهم الصالحين فسموه النبى جورج •

والواقع أن هذا يعد مثالا على شيوع الخرافة التى فشت فى عصر الحروب الصليبية خاصة ، كما أنه درس للمتمسحين بعتبات الأولياء ، واذا كان القديس جورج كان ينقذ العذارى على الجانب المسيحى ، فقد شاع بين المسلمين أن السيد أحمد البدوى (فى طنطا بمصر) يخلص الأسرى من أيدى الصليبيين (يا بدوى •• يا بدوى •• جاب اليسرى) أى أنك يا بدوى أتيت بالأسرى ـ (المترجم) •

(٩) هو السلطان قنصوة الغورى الملك الأشرف (١٥٠٢ ـ ١٥١٦) ، ورغم أن قوائم السلاطين المماليك تنتهى بطومان باى (١٥١٦ ـ ١٥١٧) الا أن دولة المماليك تعتبر فى حكم المنتهية منذ هزيمتهم ـ أى المماليك فى موقعة مرج دابق التى لقى فيها السلطان الغورى مصرعه على أيدى العثمانيين ، كما يعتبر عام ١٥١٦ هو بداية التاريخ العثمانى فى بلادنا العربية • ويذهب بعض المؤرخين الى أن السلطان سليم قد عزم على غزو دولة المماليك بعد أن هزم الدولة الصفوية سنة ١٥١٤ فى موقعة جالديران (تشالديران) • انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور العصر المماليكى فى مصر والشام • القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٥ ـ (المترجم) •

(١٠) يقول بادجر ان الايطاليين يستخدمون الحرف Z بدلا من الحرف J لذا ففارتيما يقصد بالعزم Azem العجم ، ثم جمع الكلمة على النسـق الايطالى فصـارت Azemia وقد وجدنا هذه الطريقة فى الكتابة فى أكثر من موضع فى رحلته فهو يكتب جدة Zida زدا أى انه أحل Z محل J •

وقد لاحظت هذا الابدال نفسه عند بعض شعوب شبه القارة الهندية ، وبالذات عند البنجالاديشيين ، فقد طلب أحدهم منى أن أوصله بسيارتى بعد الزبل ، وهو يقصد الجبل • (المترجم) •

حمـاه ومنين Menin

وقد غادرت حلب متجها الى دمشق فى رحلة استغرقت عشرة أيام وفى منتصف الطريق كانت توجد مدينة حماة (١١) تنمو بها كميـات كبيرة من القطن وفواكه طيبة جدا · وبالقرب من دمشق ، وعلى بعد ستة عشر ميلا وجدت منطقة أخرى هى منين Menin (١٢) تقع على قمة الجبل ويسكنها مسيحيون تابعون للكنيسة اليونانية وهم تابعون لسيد (حاكم) دمشق · وتوجد بها كنيستان جميلتان جدا ، يقال ان هيلينا ، أم قسطنطين ، هى التى أنشأتهما · وتنمو الفاكهة الممتازة هنا ، خاصة العنب كما توجد بساتين رائعة وينابيع · ولقـد غادرت هـذا الموضع متجها الى المدينة الشهيرة ، دمشق ·

دمشـق (١)

ليس من الممكن ــ حقيقة ــ أن أصف جمال دمشق وامتيازها ، تلك المدينة التى مكثت فيها بضعة أشهر لأتعلم اللغة العربية (لغة المسلمين Moorich language) لأن سـكان هـذه المدينة من العرب Moors والمماليك ، والمسيحيين اليونانيين · وفى هذا الصدد يجب أن أعطى نبذة عن حاكم دمشق التابع لسلطان القاهرة ·

ويجب أن تعرف أنه فى مدينة دمشق هذه توجد قلعة قوية جدا وجميلة يقال ان مملوكا فلورنسيا (من فلورنسا) هو بانيها على نفقته الخاصة ، وقد كان حاكما لهذه المدينة (دمشق) وأكثر من هذا ، ففى كل زاوية من زوايا هذه القلعة يتجلى الفن الفلورنسى منحوتا فى الرخام · وتحيط بهذه القلعة خنادق عريضة ، وللقلعة برجان ، وجسران يمكن سحبهما ، وتوجد بها مدفعية ممتازة ودائمة (١٣) ، ويعسكر بها بشكل

---

(١١) يذكر بادجر أن حماه Hamath تكتب فى التوراه والانجيل هماث Hamath وتقع فى منتصف طريق القوافل بين حلب ودمشق ·

(١٢) منين أو تل منين مشهورة بعنبها الجيد ، ويكثر الجريك الأورثوذكس فى هذه البلدة ، فهم هنا أكثر عددا منهم فى أى مكان آخر من سوريا · وظل وضع منين كذلك حتى القرن التاسع عشر (مختصر تعليق بادجر) ·

(١٣) يذكر بادجر أن قلعـة دمشق عبـارة عن حصـن ممتد ، رباعى الزوايا quadrangular له أبراج ، والقلعة محاطة بخندق عميق · ويقول بادجر « اذكر اننى =

دائم خمســون مملوكا تابعون للســلطان المملوكي الكبير - يقيمون مع حاكمها (حاكم القلعة) • وكان هذا الفلورنسي مملوكا للسلطان الكبير ، ويقال ان هذا السلطان الكبير قد دس له السم وقت وجود هذا المملوك الفلورنسي ، وأن أحدا لم يستطع علاجه من آثار السم الى أن هيأ الله له الشفاء على يد مملوكه الفلورنسي المشار اليه ، فكافأه السلطان الكبير بأن ولاه حكم دمشق ، فشيد فيها هذه القلعة • وبعد ذلك توفي هذا المملوك الفلورنسي في دمشق فبكاه الناس ووقروه توقيرا شديدا باعتباره وليا من أولياء الله الصالحين أوتي علما وافرا ، ومنذ ذلك الوقت كانت هذه القلعة دائما في قبضة السلطان ، فعندما ينجح أحد السلاطين المماليك في الوصول للسلطنة يأتيه أحد أمرائه ، ليقول له : « سيدي •• لقد خدمتك كعبد لك ردحا طويلا من الزمن ، فأعطني دمشق ، وسوف أقدم لك سيدي مائة ألف أو مائتي ألف أشرفي ذهبـــا "teraphim of gold" » (١٤)•
وعندئذ يمنحه سيده السلطان هذا الشرف • لكن يجب عليك أن تعرف أنه اذا لم يرسل حاكم دمشق للسلطان ٢٥٫٠٠٠ أشرفي ذهبا في غضون عامين فانه - أي السلطان - يسعى لقتله بالسلاح أو بأي طريقة أخرى ، أما اذا قدم للسلطان المبلغ الذي ذكرناه ، فانه يبقى في الحكم • ويوجد دائما مع حاكم دمشق ، عشرة حكام فرعيون أو اثنا عشر lords & barons فعندما يريد السلطان مائتي ألف أو ثلاثمائة ألف أشرفي ذهبا من حاكم دمشق أو من تجارها - الذين لا يلقون منه معاملة عادلة ، وانما يوقع الفتن بينهم ويعرضهم للسلب والاغتيال ، فالمسلمون بشكل عام يعيشون تحت حـــكم المماليك كمــــا يعيش الحمــــل في ظـــــل الــــذئب Like the Lamb under the Wolf (١٥) - فانه - أي السلطان -

---

= لاحظت بعض الرسوم والشعارات الدالة على النبالة المملوكية على السور الخارجي للمدينة خلال زيارتي لدمشق سنة ١٨٣٥ ، وقد حطم ابراهيم باشا جانبا من السور لتهيئة مواد البناء للمستشفى العسكري » •

(١٤) الدنانير الأشرفية ، ضربت بنفس وزن الافرنتي (الافرنجي) أو الدينار البندقي وهو الدوكات (٣٫٤٠ جرام) وذلك بعد أن لجأ السلطان الأشرف برسباي الى تشجيع البنادقة على سك نقودهم الافرنتية في دار السك السلطانية بالقاهرة ، لتمصير النقود الايطالية الرائجة في الأسواق ، وقد نجح في ذلك فضربت الأشرفية في مصر سنة ٨٢٩ هـ (١٣٢٥ م) ، وتم ابطال التعامل بالدنانير المشخصة (الدوكات) بسبب صور (الكفار) عليها ، واحلال الأفلورية الأشرفية ، وقد ذكر ابن اياس في بدائع الزهور أن « الأشرفية البرسبيهية من خالص الذهب ويرغب الناس اليها في المعاملات •

عبد الرحمن فهمي : النقود العربية ماضيها وحاضرها • القاهرة ، وزارة الثقافة ، ١٩٦٤ • ص ص ٩٨ - ١٠٠ - (المترجم) •

(١٥) كان نواب الشام المماليك يتمتعون بقدر كبير من الاستقلال رغم تبعيتهم الرسمية للسلطان المملوكي الكبير في القاهرة ، وهو في هذه الفترة قنصوة الغوري ، وكانت الفوضى ضاربة أطنابها بالشام ، وكان الظلم والفساد والفوضى على أشدها ، ولعل من أفضل المراجع =

يوسل خطابين لحاكم القلعة ، يذكر فى أحد الخطابين — ببساطة — أن يجمع فى القلعة الأمراء أو التجار • وعندما يجتمعون ، يبدأ حاكم القلعة فى قراءة الخطاب الثانى ، ويقوم بتنفيذ الأوامر الواردة به فورا ، سواء كانت هذه الأوامر تقضى بشر أو تقضى بخير ، وبهذه الطريقة يجمع حاكم القلعة ما يراد من مال • وفى بعض الأحايين ، يكون حاكم دمشق قويا بدرجة كافية تجعله لا يذهب للقلعة (لا يطيع الأمر بالتوجه للقلعة) ، واذا ما أحس الأمراء والتجار barons & merchants بالخطر ، ركبوا خيولهم ، وولوا وجوههم هاربين الى تركيا (آسيا الصغرى) • اننى لن أتحدث أكثر من هذا فى ذلك الموضوع ، الا أنه بقى أن أقول ان الرجال المنوط بهم حراسة هذه القلعة والمقيمين فى أبراجها الأربعة الضخام — يكونون دائما يقظين يراقبون ، ولا يصدر عنهم أى صياح أثناء الليل ، وانما لكل منهم طبلة a drum (١٦) على هيئة نصف صندوق ، يدق عليها بعصـا دقا شديدا ، ويقوم الآخرون بالاجابة على دقه بدق مماثل ، فاذا ما تأخر أحدهم فى الرد بمقـدار ما يستغرق الدق For the space of paternoster سجن لمدة عـام •

دمشــق (٢)

الآن وقد رأينا ما يتعلق بحاكم دمشق ، لابد أن أذكر بعض الأمور المتعلقة بهذه المدينة العامرة بالسكان والثرية • انه من المحال أن نتصور روعة الصناعات وأناقتها هنا •

وفى دمشق ، تجد وفرة هائلة فى الغلال واللحوم ، والمنطقة كلها (قد يقصد الشام) زاخرة بالفاكهة التى لم أر لها مثيلا من قبل خاصة العنب الطازج ، المتوفر فى كل المواسم • وسأذكر الفاكهة الطيبة والفاكهة الرديئة التى تنمو هنا • فالرمان والسفرجل من الأنواع الطيبة ، واللوز والزيتون ذو الحب الكبير فى غاية الروعة • وتنمو هنا الورود الحمراء رائعة الجمال والتى لم يسبق أن رأيت لروعتها مثيلا • ويوجد هنا أيضا

= التى نوصى بها من يرغب فى دراسة أوضاع الشام فى عصر نوابه هو كتاب محمد بن طولون الصالحى الدمشقى المتوفى ٩٥٣ هـ : اعلام الورى بمن ولى نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى •

(١٦) يذكر بادجر أن الطبلة حتى أيامه (القرن التاسع عشر) تستخدم للاعلام والتنبيه حيث يقوم المسحراتية بالطواف فى الشوارع يقرعون طبولهم لتذكير الصائمين بميعاد وجبة السحور قبل حلول موعد الامساك • ويذكر بادجر اسما آخر للطبلة هو باز أو باظ baz.

تفاح وخوخ وكمثرى ، الا أن مذاقها سيىء جدا ، ويرجع ذلك الى أن دمشق تكثر فيها المياه (١٧) ، فالقنوات تجرى خلال المدينة وغالب مساكنها بها نوافير جميلة من الفسيفساء Mosaic work والمنازل الدمشقية قذرة من الخارج ، الا أنها جميلة جدا من الداخل ، كما أنها (من الداخل أيضا) مزينة بأعمال رائعة من المرمر والرخام السماقى marble & porphyry وفى دمشق مساجد كثيرة · وأحد هذه المساجد ـ وهو المسجد الجامع أو المسجد الرئيسى تبلغ مساحته مساحة كنيسة القديس بطرس فى روما St Peter's at Rome وصحن هذا المسجد غير مسقوف ،الا أن الأروقة المحيطة بالصحن مسقوفة · ويقال انهم يحتفظون هنا برفات القديس زكريا Zachariah النبى ، وأنهم يوقرونه توقيرا شديدا · ولهذا المسجد أربعة أبواب رئيسية من المعدن كما يضم عديدا من النافورات (الفسقيات) Fountains · ومرة أخرى نرى أين توجد أضرحة (أو رفات) القديسين المسيحيين التى لازال يوجد عليها كثير من أعمال الفسيفساء (١٨) ·

ومرة أخرى ، رأيت الموضع الذى يقال ان المسيح عليه السلام قال فيه للقديس بولس saint Paul ما نصه :

"Saute Saule. Cur me persequeries" (١٩) ·

انهم يدفنون هناك كل المسيحيين الذين وافتهم منيتهم فى المدينة المذكورة · وثمة نصب (ضريح) فى سور دمشق يقال ان القديس بولس كان محبوسا به ، وقد أعاد المسلمون بناءه مرات عددا ، لكنهم كانوا يجدونه اذا ما أشرق الصباح مهدما ، فالملاك حطمه عندما كان يسحب القديس بولس ليخرجه من محبسه · وقد رأيت أيضا المنزل الذى ذبح فيه قابيل أخاه هابيل (كما يقولون) ويبعد ميلا عن المدينة (دمشق) فى الجانب المقابل لها عند سفح تل فى واد عميق جدا (٢٠) ·

---

(١٧) يعجب بادجر من أن فارتيما لم يذكر البرتقال والخوخ . فالبرتقال متوفر جدا هنا ، أما الخوخ فحول دمشق وهو أحد صادرات دمشق الهامة ، الا أنه نظرا لمغادرة فارتيما لدمشق فى أول ابريل ، فانه لم ير هذه الفاكهة لأن موسمها لم يكن قد حل · أما الزهور ذات الرائحة الرائعة والتى يستخلص منها العطر فتزرع فى سهل يبعد عن دمشق بحوالى ثلاثة أميال ·

(١٨) عن بادجر : ثمة جانب من مسجد يحيى أو جامع بنى أمية أو المسجد الأموى كان فى أساسه كنيسة كانت تحمل اسم يحيى بن زكريا عليهما السلام ويعتقد المسلمون أن رأس يحيى مدفون هنا · وقد تحدث بكنجهام Buckingham ـ عن المسجد ، كحديث فارتيما أى على اعتبار أنه يضم قبر زكريا عليه السلام ·

(١٩) القديس بول ويسمى صول Saule ·

(٢٠) توجد حكايات شعبية أخرى كثيرة على هذه الشاكلة ، مثل حكاية منزل انانياس Ananias وقبر الشهيد جورج الذى ساعد القديس بولس (بول) فى الهرب عبر =

وسأتناول الآن فى الفصل التالى ما يتمتع به المماليك من حريـة فى دمشـــق (٢١) ٠

المماليـك فى دمشـــق

المماليك فى أساسهم مسيحيون تركوا المسيحية ، كان السلطان قد اشتراهم ٠ ومن المؤكد أن وقت هؤلاء المماليك لا يضيع هدرا ، فهم يتدربون دائما ، اما على السلاح واما على فن الكتابة وتحصيل العلم ، وذلك بغيه تحقيق الامتيـاز فى كلا المجالين ٠ ويجب أن تعلم أن كل مملوك ، صـغر أم كبر ، يتقـاضى ستة أشرفيـات Six Saraphi (٢٢) كل شهر بالاضافة الى نفقاته ونفقات حصانه ونفقات أسرته ، الا أن ما يصرف له يزيد فى حالـة انضمامه الى تجريدة عسـكرية ذاهبـة للحرب (٢٣) وعندما يذهب المماليك الى المدينة ، يكونون دائما فى صحبة بعضهم بعضا ، أى فى مجموعات من ثلاثة أو اثنين مخافة أن يتعرضوا للخزى disgrace ان كانوا فرادى ٠ فان حدث أن التقوا بفتاتين أو ثلاث ، انتهزوا هذه الفرصة واهتبلوها ، واذا لم يلتقوا بهن كمنوا لهن فى أماكن مخصوصة كالخانات الكبيرة (٢٤) فاذا مرت الفتيات أو النسوة أمام الباب ، أمسك كل مملوك بواحدة منهن من يدها وسحبها للداخل ، ثم يأتيها كيف شاء ٠ الا أن الفتاة تقاوم ان أراد المملوك أن يعرف من هى (أن يرى وجهها) ذلك لأن كل النساء منقبات هنا ، ولذا فهن يعرفننا الا أننا لا نعرفهن ٠

= نافذه فى السور وبوجد صدع فى الصخره الواقعة على بعد ميل من دمشق ، تملص عبرها هذا الحوارى من مطارديه ، لا زال برتادها القسس والمسيحيون الموجودون فى دمشق ٠ بادجر) ٠

(٢١) يقصد التفسخ والفساد ، كما سيتضح من سياق الفصل التالى ــ (المترجم) ٠

(٢٢) عن النقود الأشرفية راجع الحاشية السابقة فى ص ٢٣ ٠

(٢٣) لقد جلب هؤلاء المماليك من جرجيا Georgia وبلاد الشركس Circassia ومنجرليا Mingrelia ، وقلة منهم جلبت من النمسا Austria وروسيا Russia حيث حولوا للاسلام ، وركز سادتهم على تعليمهم ، وكانوا يتميزون بالقوة والجمال ٠٠ وقد تعودوا على تناول طعامهم على مائدة سيدهم ، ويمكن لأى مسئول عسكرى أن يشترى عبدا (مملوكا) فيصبح ــ مع أنه مملوك ــ يمتلك مملوكا أو ممالك ٠ واذا ما أنهى المملوك تعليمه وتدريبه تلقى من سيده حصانا وسلاحا كهدية بالاضافة الى الملابس الجديدة التى يتلقاها فى رمضان من كل عام ٠ (موجز تعليق بادجر) ٠

(٢٤) يذكر بادجر أن الخانات أماكن مهيأة لاستقبال التجار وبضائعهم وفى بعض الأحيان تعقد فيها الأسواق لبيع بضائع التجار ٠

ويقول المملوك لمن هم بها انه يريد أن يعرف من هي وأن يرى وجهها ، وعندئذ تقول له المهموم بها : « أخي ، ألا يكفي أن تفعل معي ما تريد وأن تكتم رغبتك في معرفة من أنا ؟ ثم تستعطفه كثيرا كي يتركها لتذهب لشأنها (بعد أن يكون قد أتاها) • وفي بعض الأحيان يظن المماليك أنهم قد اقتنصوا ابنة الحاكم وأنهم سينعمون بمضاجعتها ، بينما يكونون في حقيقة الأمر قد اقتنصوا زوجاتهم (نظرا لأن كل النسوة منقبات) وقد حدث ذلك بينما كنت في دمشق • ان النسوة في دمشق يجئن ويرحن وقد ارتدين أثوابا حريرية جميلة فوقها عباءات صوفية بيضاء رقيقة ولامعة كأنها حرير ، كما أنهن جميعا يلبسن صنادل Buskins بيضا أو أحذية حمراء أو أرجوانية ويضعن حليا كثيرات حول رؤوسهن ومعاصمهن وفي آذانهن • وعندما تتزوج الواحدة منهن — ولا يكون ذلك الا برغبتهن ومشيئتهن — فانها لا ترغب في البقاء مع زوجها مدة طويلة لذا فهي تذهب للقاضي طالبة الطلاق وبعد أن يتم لها ما تشاء تتزوج بعلا آخر ، ويتزوج زوجها السابق بامرأة أخرى • ورغم أنهم يقولون ان المسلم يتزوج خمس نسوة أو ست (٢٥) • الا أنني شخصيا لم أر مسلما في هذه المناطق قد تزوج أكثر من امرأتين أو ثلاث على الأكثر •

ويأكل المسلمون في غالبهم في الطرقات حيث تباع الملابس ، فهم يطبخون طعامهم على مرأى من الناس ويأكلونه وهم جلوس في الطريق • ويوجد هنا خيل بأعداد كبيرة جدا ، بالاضافة للجمال والجواميس والأغنام والماعز • وفي دمشق جبن طازج وطيب بوفرة ، واذا أردت أن تشتري حليبا فثمة أربعون أو خمسون من الماعز يمر بها راعيها عبر طرقات المدينة كل صباح (ولهذه الماعز آذان طويلة يبلغ طول الأذن منها ما يزيد على الشبر) ويقوم الراعي باحضار بعض الماعز الى غرفتك حتى ولو كنت تسكن في الطابق الثالث ، ثم يقوم بحلبها في حضورك — وفقا للكمية التي تريدها — في اناء معدني جميل • ويوجد هنا كثير من الماعز الحلوبة (٢٦) • وتباع هنا أيضا كميات كبيرة من الكمأة (الفقع) ففي بعض الأحيان يصل الى هنا خمسة وعشرون أو ثلاثون جملا محملة بها ، وسرعان ما تنفد الكمية في غضون ثلاثة أيام أو أربعة • وترد هذه الكمأة من أرمينيا وآسيا الصغرى (تركيا) (٢٧) ويسير المسلمون وهم يرتدون عباءات

---

(٢٥) لا يبيح الشرع الاسلامي الزواج بأكثر من أربع ، ومن الواضح أن الأمور اختلطت على فارتما — (المترجم) •

(٢٦) يذكر بادجر أنه حتى أيامه كانت هذه العادة سائدة في دمشق •

(٢٧) يذكر بادجر أن الكمأة توجد بكميات كبيرة في مواسم معينه من كل عام على ضفاف دجلة والفرات ويحملها البدو مسافات طويلة لبيعها ، ويتراوح سعر الاقة من شلن الى ستة شلنات •

طويلة وواسعة دون أحزمة من الحرير أو القماش ويرتدى غالبهم سراويل صوفية وأحذية بيضا • وعندما يلتقى أحد المسلمين (يقصد من أهل البلاد) بأحد المماليك حتى ولو كان (أى هذا المسلم) تاجرا مرموقا ذا مكانة ، فلابد له أن يظهر الاحترام الفائق للمملوك ولابد أن يتنحى ليوسع له الطريق ولابد أن يتخلى عن مكانه له ، واذا لم يفعل ذلك ، ضرب بالعصا • ويمتلك المسيحيون هنا مخازن ومحلات كثيرة غاصة بالملابس والحرير والساتان والمخمل والأوانى النحاسية وكل البضائع المطلوبة ، ومع هذا فانهم يلقون معاملة غير حسنة •

السفر الثاني

بلاد العرب الصحراوية

الطريق من دمشق الى مكة المكرمة

ما ذكرناه من أمور متعلقة بدمشق هنا ، قد يكون مفصلا تفصيلا غير ضروري ، فالظروف تدعونى لكتابة رحلتى باختصار ·

ففى اليوم الثامن من شهر ابريل سنة ١٥٠٣ (١) توقفت القافلة كى تتوجه صوب مكة ، ونظرا لأننى كنت شغوفا بالاطلاع على المناظر والأوضاع المختلفة ، ولم أكن أعرف ما هو السبيل لذلك ، لذا فقد كونت صداقة عميقة مع القائد المملوكى للقافلة الذى كان فى أصله مسيحيا تحول للاسلام (٢) لكى يلبسنى لباس المماليك ويعطينى حصانا جيدا ويجعلنى بصحبة المماليك الآخرين ، وقد حققت كل هذا بأن دفعت له أموالا وأشياء أخرى · وعلى هذه الحال اتخذنا طريقنا مسافرين ثلاثة أيام الى موضع يقال له المزيريب Mezeribe (٣) حيث مكثنا فيه ثلاثة أيام كى يشترى التجار من الخيول ما يحتاجون ·

وفى المزيريب شيخ أسرة الزعبى العربية Zäabi or Ez. Zäabi (٤) ووفقا لما يقوله العرب فان للشيخ الزغبى ، اخوة ثلاثة وأربعة أولاد ذكورا كما أنه يمتلك ٤٠٫٠٠٠ حصان و ١٠٫٠٠٠ فرس ، وله هنا ٣٠٫٠٠٠ بعير لأن مراعيه تمتد مسيرة يومين · وعندما يفكر هذا الشيخ جديا فى شن الحرب ضد سلطان القاهرة وحاكم دمشق وحاكم القدس فانه ــ فى بعض الأحيان ، وفى موسم الحصاد ، وعندما يظن هؤلاء الحكام أنه بعيد عنهم بعدا يبلغ مئات الأميال ــ يخطط لشن غارة ذات صباح على

---

(١) الموافقة لسنة ٩٠٨ هـ ·

(٢) يركز فارتيما فى أكثر من موضع من رحلته على أن المماليك كانوا فى أصلهم مسيحيين تحولوا للاسلام ، والواقع أن هذا قد يكون صحيحا ، لكن ليس فى كل الأحوال ، فقد عرف العالم الاسلامى نظام المماليك منذ وقت باكر ، وبعض المماليك كانوا تركا على العقيدة الوثنية الشامانية وليسوا على المسيحية ، ثم أسلموا ــ (المترجم) ·

(٣) ذكر بوركهارت فى كتابه رحلات الى سوريا ان قافلة الحجاج تمكث عادة فى المزيريب عشرة أيام لاتاحة الفرصة لتجمع الحجاج القادمين من أماكن مختلفة ، وللتزود بالمؤن ولدفع الأتاوات لمختلف القبائل البدوية التى ستمر القافلة خلال اراضيها ·
Burckhardt, Travels in Syria, pp. 240-242.

(٤) كتبها فارتيما هكذا Zambei ، وما ذكرناه فى المتن اعتمادا على ما ذكره بوركهارت فى الملحق الثالث لكتابه Travel in Syria ، وكذلك اعتمادا على تعليقات بادجر فى الطبعة التى نترجم عنها والتى عرفنا بها فى مقدمة هذه الترجمة ، اذ يذكر بادجر نقلا عن بوركهارت فى كتابه السالف ذكره أن الزعبى Zäapi هو اسم لأسرة عربية (بدوية) مهمة فى هذه المنطقة ·

مخازن الغلال فى المزيريب حيث يكون الشعير والغلال قد وضع باحكام فى الغرار ، فينهبه الشيخ الزعبى ورجاله ويولون دون أن يلحق بهم أحد • وفى بعض الأحيان يظل الشيخ يعدو بأفراسه طوال النهار وطوال الليل دون توقف ، وعندما يصل للجهة التى هو قاصدها فى نهاية المطاف يقوم بتقديم حليب النوق لأفراسه ، فهو — أى حليب النوق — منعش جداً ويساعد على استرداد الحيوية Very refreshing • وصدقوني ان قلت انه يبدو لى أنهم لا يعدون وانما يطيرون كالصقور ، فقد كنت معهم ، ويجب أن تعلم أن غالبهم يمتطون الخيول غير مسرجة ، وهم بأثوابهم المعتادة ، ولا يستثنى من ذلك الا علية القوم • ويتكون سلاح الواحد منهم من رمح (حربة) Lance من خيزرانة هندية Indian Cane يبلغ طوله عشرة أذرع أو اثنى عشر ذراعــا Cubits ، وفى آخــرها قطعــة من الحديد • وعندما يذهبون للقتال يتراصون متجاورين كأنهم وكائز starlings يحــاذى بعضها بعضــا • وهؤلاء العرب (البدو) الذين أشرت لهم آنفا ذوو أحجام صغيرة ولونهم أصفر داكن ، وأصواتهم كأصوات النســاء feminine Voice وشعورهم طويلة سوداء كثيفة • والحق اقول لكم ان أعدادهم هائلة لا يمكن احصاؤها وهم لا يكفون عن الاقتتال فيما بينهم • وهؤلاء البدو يقطنون الجبل ، وعندما يحين موعد مرور القوافل المتجهة الى مكة المكرمة ينزلون من الجبل ويكمنون بقصد النهب • وهم يحملون زوجاتهم وأطفالهم وكل أمتعتهم وخيامهم فوق ظهور الجمال • وخيامهم تشبه خيام العسكر وهى مصنوعة من الصوف الأسود ، ولهـا منظر كئيب (٥) •

وفى الرابع عشر من شهر أبريل سنة ١٥٠٣ (٦) غادرت القافلة (التى أشار اليها آنفا ، وهى قافلته التى رحل معها) المزيريب وكانت تضم ٣٥٠٠٠ جمل وحوالى ٤٠٠٠٠ شخص ، وقد كنا ٦٠ مملوكا نحرس كل هذه القافلة ، وكان ثلث المماليك (أى ٢٠ مملوكا) يسير فى مقدمة القافلة وثلثهم الثانى فى وسطها ، بينما كان ثلث المماليك الأخير فى مؤخرة القافلة •

---

(٥) يذكر بادجر أن ما ذكره فارتيما من وصف لحياة البادية وأساليب أهلها فى الحرب ، مازال صحيحا الى أيامه (أى أيام بادجر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر) •

(٦) ورد فى متن الرحلة تاريخ ١١ ابريل ، الا أن بادجر ذكر فى تعليقه أن هذا من أخطاء فارتيما نتيجة العجلة ، فقد غادر فارتيما دمشق فى ٨ أبريل واستغرق ثلاثة أيام حتى وصل المزيريب ، ومكث فيها — أى فى المزيريب ثلاثة أيام ، وبناء على ذلك فقد استنتج بادجر أن التاريخ هو ١٤ ابريل وبناء على استنتاج بادجر قمنا بالتعديل ، وأثبتنا ما يطالعه القارىء فى المتن •

ويجب أن تفهم أننا أتممنا رحلتنا ـ الى مكة ـ طوال الوقت ، بهذه الطريقة (على هذا النسق) · ان الرحلة من دمشق الى مكة تستغرق أربعين نهارا وأربعين ليلة · وعلى أية حال فقد خرجنا من المزيريب صباحا ، وتابعنا سفرنا عشرين ساعة ، وعندئذ أصدر قائد القافلة اشارات معينة لكل جماعة من جماعات القافلة تعنى أن كل القافلة يجب أن تتوقف ، وأن على كل جماعة أن تلزم مكانها : وهكذا توقفنا أربعا وعشرين ساعة وتم انزال الأحمال من فوق ظهور الجمال ، وراح الجمع الجميع يطعم ، ويطعم دوابه · ثم تلقت القافلة اشارة فأعاد الجميع الأحمال الى ظهور الدواب في الحال · ويجب أن تعلم أنهم يقدمون للجمل ما يوازى خمسة أرغفة ـ فقط ـ من الشعير غير المطبوخ ، ولا يزيد حجم الرغيف الواحد عن حجم الرمانة(*) ، ثم يمتطون خيولهم ويستمرون طوال الليل فطوال النهار التالى فى سفر ، فاذا علمنا أن هناك اثنتين وعشرين ساعة سابقات ، فأضف اليهن أربعا وعشرين ساعة أخريات · وكانت القافلة تجد ماء طوال ثمـانية أيام وذلك بحفر الأرض المتربة أو الرملية أو من الآبار وأحواض المياه · وبعد انقضاء الأيام الثمانية تتوقف القافلة ليوم أو يومين ، حتى تنوء الجمال بأحمالها بعد أن غدا مشيها وئيدا ، اذ كان الجمل الواحد يحمل أحمالا توازى ما يحمله بغلان ، وكان الركب يقدمون لهذه الحيوانات البائسة (الجمال) ماء تشربه ، مرة واحدة ، كل ثلاثة أيام وعندما كنا نتوقف عند مورد ماء ، كان يتحتم علينا دائما أن نخوض معركة مع أعداد كبيرة من العرب (البدو) ولكنهم لم يقتلوا منا أكثر من رجل وامرأة ، فهم رغم كثرتهم الا أن انحطاط عقولهم جعلنا ـ مع أننا لا نزيد عن ستين مملوكا ـ قادرين على مقاومة أربعين ألف بدوى أو خمسين ألفا فهؤلاء الوثنيون (**) (يقصـد البدو) لا يجيدون استخدام السلاح كالمماليك · ويجب أن تعلم أننى كونت خبرة ممتازة عن هؤلاء المماليك خلال رحلتى معهم ، فقد رأيت وآخرون ، المملوك يأخذ أحد عبيده ويضع الرمانة فوق رأسه ، ويجلسه (أى يجلس عبده) على بعد اثنتى عشرة خطوة أو خمس عشرة خطوة ، ثم يصوب سهمه نحو الرمانة ، ويطلقه من قوسه ، فيصيبها (أى الرمانة) ، ومرة أخرى ، رأيت مملوكا يجرى بالفرس عدوا ، ثم فك سرجه ووضعه فوق رأسه ثم أعاده لموضعه فوق ظهر الفرس ، دون أن يسقط (لا السرج ولا الفارس) ، وكان كل هذا

(*) تصنع هـذه الوجبة من دقيق بعد عجنه ، ثم يكور كهيئة الكرة وتستخدم مثل هذه الوجبات لعلف الخيول خلال الرحلات الطويلة ·

(**) استخدم فارتيما كلمة pagans التى تعنى الوثنيين ، الا أن هذا نوع من التجنى ، فهؤلاء البدو ـ مهما كان تخلفهم العقدى الا أنهم مسلمون ، شاعت بينهم البدع ، أو قست قلوبهم ، اما وصفهم بالوثنيين فى هذا العصر فذلك غير صحيح ·

يحدث والفرس منطلقة بسرعتها القصوى • وسروج خيل المماليك على شاكلة السروج الأوربية (٧) •

مدينة سدوم وعاموراء Gomorrah (٨)

عندما سافرنا اثنى عشر يوما ، وجدنا وادى سدوم وعاموراء Gommorah • حقا ان الكتاب المقدس لم يكذب ، فالمرء يرى رأى العين أنهما قد خربتا نكالا من الله (بسبب معجزة الرب) وانى أقول انه توجد ثلاث مدن كانت فوق قمم ثلاثة جبال ، ولازال يوجد فوقها على ارتفاع أذرع ثلاث أو أربع ، ما يبدو دما يشبه الشمع الأحمر مختلطا بالتراب • أقول لكم الصدق ، انني أعتقد ــ بناء على ما رأيت ــ أن شعبا شريرا كان هنا فكل ما يحيط بهذه البقعة صحراء قاحلة ، فالأرض موات لا تنبت ما يؤكل ، والماء معدوم ، وقد كانوا يعيشون على المن Manna وقد عاقبهم الله لأنهم كفروا بأنعمه For not acknowledgeing the benefits they recieved فحاق بهم عذابه وترك الله ديارهم خرابا لتراها الأجيال everything is still seen in ruin

لقد عبرنا هذا الوادى الذى يبلغ طوله ــ على الأقل ــ عشرين ميلا ، وهناك مات ثلاثة من الثلاثة والثلاثين شخصا العطاش ، وقد دفن كثيرون فى الرمال وتركت رؤوسهم دون أن تغطى بالرمال ، لأنهم لم يكونوا قد

---

(٧) لقد فسر فارتيما نفسه هذا فى أكثر من موضع فى رحلته هذه ، فهؤلاء المماليك يقضون معظم أوقاتهم فى التدريب • فالمماليك يتم الحصول عليهم صغارا ــ بالشراء أو بأى وسيلة أخرى كانت ــ ليدعم بهم الحاكم حكمه ، لذا فهو يعتنى بتدريبهم وتنشئتهم • عن المماليك وتدريبهم العسكرى ، انظر على سبيل المثال :

- ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة • القاهرة ، ١٩٦٠ •
- سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر فى عهد دولة المماليك البحرية • القاهرة ، ١٩٥٩ •
- سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام • القاهرة ، ١٩٦٥ •
- السيد الباز العرينى : الاقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك • القاهرة ، ١٩٥٦ •

(٨) أهل سدوم هم قوم لوط الذين أشار اليهم القرآن الكريم • يقول ابن منظور وفيهم مدينتان وهما سدوم وعاموراء ، أهلكهما الله فيما أهلكه • ويقال كان سدوم ملكا فسميت المدينة باسمه • وقد ورد ذكر لوط عليه السلام ، وقومه ــ قاتلهم الله • فى القرآن الكريم ، فى ٢٧ موضعا ، وكان قوم لوط يأتون الفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين • وقد أفاضت تفاسير القرآن الكريم فى ذكر أمرهم • انظر تفسير ابن كثير أو الطبرى أو القرطبى ••• الخ عند الآيات الآتية ، على سبيل المثال :

هود/٧٠ ــ ٧٤ ــ ٨١ ــ ٨٩ ، الحجر/٥٩ ، ٦١ ، الشعراء/١٦٠ ــ ١٦١ ــ ١٦٧ ، النمل/٥٤ ــ ٥٦ ، القمر/٣٣ ، ٣٤ ، الأنبياء/٧١ ــ ٧٤ ، العنكبوت/٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ ــ (المترجم) •

أسلموا الروح تماما (٩) · وبعد ذلك وجدنا جبلا صغيرا يوجد بالقرب منه بئر بها ماء ، فعمنا الفرح · وقد حططنا رحالنا فوق هذا الجبل · وفى الصباح الباكر ، فى اليوم التالى قدم ٢٤٫٠٠٠ بدوى قائلين ان الماء ماؤهم وأنه يجب أن ندفع لهم لقاء ما أخذنا منه وقد أجبناهم بأننا لن نستطيع الدفع فالماء ماء الله ، فشرعوا يقاتلوننا ، فتحصنا وجعلنا جمالنا سترا بيننا وبينهم (١٠) ، وجلس التجار بين هذه الجمال ، ورحنا نناوشهم بشكل مستمر ، وذلك لأنهم حاصرونا نهارين وليلتين ، الا أن أمورا استجدت آخر الأمر ، فلم يعد لدينا ، ولا لديهم ، ماء للشرب · لقد أحاطوا احاطة كاملة بالجبل مهددين باختراق صفوف القافلة · ولأننا

---

(٩) يذكر بادجر تعليقا على ذلك ما ملخصه : بعد اثنى عشر يوما من الرحلة ، لابد أن يكون رحالتنا قد اجتاز وادى البحر الميت اجتيازا تاما ، أما وأنه يقول انه مازال بجوار البحر الميت ، فمعنى هذا أنه رجع لرواية الكتاب المقدس (التوراة والانجيل) Scriptural narrative عن خراب مدينة سدوم وغيرهـا من المدن فى هذا الوادى (أشار القرآن الكريم أيضا لذلك ـ انظر الحاشية السابقة) والى جوار سدوم لازال الانخفاض باديا بالقرب من البحر الميت ممتدا من بانياس Banias عند سفح جبل الشيخ الى رأس خليج العقبة · والواقع أن منطقة البحر الميت هى أكثر مناطق العالم انخفاضا ، وقد سمعت فى برنامج تليفزيونى يقدمه الشيخ الزندانى تفسيرا جديدا لقوله تعالى : « ألم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض ·· » · أى أكثر الأراضى انخفاضا ، وهو اعجاز علمى قرآنى ، لأن الروم غلبوا فى منطقة البحر الميت ·

ونعود الى حديث بادجر ، فنجده يقول : ان طريق فارتيما اذا كان هو طريق الحج المعروف الآن (أيام بادجر) فانه يكون بعيدا حوالى ٢٠ ميلا الى الشرق من وادى عربة Aropa ، (وهو اسم الوادى الى الجنوب من البتراء) ، ومن غير المستبعد أن يكون فارتيما قد خلط بين الممر الجدب القاحل الذى يتشعب هنا من سلسلة الجبال الرئيسية ، والمعروف بعقبة الشامى ، وبين وادى سدوم وعاموراء ، فتحدث عن عقبة الشامى باعتبارها وادى سدوم وعاموراء ، وهذا خطأ جلى · ومما يجعلنا نميل الى ذلك أن بوركهارت وصف عقبة الشامى باعتبارها تقع على مسيرة اثنى عشر يوما من دمشق ، وهو ما ينطبق على مقالة فارتيما ، وقد وصف بوركهارت عقبة الشامى كالتالى : «طريق الحج حتى عقبة الشامى تحف به صحراء قاحلة من جانبيه · وتستمر السلسلة الجبلية مسافة تقرب عشر ساعات الى الغرب من طريق الحج ··· وهنا ينحدر طريق الحج فى هوة سحيقة Chasm تستغرق القافلة نصف ساعة للوصول لقاعها ·· ويتكون الجبل من حجارة رملية حمراء » ·

ويقول بادجر تعليقا على ذلك : أن فارتيما قد توهم أو أنه غلب الأفكار الدينية على الحقيقة الموضوعية فهيأ له خياله أن هذا اللون الأحمر الناتج عن التركب الجيولوجى للصخور ما هو الا دم يبدو كشمع أحمر ، نتيجة التدمير الالهى لسدوم مع أنه كان بعيدا تماما عن منطقة سدوم هذه · وهكذا يتضح لنا أن فارتيما قد وقع فى وهم نتيجة تراثه الدينى ، تماما كما وقع فى وهم آخر أو كذبة أخرى بادعاء وجود جبل يسكنه اليهود قرب المدينة المنورة ، وهو ما سنوضحه فى حاشية آتية ·

(١٠) عندما ينبرع البدوى فى الدفاع عن نفسه ضد مهاجميه يثنى ركبة رجله اليمنى ويتشبث برسن البعير حتى يمنعه من النهوض ، ويتخذونه ـ أى الجمل ـ كمتراس ، يحاربون من خلفه ·

لم نعد قادرين على مواصلة الحرب ، فقد ناقش قائد القافلة الأمر مع التجار المسلمين وانتهى الأمر بأن قدمنا لهم (أى لهؤلاء البدو) ١٢٠٠ من الدوكات الذهبية Ducats of Gold ، فأخذوها ، ثم طالبوا بمبلغ ١٠٫٠٠٠ من الدوكات الذهبية مرة أخرى ، فأدركنا أنهم يريدون شيئا آخر الى جانب المال • وعلى هذا فان قائد القافلة الحكيم دبر الأمر مع القافلة بأن أمر كل الرجال القادرين على حمل السلاح بألا يركبوا الجمال ، وأن يعد كل منهم سلاحه • وأقبل الصبح فجعلنا كل القافلة فى المقدمة ، وظللنا نحن المماليك فى المؤخرة •

لقد كنا جميعا ثلاثمائة مسلح ، وقد شرعنا فورا مع انبلاج الصبح ـ فى القتال ، فلم يستطع البدو أن يقتلوا من قافلتنا الا رجلا وامرأة ، أما نحن فقد قتلنا منهم ١٦٠٠ شخص (١١) • ولا تندهش لهذا العدد الكبير الذى قتل من جانبهم ، فذلك يرجع الى أنهم كانوا جميعا عراة ويركبون خيولا غير مسرجة (١٢) •

جبل يسكنه اليهود (١٣)

فى نهاية اليوم الثامن وجدنا جبلا يظهر محيطه ما بين عشرة أميال واثنى عشر ميلا ، يقطنه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف يهودى ، يروحون

---

(١١) عن الدوكات ، انظر الحاشية ، ص ٢٣ •

(١٢) يذكر بادجر أن ذلك ربما كان من قبيل المبالغة ، رغم أن المؤرخ سترابو Strabo حدثنا عن معركة بين الجيش الرومانى بقيادة اليوس جالوس Gallus وعرب جنوب الحجاز ، ولم يقتل فى هذه المعركة من الرومان الا اثنان أما عرب الجنوب فقتل منهم عشرة آلاف •

(١٣) يحدد فارتيما المكان باعتباره يبعد عن المدينة المنورة ثلاثة أيام ، مما يجعل هذا المكان هو الهدى Hedye المذكورة فى خط سير رحلة بوركهارت باعتبارها محطة التوقف الرابعة بعد العشرين لطريق الحج الحديث ، للقادمين من دمشق ، والتى تبعد عن خيبر اربع ساعات • (راجع الملحق الثالث لكتاب رحلات فى سوريا لبوركهارت) Travels in Syria

والواقع أن بادجر فى دراسته التى نوهنا عنها فى أكثر من تعليق قد ألقى ظلالا كثيفة من الشك على رواية فارتيما هذه عندما ذكر أنه من غير المعقول ان يكون طول اليهودى خمسة أشبار وعزا ذلك الى سوء تقدير فارتيما لبعد المسافة ، أو لأنه نقل حديثا خاطئا عن المسلمين • وفى رأيى أن هذا التشكك الذى أورده بادجر يلقى ظلا من الشك على الرواية كلها ، بالاضافة الى أن الرحالة الذين زاروا الحجاز بعد ذلك (بوركهارت وبيرتون مثلا) لم يشيروا الى شئ من هذا •

والواقع أن أحدا من الباحثين الغربيين الذين كتبوا عن الرحالة وكتبهم لم يفسر ما كتبه فارتيما عن اليهود التفسير الصحيح لسبب بسيط وهو أنه لم يضع الرحلة ضمن نطاقها =

ويجيئون عراة ، ويبلغ طول الواحد منهم خمسة أشبار أو ستة أشبار

= التاريخي ، كما أن أحدا من المؤرخين العرب لم يفعل ذلك أيضا . وحقيقة الأمر واضحة ، وهي ان فارتيما قد قام برحلته سنة ١٥٠٣ أي بعد سنوات قلائل من طرد غير المسيحيين من الأندلس (من مسلمين ويهود) وأن السنوات التي أعقبت سقوط غرناطة قد شهدت حملة مسعورة من التاج الاسباني استمرت حتى سنة ١٥١٦ لطرد المسلمين واليهود ، وتشير المراجع الأوربية الموثقة (شارلزلي Charles lea) مثلا) الى أن طرد المسلمين من اسبانيا كان عملا كنسيا خالصا ، وأن الناس (الشعب) في اسبانيا كانوا غير راضين عن طردهم ، وكانوا يرون الاكتفاء باسقاط الدولة الاسلامية سياسيا . ويشير شارلزلي Lea الى أن انهيارا اقتصـــاديا حاق باسبانيـا بسبب طرد المسلمين الذين كانوا يكونون قوة عاملة لها شانها ، كما يشير الى الحزن العام الذى شمل اسبانيا عدة سنوات بسبب التوجيهات الكنسية في هذا الشان ، الا أن شـارلزلي Lea عاد فذكر أن المقصودين بالكره والذين رحب الجميع بطردهم كانوا هم اليهود الذين كانوا يشتغلون بالربا (وهذه نص كلمـــاتCharles) والذين كدســوا ثروات طائلة . ولم يكونوا يعملون في الأعمال الزراعية أو الشـــاقة . ولم يكن الاسبان في أواخر القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر ، هم وحدهم الذين يكرهون اليهود كراهية التحريم ، وانما كانت أوروبا كلها (بما فيها ايطاليا) ترى فيهم عناصر قذرة مدمرة للاقتصاد الوطني (راجع في ذلك ما كتبه بول كولز Coles في كتاب The Ottoman Impact on Europe والجدير بالذكر أنني ترجمت هذا الكتاب الهام وهو قيد الطباعة الآن .

لقد قام فارتيما برحلته اذن وكل اوروبا عامة — وأوربا حوض البحر المتوسط خاصة تغلي كرها وحقدا واحتقارا لليهود ، مطالبة بابعادهم عن أوروبا . فكأنما فارتيما يريد أن يقول لقرائه الأوربيين هؤلاء هم اليهود الجنس القزم القذر ، وهكذا وجدتهم ، فافتعل حكايته هذه عن يهود أقزام جبناء قذرين في جبل بشبه الجزيرة العربية . لكن الرحالة الذين أتوا بعده لم يذكروا شيئا من هذا . انها اذن أكاذيب لم تثبت أمام البرهان التاريخي . وثمة عامل آخر تشير اليه المراجع الأوربية التي كتبت عن القرن السادس عشر ، وهو أن البنادقة والجنويين بعد أن تعرضوا لضغط المد الاسلامي العثماني خاصــة بعد سقوط القسطنطينية اتجهوا في استثمار أموالهم الى اسبانيا والبرتغال فوجدوا من اليهود هناك منافسة خطيرة (أشار لذلك Coles و Jorris و Lea) وهذا يفسر بعض الشيء ادعاءات فارتيما . بقي أن نذكر دليلا آخر وان كان متأخرا شيئا ما عن الفترة التي قام بها فارتيما برحلته ونعني به أن الاصلاحيين الأوربيين في القرن السادس عشر (مارتن لوثر ورفاقه) قد أفتوا في مرحلة من مراحل الحركة الاصــلاحية الدينية بتحريم الربا Usuary ، مؤكدين أنه حرفة اليهود الذين يمثلون أقذر شـــعوب الأرض وأكثرها استغلالا (كذا) ، وفي هذا من الأدلة ما يكفي عن موقف الأوربيين أيام فارتيما وطوال القرن السادس عشر من اليهود ، مما يفسر ادعاءاته ووصفه لهم .

ومن عجب أن اليهود في محنتهم تلك لم يجدوا مكانا يلجأون اليه الا الدولة العثمانية التي احتضنتهم ، وبلاد المغرب التي استقبلتهم (انظر في ذلك Paul Coles وحديثه عن كبار التجار اليهود — خاصة ناسي Nassi — الذين استقبلتهم الدولة العثمانية) فكان جزاء هؤلاء كما اتضح فيما بعد هو جزاء سنمار .

بقي القول ان فارتيما — خاصة وأنه لم يذكر أنه أجرى حوارا مباشرا مع هؤلاء اليهود المزعومين — كما هي عادته في اجراء الحوار في مواضع أخرى من رحلته — قد يكون سمع ذلك من بعض القبائل العربية ، ومن المعروف أن النزاع القبلي والعصبية القبلية . السائدين في هذه الفترة كانا يجيزان كل شيء ، قتالا ، وسبا وأدعاء . ويمكن لمن أراد مزيدا من التوضيح لظروف أوروبا في هذه الفترة مراجعة مقدمة الترجمة — (المترجم) .

sueūS وأصواتهم كأصوات النساء ، ويغلب عليهم السواد ، ولا يأكلون الا لحوم الغنم ، وهم مختونون (١٤) ويعترفون بأنهم يهود ، واذا ما وقع أحد المسلمين بين أيديهم سلخوه حيا (١٥) . وعند سفح هذا الجبل وجدنا بركة تجمع ماؤها في موسم هطول الأمطار ، وقد حملنا من مائها ١٦٫٠٠٠ بعير ، وكان اليهود غير سعداء بفعلنا هذا ، وراحوا يحومون حول الجبل كالماعز البرية الا أنهم لم ينزلوا للسهل لأنهم يعادون المسلمين حتى الموت . وكان يوجد عند سفح الجبل بالقرب من الماء الذى أشرت له فى السطور السابقات ، ست أو ثمانى شجيرات شائكات جميلات ، وجدنا قمريتين(١٦) two turtiedoues قد عششتا فيها ، وقد بدت لنا كمعجزة فى وسط هذا الجو القاحل ، فقد سافرنا خمسة عشر نهارا وليلة لم نصادف خلالها طيرا واحدا أو حيوانا . وقد استأنفنا رحلتنا فى اليوم التالى وبعد يومين وصلنا لمدينة النبى Medinathalnabi (١٧) . وبالقرب من المدينة المنورة ـ على بعد أربعة أميال ـ وجدنا بئرا ، كانت القافلة قد توقفت عندها يوما حيث استحم كل فرد من أفراد القافلة ووضع ثيابه وارتدى ملابس الاحرام من قطع كتان نظيفة Clean linen قبل دخول مدينة النبى التى تضم حوالى ثلاثمائة منزل ، ويحيطها سور من طين (١٨) . ومساكن المدينة المنورة قد شيدت جدرانها من الحجارة . والمنطقة المحيطة بالمدينة المنورة قد أصابها (....) (١٩) فهى قاحلة مع استثناء واحد ، فعلى مرمى حجرين خارج المدينة ، يوجد حوالى خمسين أو ستين نخلة فى بستان بآخره قناة ماء Conduit of Water تنحدر أربعا وعشرين درجة

---

(١٤) لم يوضح لنا فارتيما المناسبة التى عرف فيها أنهم مختونون ـ (المترجم) .

(١٥) راجع مقدمة الترجمة العربية .

(١٦) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية : أطرغلة ، وتسمى فى الشام طرغلة ، وفى مصر : قمرية ، وفى العراق : شفنين ، وهى طائر مشهور يصاد . وهى من جنس القمارى والأطرغلات والفواخت من الفصيلة الحمامية Columbidae وهى طيور تشبه الحمام ولكنها أصغر منه ـ (المترجم) .

(١٧) يقصد المدينة المنورة أو يثرب كما هو واضح ـ (المترجم) .

(١٨) ذكر بيرتون فى رحلته أن هذه الأسوار الطينية (على أيام فارتيما) قد غدت من الأحجار ، كما شاهدها أثناء رحلته .

(١٩) نص عبارته « قد أصابها غضب الله » والواقع أن هذا الرحالة يفسر الأمور بما يمليه عليه هواه ، وقد ذكر شيئا كهذا بالنسبة لمكة كرمها الله . وحقيقة الأمر أنه لولا هذا الجدب وهذه الصحارى الواسعة والجبال القاحلة ، لكانت منطقة الأماكن المقدسة عرضة لطمع الطامعين من الغزاة والاستعماريين ثم أين هو الغضب ، والرزق يأتى لهذه البقاع رغدا من كل مكان . لقد قضت حكمة الله أن يترك الخليل ابنه وامرأته عند البيت العتيق فى واد غير ذى زرع ، وجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ورزقهم من الثمرات فأقاموا الصلاة .

Steps على الأقل (٢٠) ، ومن هذه القناة ارتوت القافلة عند وصولها للمدينة ٠ والآن ، فان أولئك الذين يقولون بأن رفات محمد صلى الله عليه وسلم معلق في الهواء بمدينة مكة المكرمة ، كذابون يستحقون التوبيخ (٢١) ، فقد رأيت قبره (صلى الله عليه وسلم) في المدينة المنورة ، التي مكثت بها ثلاثة أيام وكنت حريصا على رؤية كل شيء فيها ٠ ففي اليوم الأول من وصولنا للمدينة المنورة ، وعند دخول المسجد النبوي ، كنا مجبرين على أن يصطحبنا بعض الأشخاص ـ الذين أمسكوا بأيدينا ، وقادونا الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم (*) ٠

موضع دفن محمد « صلى الله عليه وسلم »
وصحابته « رضوان الله عليهم »

يبلغ طول مسجد النبي صلى الله عليه وسلم مائة خطوة طولا ، وثمانين خطوة عرضا ، ويوجد بابان في كل جهة من جهاته الثلاث أما جهته الرابعة فلا أبواب فيها ، وسقفه مقوس arched وبه أكثر من ٤٠٠ عمود من الأحجار الداكنة ، قد طليت جميعا باللون الأبيض ، وبه حوالى ٣٠٠٠ مصباح تضاء من جانب واحد من الأقواس arches (٢٢) وعند رأس المسجد ، ناحية اليمين يوجد برج مربع a squire tower يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه خمس خطوات ، وقد غطى بالحرير ، وعلى بعد خطوتين حاجز معدني مشبك جميل ، يقف الناس ازاءه لرؤية هذا البرج ، وفي الجانب الأيسر من هذا الحاجز يوجد باب صغير يفضي الى البرج ، ويوجد في هذا البرج باب صغير آخر ، وعند أحد البابين يوجد حوالى عشرين كتابا ، وعند الجانب الآخر خمسة وعشرون كتابا ، وتتناول

---

(٢٠) اشارة الى حدائق قباء ٠ وقد ذكر بيرتون أن هذه النخيل على أيامه قد زاد عددها زيادة كبيرة ٠

(٢١) يمكن تفسير مثل هذه الخرافات التي سمعها فارتيما من بعض الجهلاء في كل من مكة المكرمة والمدينة المنور بالتنافس على ابتزاز أموال الحجاج ، واضفاء قدسية على مواضع بعينها استدرارا لأموال الحجاج ، ومن اراد تاكيدا لهذا التحليل فليراجع رحلة بوركهارت التي تمت في القرن التاسع عشر ، ومما يذكر أن الحركة الاصلاحية السلفية قد أزالت رموز الأكاذيب في البقاع المقدسة ـ (المترجم) ٠

(★) يقصد الأدلاء أو المزورين : أى المرشدين للزائرين ـ (المترجم) ٠

(٢٢) وفقا للقياسات التي ذكرها بوركهارت : الطول ١٦٥ خطوة ، والعرض ١٣٠ خطوة ، أما بيرتون فقد وصف المبنى بانه متوازى أضلاع parallelogram طول ضلعه ٤٢٠ قدما ، وعرضه ٣٤٠ ـ (المترجم) ٠

هذه الكتب جميعا حياة محمد صلى الله عليه وسلم ووصايا الدين الأسلامى Commandments of his Sect ويوجد الى الداخل من هذا الباب الثانى قبر محمد وعلى Haly وأبى بكر وعثمان وعمر وفاطمة (٢٣) . وقد كان محمد زعيما عربيا ، أما على رضى الله عنه فهو زوج فاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما أبو بكر الصديق (٢٤) فيمكن وصفه بأنه كاردينال Cardinal وأنه كان يريد أن يكون بابا pope (تعليق : فارتيما هنا يسقط ثقافته المسيحية على التاريخ الاسلامى ، فأبو بكر الصديق رضى الله عنه كان الصديق الصدوق للرسول ، وهو رضى الله عنه أول من آمن من الرجال ورافق الرسول فى هجرته ، وليس فى التاريخ الاسلامى كهنوت ، أو منصب دينى مشابه لمنصب البابا) (٢٥) .

أما عثمان (رضى الله عنه) فقد كان أحد صحابته ، وكذلك كان عمر ، وهذه الكتب التى أشرنا اليها تتناول كل صحابته « رضوان الله عليهم » وبسبب النزاع على اتباع أحد خلفاء الرسول السابق ذكرهم(٢٦)، يقوم هؤلاء الرعاع Canaille (يقصد المسلمين) بتمزيق بعضهم بعضا اربا اربا ، دون تحكيم عقولهم ، فهم يقتتلون ، ويذبح بعضهم بعضا ذبح البهائم baests بسبب هذه الهرطقات ، مع أنها ـ أى هذه الهرطقات ـ جميعا باطلة .

قبر محمد « صلى الله عليه وسلم »
وقبور أصحابه « رضوان الله عليهم »

كى نشرح لك عقائد المسلمين ، يجب أن تعلم أنه فوق البرج (الذى بداخله قبر الرسول صلى الله عليه وسلم) توجد قبة Cupola يمكن أن تطوف فى داخلها ، وهى موجودة بالخارج . ويجب أن تفهم الخدعة التى يدلسون بها على كل أفراد القافلة فى أول ليلة تصل فيها لقبر

---

(٢٣) محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر وعثمان وفاطمة رضوان الله عليهم ، ليسوا جميعا فى قبر واحد ، وبذلك يكون فارتيما ـ فيما يقول بادجر ـ قد وقع فى خطأ . ويذكر بيرتون ان قبر فاطمة الزهراء موجود فى البقيع ، وليس فى المسجد .

(٢٤) يقول المستشرق بادجر ، انى أعلم من خلال دراستى لحياة أبى بكر ، انه يستحق هذا التشريف فقد كان صحابيا مقربا للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وقد خلفه بعد وفاته ، وكان ثانى اثنين اذ هما فى الغار وكلفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالامامة فى الصلاة أثناء مرضه .

(٢٥) ما بين القوسين اضافة من المترجم .

(٢٦) يشير للنزاع بين السنه والشيعة ـ (المترجم) .

الرسول • فقائد قافلتنا أرسل لقيم المسجد النبوى وطلب منه أن يريه جسد النبى صلى الله عليه وسلم مقابل أن يعطيه ٣٠٠٠ أشرفى ذهبا Seraphim (٢٧) ، وذكر له أنه قد أتى الى هنا لينقذ روحه وليرى جسد النبى ، كما ذكر له أنه مقطوع لا أب له ولا أم ولا اخوة ولا أخوات ولا زوجه ولا أطفال ، كما أنه لم يأت الى هنا لشراء جواهر أو بهارات •

عندئذ أجابه قيم المسجد(٢٨) النبوى بخيلاء وغضب : « كيف يمكن لعينيك التى اقترفت الكثير من الذنوب والمعاصى فى هذه الدنيا أن ترى الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى من أجله خلق الله السماوات والأرض ! » (٢٩) عندئذ أجاب قائد قافلتنا : « سيدى ، أنت قلت المليح » أى أنك تقول الصواب ياسيدى ، لكن اعمل معروفا ودعنى أرى جسده الطاهر ، وبمجرد أن أراه ســـأفقأ عينى حبا له فأجاب قيم المســـجد : « لا ياسيدى ، اننى سأقول لك الحقيقة • لقد رغب نبينا أن يموت هنا ، ليقدم لنا المثل لكنه بمجرد أن مات رفعته الملائكة الى السماء ، وقد قال انه اتحد مع الله (أو أنه مساو لله) « He is equal with God » •

(تعليق : الواقع أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر ، فضل بالنبوة ، ولم يكن الرسول يدرى ما يكسب غدا ، ولا بأى أرض يموت ، وكان ــ صلى الله عليه وسلم ــ ابن امرأة تأكل القديد بمكة ، وليس فى الفكر الاسلامي ما يشير الى أن الملائكة رفعته الى السماء • ومع اعترافنا بكثرة الخرافات والبدع السائدة فى ذلك العصر ، لكننا نستبعد أن يقول أحد من المسلمين ذلك ، والأرجح أن يكون فارتيما قد أخطأ الفهم ، كأن يسأل أحد الناس عن محمد صلى الله عليه وسلم فيشير الى السماء ، بمعنى أنه عند ربه أو مات ••• الخ ففهم فارتيما المعنى خطأ ، ولا ننسى ان هؤلاء الرحالة لم يكونوا يجيدون اللغة العربية اجادة تامة ، ولا يعرفون ــ فى أقل تقدير ــ كناياتها واستعاراتها واشاراتها ، كما نعرفها • وكذلك قوله بأن بعض المسلمين يعتقدون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مساو لله أو متحد معه • هذا أيضا غير صحيح ، ومن المستبعد أن يعتقد بعض

---

(٢٧) انظر الحاشية ص ٢٣ عن الدنانير الأشرفية ــ (المترجم) •

(٢٨) يعنى شريف المسجد أو الشريف المسئول عن المسجد ، أو النائب ــ (المترجم) •

(٢٩) ان كان المعنى المقصود ، هو أن الله سبحانه ما خلق السماوات والأرض ، الا لتحقيق التوحيد الخالص له ، عن طريق رسله وانبيائه فان هذا لا يخالف مجمل عقائد المسلمين • يقول تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » الذاريات/٥١ •

ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء ، فتكون دعوته هى غاية فى حد ذاتها •

واذا كان ذلك هو المعنى المقصود ، فلا بأس ، الا أن بعض الصوفية بالغوا فى ذلك مبالغة خرجت بهم عن الجادة ، فذكروا أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو أول خلق الله ، أى أنه مخلوق قبل آدم عليه السلام ــ (المترجم) •

المسلمين ذلك ، فقد تكون المسألة سوء فهم منه • وعلى أية حال ، فقد تسربت أفكار الحلول والتجسد الى الفكر الاسلامي النقى في بعض مراحل التاريخ ، الا أن ذلك ليس من عقائد أهل السنة والجماعة) (٣٠) •

فقال له قائد القافلة : « اذن أين ذهب عيسى بن مريم ؟ » فقال قيم المسجد : « انه أسفل النبى « ــ أى تحت قدميه • فقال قائد القافلة : « بس بس •• مش عاوز » أى •• كفى•• كفى•• لا أريد المزيد • وخرج علينا قائد القافلة قائلا :

« انظروا كيف كنت أريد أن أبعثر ثلاثة آلاف أشرفى "Seraphim" وفى الليل ، حوالى الساعة الثالثة صباحا أتى الى مخيمنا حوالى عشرة أو اثنى عشر شخصا من المسلمين كبار السن ، نظرا لآن قافلتنا كانت قد توقفت (عسكرت) بالقرب من البوابة على بعد مرمى حجرين ، وقد بدأ هؤلاء المسنون فى الصياح « لا اله الا الله •• محمد رسول الله •• يانبى •• هيا الله ••• هيا رسول الله •• استغفر لنا » وهذا يعنى أن محمدا رسول الله سيظهر مرة أخرى (تعليق : العبارة العربية لا تعنى هذا تماما • ورغم شيوع الخرافات ، الا أن كثيرا من العامة كانوا يرددون الفاظا لا تعنى بالضرورة معناها الحرفى ، فعبارة : هيا يانبى ، لا تعنى بالضرورة أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ سيقوم من مرقده ويظهر) (٣١) • وقد سمع قائد قافلتنا وسمعنا معه هذه الضوضاء ، فأسرعنا وأسلحتنا بأيدينا ظانين أن هناك بدوا (أعرابا) يزمعون سلب القافلة ، وقلنا لهؤلاء المسنين : لم هذه الجلبة ؟ وماذا تقولون ؟ لقد كان هؤلاء المسنون يصدرون أصوات اعجاب ، كتلك الأصوات التى تصدر عن المسيحيين عندما يشاهدون أحد القديسين يأتى بمعجزة • وقد أجابنا هؤلاء المسنون قائلين : « انت ما تبصر النور اللى ييجى من بيت النبى ورا من السما ؟ » أى : الم تر الضياء المنبعث من ناحية بيت النبى منبعثا من السماء ؟ فأجاب قائد القافلة : « أنا لم أر شيئا » وراح القائد يسألنا واحدا واحدا ان كنا قد رأينا شيئا ، فأجبناه بالنفى ، فقال واحد من المسنين : « أأنتم عبيد (مماليك) » فأجاب القائد : « نعم » • فقال الرجل المسن : « آه يا سادة ، أنتم لا تستطيعون رؤية هذه الأمور الروحية ، فأنتم لستم صادقين فى عقيدتكم » • فأجاب القائد : آه يا أغبياء •• آه يا مجانين •• انا كنت ناوى أعطيكم ثلاثة آلاف أشرفى Ducats ، لكن أنا والله ما أعطيكم •• يا كلاب •• يا أولاد الكلاب » • ويجب أن تعرف أن هذا الضوء ناتج عن نار أوقدوها ليجعلونا نعتقد أن نـورا ينبعث من قبر محمد

---

(٣٠) ما بين القوسين تعليق من المترجم •

(٣١) ما بين القوسين تعليق من المترجم •

(صلى الله عليه وسلم) ولذا فقد أمر قائد القافلة بألا يدخل واحد منا هذا المسجد (يقصد المسجد النبوى) • ويجب أن تعرف (اننى أقول لكم الحق) أنه لا يوجـــد حـــديد أو صلب أو مغناطيس Loadstone أو أى جبل ، على نطاق أربعة أميال (٣٢) •

لقد مكثنا بالمدينة المنورة أربعة أيام لنعطى الفرصة لجمالنا كى تستريح • ويتلقى أهل المدينة المنورة مؤونتهم من بلاد العرب السعيدة ، ومن القاهرة وأثيوبيا (٣٣) عن طريق البحر ، اذ لا يبعد ساحل البحر (الأحمر) عن المدينة المنورة أكثر من أربعة أيام •

الرحلة من المدينة المنورة الى مكة المكرمة

لقد تعبنا الآن من هذه الأمور وتلك الأباطيل التى بدت من محمد (تعليق : ما دخل محمد صلى الله عليه وسلم ، فيما رأى الكاتب من أباطيل وخرافات وأكاذيب ، لكننا نلاحظ أن هذا التعبير شاع فى هذه الفترة ، وقرأناه فى أكثر من مصدر يتناول القرن السادس عشر ، فاذا هزم المسلمون فى معركة ، كان نص العبارة لقد هزم محمد ، واذا انتصر المسلمون فى معركة ، كان نص العبارة ، سننتقم من محمد ، وكتب بعض الكتاب البرتغاليين بعد سقوط سبته « لقد حوصر محمد » ، ويلاحظ أن التعبير ذاته شائع على ألسن البعض حتى اليوم) (٣٤) • فجهزنا أنفسنا للرحيل ، مع مرشدينا (أدلتنا) pilots الذين راحـوا يتفحصـون البوصلات والخرائط Compassec & Charts (٣٥) الضرورية للسفر

---

(٣٢) نص العبارة :

"... and you must know (I tell you for a truth) there is no coffin of iron or steel, nor loadstone, nor any mountain within four mi.es.

(٣٣) يستخدم فارتيما هذا المصطلح ليعنى به كل سواحل افريقيا الشرقية ، والقرن الأفريقى • انظر الكتاب الأخير من هذه الرحلات ـ (المترجم) •

(٣٤) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

(٣٥) ذكر بادجر فى حاشية له على الترجمة الانجليزية للرحلة ما يفيد أن العبارة غامضة ، واورد نصها الايطالى كالتالى :

"E Con no tri piloti delle sue bussole e Carte al Carso del mare neces- sairie grandi obsecruatori Cominciamo a Caminare per mezo giorno".

ويقول بادجر ان النص الايطالى غامض ، ثم يستبعد أن يستخدم الأدلاء البدو خرائط او بوصلات لمعرفة الطريق من المدينة الى مكة • ويقول بادجر ان فارتيما ربما رأى الأدلاء يتفحصون بوصلة صغيرة تسمى قبلة نامة Kiblah nameh للتأكد من الاتجاه الصحيح أثناء الصلاة ، وليس معنى ذلك ان العرب لم يعرفوا البوصلة حتى هذه الفترة ، فقد كانت شائعة فى البحر الأحمر والخليج ، وكانت تسمى احيانا بيت الابرة •

بحرا (يريد القول ان الرحلة لم تكن سهلة) وبدأنا الاتجاه جنوبا ووجدنا بئرا رائعة كانت زاخرة بكميات هائلة من المياه ، ويقول المسلمون ان هذه البئر حفرها القديس مارك Mark المبشر ، كمعجزة من الله نظرا لحاجة هذه المنطقة الشديدة للماء (٣٦) (تعليق : لا تعى الذاكرة العربية أو الإسلامية شيئا كهذا · ولم تشر المعلقات العربية ولا شروحها ، ولا كتب الأمالى والمجالس والمحاضرات ، ولا مقدمات كتب التاريخ الحولى : ابن

---

(٣٦) يذكر بادجر أنه توجد أربع طرق تؤدي من المدينة المنورة الى مكة المكرمة الا أنه من الصعب أن نعرف من خلال وصف فارتيما الممعن فى الايجاز أى الطرق سلكتها قافلته · أما بالنسبة لاشارة فارتيما الى بئر القديس مرقص (صاحب الانجيل الثانى من أناجيل العهد الجديد ـ المترجم) فان هذا الاسم الذى يعنى حوارى المسيح غير معروف اطلاقا بالنسبة للمسلمين فى الحجاز ، والواقع أن قول بادجر هذا فيه مبالغة كثيرة فعدد كبير من العلماء المسلمين فى الحجاز وغير الحجاز يعرفون الكثير عن الأناجيل ، وقد قاموا بالرد على ما جاء فى بعضها ، كما أن علماء المسلمين اشاروا لهذه الأناجيل فى كتب الملل والنحل (راجع كتاب الشهرستانى المشهور على سبيل المثال) وربما كان ما يقصده بادجر أن المسلمين لا يعرفون شيئا عن هذه القصة ـ أى قصة حفر القديس لبئر فى جزيرة العرب ، وان هذه القصة كانت شائعة بين المسيحيين غير المثقفين فى أوروبا · ويعرف بادجر بالقديس مرقص فيقول ان يوسيبيوس Eusebius ذكر ان مرقص هو أول أسقف (مطران) bishop للاسكندرية ورئيس الكرسى الاسقفى patriarchial see لمصر · ويؤكد المؤرخون الاكليريكيون (الكنسيون) أن أحد معلمى المسيحية Pantaenus كان قد أرسله جوليانوس Julianus أسقف الاسكندرية للتبشير بالمسيحية فى شبه الجزيرة العربية فى أواخر القرن الثانى للميلاد ·

ويذكر ابن خلدون وصاحب كتاب الأغانى (أبو الفرج الأصفهانى) أن كثيرا من القبائل العربية بين مصر وفلسطين كانت تعتنق المسيحية زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما أن عام الفيل الذى شهد تحطم الجيش الحبشى أمام مكة سنة ٥٧٠ ، حقيقة تاريخية مؤكدة ·

والواقع أن ما ذكره بادجر فى السطور السابقة لا يحتاج الى كل هذا التأكيد فقد كانت الجزيرة العربية قبل انبثاق نور الاسلام ، تعرف المسيحية واليهودية والمجوسية ، جنبا الى جنب مع الوثنية العربية المشهورة وقد أشار توماس ارنولد صاحب الكتاب الشهير « الدعوة الى الاسلام » الى امرأة بدوية مسيحية فى شبه جزيرة سيناء قال انها آخر من تبقى من جماعة من البدو المسيحيين ، وانها كانت عجوزا شمطاء ، ظلت على مسيحيتها فى وسط هذا البحر المسلم ، وأنها عندما ماتت دفنت فى دير سانت كاترين · ورواية توماس أرنولد هذه تعود للقرن التاسع عشر ·

ثم نعود لما ذكره بادجر ، فنجده يقول ان دخول المسيحية للمرة الأولى فى شبه الجزيرة العربية يعود الى الحماس الدينى الفائق الذى أبداه القديس مرقص فى مصر ، والذى كان الأحباش يتبعونه ويتمسكون بتبعيتهم لكرسيه الأسقفى ، وربما ـ فيما يقول بادجر ـ كانت رواية فارتيما تشير الى أثر مقدس للمسيحية الأولى فى الحجاز · **والواقع ان الذاكرة العربية ، والذاكرة الاسلامية بعد ذلك لا تذكر شيئا من هذا** ، وبالتالى فاننا نعتبر ما ذكره فارتيما من قبيل ترديد لاشاعة أو خرافة دينية أوربية ، ونعتبر ما ردده بادجر من قبيل الرجم بالغيب الذى لا يستند الى دليل حاسم ـ (المترجم) ·

خياط ، الطبرى ، ابن الأثير ، ابن كثير الى شيء من هذا • وما ذكرناه لا يعنى نفينا لوجود المسيحية فى الجزيرة العربية قبل الاسلام ، وانما نقرر أن المراجع المتاحة لنا لم تشر لهذه القصة) (٣٧) • وقد تركنا هذه البئر وقد نفد ماؤها • ويجب ألا أنسى أن أذكر لكم لقاءنا مع بحر الرمال الذى غادرناه قبل أن نجد جبل اليهود ، فقد ظللنا نسافر فى بحر الرمال هذا خمسة نهارات وخمس ليال والآن عليك أن تفهم كل ما هو قريب • انه سهل عظيم مستو ملء بالرمال البيضاء الناعمة كالدقيق ، واذا حدث لسوء الحظ أن الرياح تهب من الجنوب بينما أنت قادم من الشمال متجه صوب الجنوب ، فانك ورفاقك قد تموتون ، ورغم أن هذه الرياح كانت تهب من الشمال الى الجنوب أى فى نفس اتجاه مسيرنا ، الا أن أحدنا لم يكن بمستطيع أن يرى رفيقه على بعد عشر خطوات (٣٨) •

لقد كان الرجال يركبون فوق جمالهم فى صناديق خشبية خاصة (٣٩) ، حيث يأكلون وينامون داخلها ، بينما كان أدلتنا (مرشدونا) يسيرون ومعهم بوصلاتهم كما لو كنا مبحرين فى البحر • وقد مات هنا كثيرون من الظمأ ومات عدد أكبر لأنهم عندما حفروا ووجدوا الماء ، شربوا كثيرا جدا حتى ارتووا ، وفى هذا المكان تصنع (تتكون) المومياوات mummies are made (٤٠) وعندما تهب الرياح من الشمال تتجمع

---

(٣٧) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

(٣٨) يذكر بيرتون Burton أنه من المستحيل أن نحدد الطريق الذى سلكته هذه القافلة الدمشقية سنة ١٥٠٣ للميلاد لعدة أسباب أولها أننا متأكدون أنه لا يوجد بحر من الرمال بين المدينة ومكة • ويذكر بادجر أنه من المحتمل وقوع خلط ، وأن المقصود منطقة ما بين دمشق والمدينة لأن فارتيما وصف هذا البحر من الرمال قبل أن يصل الى جبل اليهود المزعوم • والواقع أن هذا الخلط فى هذا الجانب من الرحلة بالذات باعتراف بادجر ـ يضيف لنا سببا جديدا يجعلنا نتشكك تماما فى حكاية اليهود هذه • ونعود الى ما علق به بادجر مرة أخرى ، فنجده يقول : ان وصف بوركهارت الموجز لمراحل (محطات) طريق الحج لم يمكننى من معرفة الموقع بدقة ، الا أننى أظن أنه ربما كان بئر الأخضر Al-Akhdar ـ وهى المحطة السادسة عشرة من دمشق وخيبر Hedye or Khaibar التى تبعد ثلاثة أيام عن المدينة المنورة ، واستنتاجى هذا يعود الى قول بوركهارت انه منذ ثلاثمائة سنة خلت كان طريق الحج يقع الى الشرق من الطريق الحالى (أى الطريق المسلوك أيام بوركهارت) لذا فهو يسمى حتى الآن (أيام بوركهارت) باسم الطريق الشرقى •

(٣٩) المحفة أو الشبرية أو التختروان ، فرش توضع فوق الجمال التى يمتطيها ـ أثناء الحج ـ الحجاج الأغنياء •

(٤٠) يقول المستشرق بادجر ـ نقلا عن الرحالة بيرتون ، فى تعليقه على هذه الفقرة : « انها قصص عجيبة لا تزال تروى (حتى أيام بيرتون) عن هذه المومياوات (المحنطات) وقد أكد لى طبيب عربى أنه قام بكسر رجل دجاجة ، ثم ربطها ربطا محكما بقماشة تضم لحما مجففا لرجل ، وقد أدى هذا الى أن أصبح الطائر (الدجاجة) يستطيع المشى فى اليوم =

هذه الرمال فى مواجهة جبل عظيم ، هو أنف a spur جبل سيناء (٤١) Mount Sinai وعندما أصبحنا على قمة هذا الجبل وجدنا بابا أو طريقا من صنع بشر · وعلى الجانب الشمالى على قمة هذا الجبل يوجد كهف له باب حديد ، ويقول الناس ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد توقف فى هذا الموضع ليصلى · وتسمع عند هذا الباب ضوضاء عالية · لقد عبرنا ذلك الجبل على حافة خطر عظيم وغادرنا البئر التى أشرت لها آنفا وظللنا فى سفر مستمر طوال عشرة أيام ، وقد خضنا مرتين حربا مع ٥٠٠٠٠ بدوى ، ولما وصلنا مكة كان ثمة حرب ضروس بين أخ وأخيه ، ذلك أن اخوة أربعة كانوا يتنازعون على شرافة (حكم) مكة المكرمة (٤٢) ·

= التالى بساق سليمة » ونظرا لغرابة ذلك نورد هنا نص ما ذكره بيرتون ، وقد ، أوردنا فى المتن نص ما ذكره فارتيما :

"wonderful tales are still told about these same mummies. I was assured by an Arabian physician, that he had broken a fowl's leg, and bound it tightly with a cloth Containing man's dried flesh, Which Caused the bird to Walk about, With a sound shank, on the second day" Burton, p. 361.

(٤١) يذكر بادجر ما ننقله ملخصا كالتالى :

استنتج بيرتون أن فارتيما كان يصف جانبا من الطريق بين المدينة المنوره ومكة المكرمة ، وافترض أن المقصود هنا هو جبل وركان Warkan على طريق البحر الى مكة المكرمة · ولهذا السبب فاننى افضل أن يكون المقصود هو تلك الجبال القريبة من الحجر Hedjer or Hijir التى تعتبر رغم بعدها عن جبل سيناء ، امتدادا له an offshoot of Sinai · ولقد تأكدت من هذا الاستنتاج ، من خلال حديث فارتيما ذى الطابع الخيالى romantic عن الخرائب القديمة الموجودة هناك ، وما ارتبط بها من تراث ، وقد وصفها بوركهارت كالتالى : ان أكثر البقاع اثارة فى طريق قافلة الحج من دمشق الى المدينة المنورة ، هى الحجر أو مدائن صالح التى تبعد عن المدينة المنورة الى الشمال مسافة سبعة أيام ، وقد أشار القرآن الكريم فى سورة الحجر الى أن هذه البقعة كان يقطنها قوم ذوو بأس شديد هم ثمود دمرت ديارهم لرفضهم الاذعان لتحذيرات النبى صالح · وتمتد هذه المنطقة (مدائن صالح) عدة أميال · وتربتها خصبة وبها آبار عدة ، وقنوات جارية · والى الغرب من هذا السهل الخصيب يوجد جبل غير ضخم يبعد حوالى أربعة أميال عن البقعة التى تتوقف فيها قافلة الحجيج عادة ، وفى هذا الجبل كهف كبير ، وقد ذكر القرآن الكريم أن هلاك ثمود كان مصحوبا بصوت رعد وزمجرة شديدة قادمة من السماء ، وقد غزا محمد صلى الله عليه وسلم الحجر بعد قضائه على يهود خيبر بفترة وجيزة (بادجر) ·

وقد ورد ذكر ثمود فى القرآن الكريم مرات عديدة ، منها « ·· والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » هود/٦١ ، « ·· ألا بعدا لثمود » هود/٦٨ ، « ··· ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود » هود/٦٥ « كذبت ثمود بطغواها » الشمس/١١ ، « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » الفجر/٩ ··· الخ — (المترجم) ·

(٤٢) بوفاة هزاع بن محمد بن بركات الذى شارك أخاه بركات الثانى شرافة مكة فى ١٥ رجب سنة ٩٠٧ ، تولى شرافة مكة أحمد الجازانى (وهو ابن آخر لمحمد بن بركات) ، وفى أوائل سعبان ٩٠٧ وصل بركات بجيشه الى مكة فلم يقاومه أحمد الجازانى وفر هاربا =

مكة المكرمة ، ولم يقصدها المسلمون ؟

سنتحدث الآن عن مكة ذات الشرف الباهر · ما هي ؟ وما وضعها ؟ ومن يحكمها ؟ انها مدينة رائعة الجمال قد أحسن بناؤها وتضم حوالى ٦٫٠٠٠ أسرة · ومنازلها جيدة تماما ، كمنازلنا (فى ايطاليا) (٤٣) ونوجد منازل يساوى الواحد منها ثلاثة أو أربعة آلاف دوكات ولا يحيط بمكة سور ، وعلى بعد مكة بربع ميل وجدنا جبلا يوجد به طريق ، نحتته (شقته) الأيدى البشرية العاملة · وعندئذ انحدرنا الى السهل · وتمثل الجبال أسوارا لمكة المكرمة يوجد من خلالها أربعة مداخل (لمكة المكرمة) · وحاكم مكة سلطان (يقصد شريف) من سلالة محمد ، وهو أحد اخوة أربعة ، وهو تابع للسلطان الأكبر فى القاهرة · واخوة سلطان (شريف) (٤٤) مكة الثلاثة فى حالة حرب دائمة معه (مع أخيهم شريف مكة) · لقد دخلنا مكة المكرمة فى الثامن عشر من شهر مايو ، وكان دخولنا اياها من ناحية الشمال ، وبعد دخولنا مباشرة وجدنا أنفسنا ننحدر الى السهل · ويوجد الى الناحية الجنوبية من مكة جبلان يكاد أحدهما يلامس الآخر ، وبينهما بوابة تفضى الى بوابة مكة · والى جهة مشرق

= وقام بركات بالانتقام ممن أيدوا أخاه أحمد ، وانتقم شر انتقام من قاضى مكة أبى السعود ابن ظهيرة شر انتقام فصادر أمواله وعقاره ، وأغلق بيوت أبناء القاضى وبناته ، وما كاد يستقر الأمر لبركات حتى علم أن أخاه أحمد يجهز لمقاتلته فى ينبع فخرج للقائه فى أواخر ذى الحجة ٩٠٧ هـ فهزمه ، الا أنه بلغه أن أخاه سيواصل القتال ، وكان بركات مريضا فغادر مكة الى طريق اليمن وترك أخاه أحمد يدخلها ، وهكذا دخل أحمد الجارانى مكة فى أوائل سنة ٩٠٨ هـ فترك عسكره ينهبون مكة انتقاما من مساندة أهلها لبركات فراح العسكر « يفعلون أفعالا قبيحة وينتهكون حرمة البيوت ، ويصادرون أموال الاهالى ويسبون الأرقاء ·· وينهبون بيوت التجار ··· » وظل أحمد مطمئنا بضعة أشهر ثم بلغه أن أخاه بركات يزمع مهاجمته فخرج لملاقاته بالقرب من منى وهزمه الا أن بركات المهزوم استطاع أن يلتف بسرعة ويدخل مكة فى ١١ رمضان ٩٠٨ هـ ، وما لبث أحمد جازان أن عاد للشرافة مرة أخرى واستمر ثمانية أشهر مليئة بالفتن حتى انتهى أمره بأن دس أخوه حميضة عليه جماعة من الأتراك قتلوه فى المطاف فى ١٩ رجب ٩٠٩ هـ ···

المهم فى هذا الصدد أن رواية فارتيما صحيحه ·

انظر على سبيل المثال :

أحمد السباعى : تاريخ مكة ، دراسات فى السياسة والعلم والاجتماع والعمران ·· مكة ، نادى مكة الثقافى ، ١٣٩٩ ، ١٩٧٩ ط ٤ · ص ص ٣٠٨ – ٣١٤ – (المترجم) ·

(٤٣) ما بين القوسين اضافة من المترجم ·

(٤٤) عن النزاع بين أشراف مكة وقت رحلة فارتيما ، انظر تعليقنا فى حاشية سابقة، ص ص ١١٣ – ١١٤ ، أما المقصود بالسلطان الأكبر فى القاهرة فهو قنصوة الغورى الملك الأشرف (١٥٠٢ – ١٥١٦) ·

ويلاحظ أن فارتيما يطلق لفظ (سلطان) على كل حاكم ، فسلطان مكة يعنى شريف مكة – (المترجم) ·

الشمس ، يوجد ممر جبلي آخر كأنه واد يمر عبره الطريق المؤدى الى الجبل الذى يحيى فيه المسلمون ذكرى تضحيه ابراهيم واسحاق (٤٥) ويبعد هذا الجبل عن مكة ما بين ثمانية وعشرة أميال • ويبلغ ارتفاع هذا الجبل مرمى حجرين أو ثلاثة برمى اليد • وهذا الجبل ليس رخاميا وانما من بعض أنواع الأحجار الا أن لونه مختلف • وعلى قمة هذا الجبل ، يوجد مسجد ذو ثلاثة أبواب • ويوجد عند سفح هذا الجبل مستودعات ماء reservoirs في الغاية من الجمال • احدى هذه المستودعات (الخزانات) للقافلة القادمة من القاهرة ، والأخرى للقافلة القادمة من دمشق ، وتجمع مياه هذه الخزانات من الأمطار وترد الى هنا من مسافات بعيدة • والآن ، دعنا نعد لحديث مكة المكرمة ، فسأتحدث فى الوقت المناسب عن التضحية (ذبح الأضاحى) عند سفح هذا الجبل • وعندما دخلنا مكة وجدنا قافلة الحجيج القادمة من القاهرة التى كانت قد وصلت قبل قافلتنا بثمانية أيام • فهذه القافلة لم تسلك الطريق نفسه ، الذى سلكناه • وكان ضمن قافلة القاهرة ٤٦٫٠٠٠ جمل ومائة من المماليك • ويجب أن تعرف أن لعنة الله (غضب الله) فيما أرى قد حل على مكة فالمنطقة المحيطة بها لا تنبت عشبا ولا شجرا ولا أى شيء آخر (تعليق : بل لقد حل عليها رضوان الله وبركته ، فهذا الجدب الظاهرى منع عنها الاستعمار الأجنبى ، وها هو فارتيما نفسه يؤكد لقومه من الأوربيين أن الديار الاسـلامية المقدسة ليس بها ذهب أو فضة أو حديد أو مغناطيس فماذا لو كانت هذه المعادن موجودة فى عصر الصحوة الأوربية (القرن ١٦) ، ثم ان مكة يأتيها ـ رغم جدبها ـ رزقها رغدا من كل مكان ، وقد شارك فارتيما نفسه فى احدى قوافل الحجيج الى مكة المكرمة ، فالتجارة مزدهرة ، والخضر والفاكهة تأتى الى مكة من الشمال ومن الجنوب ••) (٤٦) •

ويعانى أهل مكة من نقص كبير فى المياه فاذا أراد واحد منهم أن يشرب كمية الماء التى يرغبها (يحتاجها) فان ذلك يكلفه أكثر من أربعة كاترينات Quattrini فى اليوم الواحد • وسأحدث لكم ذكرا عن حياة أهل مكة ، فجانب كبير من مؤونتهم يأتى من القاهرة عبر البحر الأحمر ، فثمة ميناء يقال له جده Zida يبعد عن مكة أربعين ميلا يستقبل هذه المؤن ، كما ترد لمكة كميات كبيرة من المؤن من بلاد العرب السعيدة وكميات أخرى كبيرة أيضا من أثيوبيا (٤٧) • وقد وجدنا أعدادا كبيرة من الحجاج

---

(٤٥) لقد وقع فارتيما هنا فى خطأ كبير ، فالمسلمون يذبحون هديهم وأضحياتهم فى منى وليس فى عرفات ، وهو الجبل الذى يقصده فارتيما هنا ـ (المترجم) •

(٤٦) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

(٤٧) يقصد فارتيما بمصطلح أثيوبيا ، كل سواحل أفريقيا الشرقية كما يتضح ذلك من آخر رحلاته ، ففى السفر الأخير من هذه الرحلات جعل زيارته لما تعرف اليوم باسم =

فى مكة أتى بعضـــهم من أثيوبيا وبعضـــهم الآخر من الهند الـــكبرى India Major ، وبعضهم الاخر من الهند الصغرى India Minor ، وآخرون من فارس ، وطائفة من سوريا ٠ والحق أقول لكم ، اننى لم أر أبدا تجمعا هائلا احتشد فى مكان واحد ، كما رأيت هنا (فى مكة) خلال العشرين يوما التى مكثتها فى هذا البلد ٠ لقد أتى بعض هؤلاء الناس بغية التجارة وبعضهم بغية الحج طمعا فى أن تغفر ذنوبهم « ويعودوا كيوم ولدتهم أمهاتهـم » ٠

البضائع فى مكة المكرمة

ترد لمكة من الهند الكبرى كميات كبيرة من الجواهر ، وكل أنواع البهارات ـ وان كان جانب من البهارات يرد من أثيوبيا ، ويرد جانب آخر من البهارات الى مكة من البنغال (٤٨) Bangchella وكميات كبيرة من الأقمشة القطنيـة والحريرية ، فعبر مكـــة تتم تجارة مرور كبيرة فى المجوهرات والبهارات بأنواعها المختلفة ، والقطن بكميات كبيرة والشمع والمواد العطـرية ٠

طلب الغفران فى مكــة المكرمة

دعونا الآن نعد الى الغفران الذى يبتغيه الحجاج القادمون الى مكة المكرمة ، ففى وسط مكة يوجد معبد (مسجد) (٤٩) جميل جدا يشبه الكولوزيوم فى روما « Collesseum of Rome » الا أنه غير مبنى بالحجارة الضخام ، وانما من طوب أحمر burnt bricks وله تسعون بابا أو مائة باب (٥٠) ، ذوات أقواس (عقود) arched ، وعند دخولنا هذا

= موزمبيق تحت عنوان رحلاته الى أثيوبيا ٠ انظر (السفر الأخير) من هذه الرحلات ـ (المترجم) ٠

(٤٨) ينطقها العرب بنغالا ٠ (عن بادجر) ٠

(٤٩) ما بين القوسين اضافة من المترجم ٠

(٥٠) جوزيف بيتس Pitts الذى زار مكة سنة ١٦٠٨ وصف المسجد الحرام بان له حوالى اثنين وأربعين بابا للدخول اليه ، أما على بك العباس فذكر أن للمسجد تسعة عشر بابا ، لها ثمانية وثلاثون عقدا (قوسا) ، أما بوركهارت (فى سنة ١٨١٤) فذكر أن بوابات المسجد ١٩ فى العدد وأنها موزعة على جهات المسجد بدون تناسق ، وكل باب يتكون من عقدين أو ثلاثة يفصل بينها حائط ، وبذا يمكن أن تقول ان المداخل المؤدية للمسجد ٣٩ ـ (بادجر) ٠

المعبد (المسجد) انحدرنا عشر درجات أو اثنتى عشرة درجة ، وحول هذا المدخل كان يجلس باعة يبيعون الجواهر ولا شيء غير الجواهر • وعندما ننزل الدرجات المذكورة تجد كل أنحاء هذا المسجد وكل شيء حتى الجدران مغطاة بالذهب (٥١) وتحت أقواس المسجد يجلس حوالى ٤٫٠٠٠ أو ٥٫٠٠٠ انسان ، رجالا ونساء ، يبيعون مختلف أنواع المواد العطرية غالبها مساحيق لحفظ الأبدان وانعاشها ، لأن الوثنيين (يقصد المسلمين) يأتون الى هنا من مختلف أنحاء العالم • والحق أقول لكم انه من الصعب أن أصف لكم روعة الروائح التى شممتها فى هذا المعبد (المسجد) • انها تظهر كرائحة مشبعة بالمسك زاخرة بأكثر العطور انعاشا وابهاجا • وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو تبدأ احتفالات الغفران فى المسجد الحرام (ليس فى الاسلام عيد بهذا الاسم ، وفارتيما مرة أخرى يسقط ثقافته المسيحية على التاريخ الاسلامى ، أو يقرب المعنى لقرائه الأوربيين) (٥٢) •

وفى باحة مكشوفة (غير مسقوفة) فى وسط المعبد (المسجد) يوجد برج Tower (الكعبة المشرفة) تبلغ أطوال كل من أضلاعه الأربعة ست خطوات . وقد غطى هذا المبنى (مبنى الكعبة) بالحرير الأسود (الكسوة) (٥٣) وبه باب من الفضة الخالصة بارتفاع قامة الانسان (٥٤) عن طريقه يمكن الدخول لهذا البرج (الكعبة المشرفة) ويوجد على كلا جانبى هذا الباب جرة ، يقولون انها مليئة بالبلسم ويبرى فى عيد الحصاد day of pentecost (٥٥) • ويقولون ان هذا البلسم جزء من كنوز السلطان • وعند كل ركن من أركان الكعبة (البرج) توجد حلقة

(٥١) نص العبارة :

"... and when you have descended the said steps you find the Said temple all around, and everything, that is the Walls Covered with gold".

لذلك أظن أنه يقصد هنا داخل الكعبة ، وليس داخل المسجد ، وان كان السياق يخالف استنتاجنا هذا • لذا نظن أن هناك خللا فى العبارة هنا ــ (بادجر) •

(٥٢) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

(٥٣) ذكر بيرتون أن كسوة الكعبة على أيام رحلته كانت من حرير مختلط بالقطن ، ويلاحظ ــ كما هو معروف ــ أن الكسوة تغير سنويا • (عن بادجر) •

(٥٤) باب الكعبة ــ كما ذكر بوركهارت مغطى كله بالفضة ومزخرف ، ويوضع عند العتبة ــ كل مســاء ــ شــموع وقوارير مملوءة مسكا • وقد ذكر جيوفانى فيناتى Giovanni Fianti (١٨١٤) أن الكعبة المشرفة لا تفتح الا مرة فى العــام ، بينما ذكر بوركهارت أنها تفتح مرتين أو ثلاثة فى العام أما بيرتون فقد ذكر أنه يفتح عشر مرات أو اثنتى عشرة مرة • وقد اختلط الأمر على فارتيما فأسقط ثقافته المسيحية عندما تحدث عن يوم عيد الخمسين the day of pentecost (بادجر)•

(٥٥) من الواضح أن فارتيما يخلط هنا ، فهذا العيد Pentecost عيد يهودى ، أو عيد الخمسين عند النصارى ، ولا علاقة للمسلمين بذلك (المترجم) •

كبيرة (٥٦) • وفى الرابع والعشرين من شهر مايو يبدأ كل الناس قبل طلوع النهار فى الطواف حول الكعبة سبعة أشواط ، وهم فى هذه الاثناء يتمسحون بأركانها ويقبلونها (أى الكعبة) وعلى بعد عشر خطوات أو اثنتى عشرة خطوة من الكعبة يوجد برج آخر يشبه احدى مصلاة كنائسنا أو كاتدرائياتنا Chapels . ذو ثلاثة أبواب أو أربعة داخله بئر رائعة تبلغ سبع فازومات Fathoms عمقا ، وماؤها مالح قليلا (٥٧) • وعند هذه البئر يقف ستة رجال أو ثمانية لسحب المياه للناس • وعندما ينتهى الناس من الطواف سبعة أشواط حول الكعبة يأتون هذه البئر ويولونها ظهورهم ويقولون « بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم اغفر لنا » • ويقوم أولئك الذين يسحبون الماء من البئر (بئر زمزم) بصب ثلاثة جرادل (صفائح) bucketsful على كل شخص (من الحجاج) من أعلى الرأس الى أخمص القدم ، فيستحم الجميع (٥٨) بهذه الطريقة حتى الذين كانت ثيابهم من حرير • ويقولون انهم بهذه الوسيلة يتخلصون من خطاياهم التى تبقى فى هذا الموضع بعد الاستحمام • ويقولون ان البرج (الكعبة) التى طافوا بها عند قدومهم هى أول بيت وضع للناس (٥٩) ، وان ابراهيم الخليل هو بانيها • وبعد أن استحم الجمع الجميع بهذه الطريقة ، فانهم يتجهون الى الوادى عند الجبل الذى سبق أن تحدثنا عنه ، ويمكثون هناك يومين وليلة وهم يشرعون فى الذبح (تقديم أضحياتهم) عند [illegible] عند سفح هذا الجبل (٦٠) •

---

(٥٦) انها علامات معدة لجذب الأجزاء الدنيا من الكسوة أو توسعتها لتوائم حجم الكعبة • (عن بيرتون) •

(٥٧) أكد بيرتون هذا الوصف لماء زمزم ، وقد ذكر بوركهارت أن البناء المحيط ببئر زمزم قد أنشىء سنة ١٠٧٢ ، وقد قدر بيرتون المسافة بين البئر والكعبة بحوالى أربعين ذراعا Cubits — (بادجر) •

(٥٨) ينقل بادجر عن بوركهـارت قوله ان بعض المسلمين يغتسلون بماء زمزم (يستحمون) وهم بفعلهم هذا يعتقدون أن قلوبهم وأبدانهم قد طهرت •

(٥٩) يؤكد المسلمون أن الكعبة قد وضع أساسها فى السماء Was Constructed in heaven قبل خلق العـالم ، وقد أمر الله الملائكة بالطواف حولهـا ، وقد أقام آدم — المسلم الأول الكعبة على الأرض فى موقعها الحالى الذى يقع تحت موقعها السابق فى السماء مباشرة ، وقد رمم أبناء آدم الكعبة ، وأن الله سبحانه وتعالى أمر ابراهيم الخليل أن يرفع القواعد من البيت ، وقد ساعد اسماعيل بن ابراهيم من هاجر أباه فى البناء . وكان الخليل قد قدم لهذا الغرض بناء على أمر الله له • (موجز تعليق بادجر) •

(٦٠) لاحظ بيرتون اضطرابا كبيرا فى رواية فارتيما ، وعدلها كالتالى : « فى ٩ ذى الحجة غادر الحجيج عرفات • وفى ١٢ منه أسرع كثيرون الى مكة ودخلوا الكعبة ، ثم عادوا الى وادى منى حيث خيامهم وقاموا بذبح أضحياتهم وهديهم • وفى العاشر من ذى الحجة يعود الحجيج مرة أخرى الى مكة » — (موجز تعليق بادجر) •

الهدى والأضاحي في مكة المكرمة

ان الأحداث الجديدة والغريبة ، قادرة على أن تجعل كل عقل نبيل مستعدا للتفتح والفهم ، كما أنها ـ أي الوقائع الجديدة ـ تحثه على القيام بالأعمال الجليلة • ولهذا السبب ولكي أرضي كثيرا من هذه النزعات فسأذكر بايجاز ما يراعيه المسلمون عند تقديم أضحياتهم • فما من رجل أو امرأة الا وينحر رأسين أو ثلاثة على الأقل ، بل ان بعضهم ينحر أربعة، وبعضهم الآن ينحر ستة ، حتى انني أعتقد صادقا أنه قد تم ذبح أكثر من ٣٠٠٠٠ رأس من الغنم في اليوم الأول ، بعد أن وليت وجوهها صوب المشرق • ويقدم كل ناحر ما نحره الى الفقراء ، حبا لله وتقربا اليه ، اذ يوجد حوالي ٣٠٠٠٠ فقير هناك سرعان ما حفروا حفرة كبيرة جدا ووضعوا بها روث الجمال وأشعلوا فيه نيرانا صغيرة ، وراحوا يشوون قطع لحم صغيرة ويأكلونها • ورأيي الذي أعتقد صدقه أن قدوم هؤلاء الفقراء الى هذا المكان كان رغبة في التخلص من الجوع أكثر من رغبتهم في غفران الله (سبحانه) والدليل على أن ذلك صحيح هو أنه كان لدينا كمية كبيرة من القثاء الواردة من بلاد العرب السعيدة ، وقد أكلنا الكمية كلها خلا القشر ، الذي شرعنا بعد ذلك في القائه خارج خيمتنا ، فتجمع حوالي أربعين أو خمسين من هؤلاء الفقراء أمام الخيمة وراحوا يتكالبون على قشور القثاء الملأى بالرمال • وبذا بدا لنا أنهم قدموا لاسكات جوع بطونهم أكثر من قدومهم لمحو خطاياهم •

وفي اليوم الثاني أقبل أحد علمائهم (القاضي) وهو يماثل أحد كهنتنا (تعليق : ليس في الاسلام كهانة ، وليس في الاسلام فصل بين السلطتين الزمنية والدينية ، وليس في الاسلام امامان أحدهما يمثل الدين والآخر يمثل السياسة أو الحكم ، وليس في الاسلام بابا وملك ، وليس في الاسلام رجال للدين لا تقوم شعائره الا بهم كما في المسيحية ، فان غضب امام المسجد قامت الصلاة بغيره ، وصلى على الميت بغيره ، ولا يملك عالم (٦١) الدين المسلم أن يطرد أحدا من رحمة الله ، كما في المسيحية وهو المعروف بقرار الحرمان) • وصعد الى قمة الجبل المشار اليه وخطب (٦٢) في الناس خطبة استغرقت حوالي الساعة ، وكان يصدر نوعا من النواح ، ويحث الناس للبكاء على خطاياهم وقال لهم بصوت جهوري « آه •• ان ابراهيم هو حبيب الرحمن وخليله » ثم استطرد قائلا « ان اسحق قد اختاره الله سبحانه وقد دعا الله سبحانه لهداية شعب النبي ! » وبعد

---

(٦١) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

(٦٢) خطبة الوقفة • وصف بيتس Joseph Pitts أول انجليزي زار مكة المنظر نفسه في موسم حج سنة ١٦٨٠ •

قوله هذا تعالى الهياج والصراخ (تعليق : يخلط فارتيما بين اسماعيل واسحاق عليهما السلام ، وهو يميل الى أن الذى فداه الله بذبح سمين هو اسحاق ، والواقع أن الذى رفع القواعد من البيت مع ابراهيم الخليل هو اسماعيل عليه وعلى أبيه السلام مصـداقا لقوله تعالى « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » البقرة/١٢٧ (٦٣) وعندما أنهى الخطيب خطبته أسرعت القافلة كلها صوب مكة المكرمة (٦٤) وعلى بعد ستة أميال كان هناك أكثر من ٢٠٠٠٠ بدوى (عربى) يريدون سلب القافلة ، وقد وصلنا للدفاع عن مكة • الا أننا عند وصولنا لمنتصف الطريق ــ وذلك بين مكة المكرمة وموضع النحر ــ وجدنا جدارا صغيرا يبلغ ارتفاعه أربع قامات Fathoms (٦٥) ويوجد تحت هذا الجدار كمية كبيرة من أحجار صغيرات ، وهى أحجار قذف بها الحجاج الذين مروا بهذا الجدار للأسباب التى سأذكرها لكم فى السطور التالية • انهم (المسلمون) يقولون انه عندما أمر الله ابراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه (يشير فارتيما الى أن هذا الابن هو اسحاق عليه السلام ، الا أن الرواية الاسلامية الراجحة أنه اسماعيل عليه السلام) •

ذهب ابراهيم الخليل بحثا عن ابنه وطلب من ابنه أن يتبعه ، لأنه كان من الضرورى أن ينفذ ابراهيم أمر الله ، فأجابه الابن قائلا : « يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » •

وعندما وصل اسحق (راجع التفاسير القرآنيـة للتأكد من انه اسـماعيل) عند موضـع الجدار المشار اليه آنفـا ظهر له الشـيطان فى صورة واحد من أصدقائه (الرواية الاسلامية تذكر أن الشيطان ظهر لابراهيم الخليل نفسه) (٦٦) وقال له : أين أنت ذاهب يا صديقى اسحق (بل اسماعيل) فأجاب ، انى ذاهب لأبى فهو فى انتظارى » فقال له الشيطان : « لا تذهب يا بنى فأبوك سيذبحك قربانا لربه وسينهى حياتك » فأجاب اسحق « دع أبى يفعل ما دامت هذه هى ارادة الله » عندئذ اختفى الشيطان ، وبعد مسافة أبعد قليلا ظهر له فى صورة صديق حميم آخر وكرر على مسامعه الكلمات نفسها ، فأجابه اسحاق (٦٧) (الصحيح : اسماعيل) غاضبا : «دعه يفعل» ، وتناول حجرا قذف به وجه الشيطان ،

---

(٦٣) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

(٦٤) يذكر بادجر أنه فى هذه المناسبة بالذات يسرع الحجاج بالعودة خوفا من هجوم البدو ، الا أن الاسراع هنا يرجع أيضا للاقتداء بسنة رسول الله ويسمى الافاضة من عرفات اذ يجب أن يصلى الحجاج العشاء فى المزدلفة ــ (المترجم) •

(٦٥) القامة ، مقياس لعمق المياه يساوى ستة أقدام •

(٦٦) ما بين الأقواس توضيح من المترجم •

(٦٧) الرواية الاسلامية ــ كما هو معروف ــ تذكر ان اسماعيل عليه السلام هو المقصود هنا •

ولهذا السبب، فان الحجيج عندما يصلون للمكان نفسه ، يقذفون حجرا على هذا الجدار (٦٨) ثم يذهبون لمكة (المكرمة) ٠

وقد وجدنا في طريق مكة ١٥٫٠٠٠ أو ٢٠٫٠٠٠ حمامة ، يقولون انها من سلالة الحمامة التي تحدثت الى محمد (صلى الله عليه وسلم) وكانت في حقيقتها هي الروح القدس متقمصة شكل حمامة ٠ ويطير الحمام في كل أنحاء مكة بين سعادة الجميع . ففي الحوانيت يبيعون الحبوب والذرة الرفيعة والأرز وسائر الخضروات ٠ وأصحاب هذه الحوانيت لا يملكون قتل هذه الحمائم أو ذبحها أو الامساك بها ٠ واذا حدث أن ضرب واحد منهم احدى هذه الحمامات ، فان الرعب يملأه خوفا من خراب البلد ٠

ويجب أن تعلم أن هذا الحمام يلحق تلفا كبيرا داخل المسجد الحرام ٠

وحيد القرن Unicorns (٦٩) في المسجد الحرام
وهو حيوان نادر الوجود في الأماكن الأخرى

في موضع آخر من المسجد الحرام temple ثمة مكان مسور يوجد به اثنان على قيد الحياة من حيوان وحيد القرن . ويبدوان ككائنات عجيبة تأثر النظر ، وانهما لكذلك يقينا ٠ وسأحدث لك من وصفهما ذكرا ٠

---

(٦٨) يقول بادجر : أشار فارتيما الى الشيطان الكبير ، باعتباره حجرا ، أو نتوءا جبليا في منى ، ولم يكن واضحا في ذهنه أن المعنى المقصود هو أن الشيطان بالفعل قد ظهر لابراهيم عليه السلام ، وأنه رجمه بالحجارة ــ (موجز تعليق بادجر) ٠

(٦٩) أشار بيرتون الى أن هذه الحيوانات قد تكون هي الأبقار الوحشية الأفريقية African Antelopes (وورد في معجم الشهابي للعلوم الزراعية عن Antelope أنها جنس حيوانات مجترات من مجوفات القرون فيه أنواع كالظبي الهندي Indian Antelope والمهاة addax ، كما ورد عن Antelopidae أو Antilopidae أنها فصيلة من البقريات تشمل بقر الوحش والظباء ، وفيها أقسام ٠ ومنها الغزال والظبي والمهاة والمارية وغيرها) ويميل بادجر الى أن ما رآه فارتيما مجرد مهوات (جمع مها) Oryx وان كانت من نوع غريب أو شاذ anomalous ويستبعد من خلال ما أورده عن علماء الحيوان وغيرهم أن يكون ما رآه فارتيما هو وحيد القرن ، رغم أنه يعود فيذكر نقلا عن بعض الرحالة الأوربيين في أفريقيا وعن بعض السكان المحليين في الحبشة ، وجنوب أفريقيا (البوشمان والهوتنتوت) عن وجود حيوان نادر جدا في حجم الحصان له قرن واحد في جبهته . لكن هذه الصفات لا تنطبق على وحيد القرن Unicorn كما يعرفه علماء الحيوان ٠

أما أكبرهما فيبدو كمهر يبلغ من العمر ثلاثين شهرا · له فى جبهته قرن طـــوله ثلاث براشيات braccia (٧٠) · أما وحيد القرن الآخر فيشبه مهرا يبلغ من العمر عاما ويبلغ طوله حوالى أربع قبضات Palmi · ويشبه لونهما لون الحصان الكميت الداكن أما رأساهما فتشبهان رأس الأيل · وليس لهذا الحيوان رقبة طويلة ، وله بعض الشعر المتفرق القصير على أحد جانبيه ، وأرجله نحيلة عجفاء كأرجل الماعز ، وفى أقدامه (أظلافه) شقوق من نواحيها الأمامية (مشقوق الظلف) وهى تشبه أقدام الماعز ويوجد بعض الشعر فى الجوانب الخلفية لسيقانه · وحقيقة الأمر أن هذا الحيوان المسخ (غريب الشكل) يتحتم أن يكون ترسا وانعزاليا · وكان هذان الحيوانان وحيدا القرن قد أهديا الى سلطان مكة ـ باعتبارهما من أطرف ما فى العالم وأجمله فى أيامنا هذه ـ من قبل ملك أثيوبيا ·

وقد أرسل هديته هذه تعبيرا عن ولائه لسلطان مكة الآنف الذكر ·

ذكر بعض الحوادث فى الطريق من مكة المكرمة الى ميناء جدة

يجب أن أبين هنا كيف يظهر العقل البشرى فطنته فى ظروف بعينها فقد أصبح ضروريا أن أعمل فكرى لاهرب من قافلة مكة · فعندما كنت ذاهبا لابتياع بعض الاشياء لرئيس القافلة تعرف على أحد المسلمين a Moor اذ تفرس فى وجهى وقال : « انت من أى البلاد » فأجبته : « أنى مسلم "I am Mo" » فقال لى : « أنت كذاب » فقلت له « ورأس النبى أنا مسلم » فقال لى : « تعالى معى الى منزلى » فذهبت معه · وعندما وصلت لمنزله تحدث الى بالايطالية ، وأخبرنى من أى البلاد أتيت وأنه يعلم أننى لست مسلما ، وأخبرنى أنه كان فى وقت سـابق فى جنوه Genoa والبندقية Venice ، ووصفهما لى دليـــلا على صـــدقه ، وعندما سمعت ذلك أخبرته بأننى ايطالى Roman وأننى أصبحت مملوكا فى القاهرة · وعندما سمع ذلك سر له كثيرا ، وراح يعاملنى باحترام واعتزاز كبيرين ، ولأن قصدى أن أحصل على أكثر من هذا ، فقد شرعت فى استدراجه قائلا ما اذا كانت هذه هى مكة المكرمة ذات الصيت الذائع عبر العالم كله ، فأين الجواهر ، وأين البهارات ، وأين مختلف أنواع البضائع التى قيل انها تتخذ سبيلها الى هذا المكان · لقد ألقيت عليه

---

(٧٠) يذكر بادجر أنه ربما كان هذا مقياسا بندقيا ، الا أنه يعود فيؤكد عدم معرفته بما يساويه هذا المقياس (البالمى Palmi) على أيام فارنيما ، أما المقـاس الذى كان سائدا فى البندقية (على أيام بادجر) فهو البراشيا braccia ويتراوح ما بين ٢٥ر٠٨ و ٨٦٠ر٢٦ بوصة أما البالم palmo فحوالى ٩٣٧ر٣ بوصة ·

هذا السؤال فقط ، عساه يخبرني لم لم تعد هذه البضائع والأشياء تصل الى هنا ، كما جرت العادة قبل ذلك ، ولم أشأ أن أسأله ما اذا كان ملك البرتغال هو السبب ، فقد كان المليك البرتغالي هو سيد المحيط الأطلنطي Mare Oceano وسيد الخلجان الفارسية والعربية (٧١) ٠ وعندئذ بدأ يخبرني بالتدريج عن سبب عدم وصول البضائع التي سبق أن أشرت اليها مثلما كانت تصل قبل ذلك ٠ وعندما أخبرني أن الملك البرتغالي هو السبب تظاهرت بالحزن العميق وأرسلت فيضا من السباب على هذا الملك البرتغالي ، مخافة أن يكتشف سعادتي لنجاح المسيحيين في اتمام هذه الرحلة (حول رأس الرجاء الصالح) وعندما وجد أنني أظهرت عداء للمسيحيين ، أبدى نحوي مزيدا من الاحترام والاعتزاز ، وراح يخبرني بكل شيء نقطة نقطة وبالتفصيل ٠ وعندما حصلت ما فيه الكفاية من المعلومات ، قلت له : « صديقي ، انني أتوسل اليك ، وأتمناك من النبي أن تدلني على طريقة للهرب من القافلة ، لأن غرضي هو الوصول الى أولئك الذين يعادون المسلمين ، فانني أؤكد لك أنهم اذا عرفوا قدراتي لأرسلوا بحثا عني حتى في مكة » فسألني « بحق نبينا محمد ماذا يمكنك أن تصنع ؟ » فأجبته بأنني أمهر صانع للمدافع الضخمة Large Mortars في العالم ٠٠ وعند سماعه لذلك قال : « ان محمدا صلى الله عليه وسلم يستحق الشكر لأنه أرسل لنا مثل هذا الرجل لخدمة المسلمين وارضاء الله سبحانه » ولذلك فقد أخفاني في منزله وتركني مع زوجته ، وتوسل الى في أن أحث رئيس قافلتنا على أن يخرج من مكة خمسة عشر بعيرا محملة بالبهارات ، وذلك حتى لا يدفع ثلاثين أشرفيا Seraphim للسلطان كضريبة ، فأجبته بأنه اذا ما أخفاني في هذا المنزل فانني سأمكنه من تحميل مائة بعير اذا كان لديه مثل هذا العدد ، لأن للمماليك هذا الامتياز ٠ وعندما سمع مني ذلك كان في غاية السعادة ٠ وبعد ذلك ناقشني في الطريقة التي يجب أن أتدبر بها أمري ووجهني الى أحد ملوك الهند ذوي الحيثية وهو ملك الدكن King of Deccan ، وسوف أتحدث عن هذا الملك في الوقت المناسب في هذه الرحلات ٠ وقبل رحيل القافلة بيوم خبأني في منزله بموضع سري ٠ وفي اليوم التالي — قبل انبثاق نور النهار بساعتين ، كان ثمة نفير وأبواق صاخبة خلال المدينة وذلك وفقا للعادة المتبعة ، وكان ثمة اعلان بأن على كل المماليك حتى لو كانوا في حشرجات الموت أن يمتطوا صهوات جيادهم ، ليبدأوا رحلة العودة الى سوريا ٠ عندئذ حاصرت المخاوف قلبي بشدة وأثرت الشفقة على نفسي بدموعي التي سكبتها أمام زوجة هذا التاجر وتضرعت الى الله أن ينقذني

---

(٧١) ورد في قرة العيون « عن تاريخ اليمن » أن البرتغاليين حاصروا سبع سفن وطنية بين الهند والخليج الفارسي وقتلوا ركابها ، قبل زيارة فارتيما لمكة — (عن بادجر) ٠

من هذا البلاء • وفى صبيحة يوم الثلاثاء رحلت القافلة المذكورة ، وتركنى التاجر مع زوجته وفى منزله ورافق القافلة بعد أن أخبر زوجته أن ترسلنى ـ يوم الجمعة التالى ـ بصحبة قافلة الهند المتوجهة الى جدة التى تعتبر ميناء لمكة المكرمة والتى تبعد عنها مسافة أربعين ميلا • ولا أستطيع أن أعبر عن الرقة التى شملتنى بها هذه السيدة وخاصة من ابنة أختها ـ ذات الخمسة عشر ربيعا ، فقد وعدتانى أننى اذا بقيت هناك ولم أرحل ، فستجعلان منى رجلا ثريا • لكننى تنازلت عن كل هذه العروض لحساب الخطر الحالى • وحين أقبل يوم الجمعة خرجت مع القافلة ظهرا دون أدنى أسف لمغادرة المرأتين اللتين راحتا تنشجان حزنا لفراقى • وفى منتصف الليل وصلنا الى احدى المدن ومكثنا بها طوال الليل وحتى ظهر اليوم التالى • وفى يوم السبت شرعنا فى المسير وظللنا فى ترحال دائم حتى منتصف الليل ، حين دخلنا ميناء جدة •

جدة (٧٢) ، ميناء مكة والبحر الأحمر

لا يحيط بجدة سور ، وانما هى محاطة بمنازل فى غاية الجمال ، كالمعتاد فى ايطاليا ، لذا لن نغرق كثيرا فى وصفها • انها مدينة مزدحمة جدا لأن عددا كبيرا من المسلمين (عبر عنهم فارتيما بالوثنيين pagan people) (٧٣) يأتون اليها ، ولا يسمح بقدوم المسيحيين أو اليهود لها • وعندما وصلت الى هذه المدينة (جدة) دخلت بسرعة مسجدا كان يوجد به ٢٥٫٠٠٠ فقير على الأقل ، وانزويت فى أحد أركانه (استخدم فارتيما تعبير المعبد temple بدلا من المسجد) (٧٤) ومكثت فيه أربعة عشر يوما • وكنت أمكث طوال النهار منطرحا فوق الأرض متدثرا بثيابى ، تصدر عنى أنات دائمة لأنى كنت أعانى من آلام شديدة فى معدتى وبدنى • وقد سأل التجار : « من الذى يئن هكذا ؟ » فأجابه الفقراء الذين كانوا الى جوارى : « انه مسلم فقير يحتضر » وفى كل ليلة كنت أنسل خارجا من المسجد لشراء طعام • وأترك الأمر لتقديرك لتحكم ما اذا كانت لدى الشهية الكافية أم لا ؟ فقد كنت لا أتناول الطعام الا مرة واحدة فى اليوم ، وكان طعاما رديئا • وجدة تتبع سلطان مصر ، ويحكمها (جدة) أخو شريف مكة بركات (استخدم فارتيما تعبير سلطان

---

(٧٢) كتبها فارتيما Zida زدة ، وقد علق بادجر ذاكرا أنها جدة (بكسر الجيم) أو جدة بفتح الجيم ويرى هذا المستشرق (بادجر) أنها بالفتح أصح

(٧٣) توضيح من المترجم •

(٧٤) ما بين القوسين توضيح من المترجم •

مكة) (٧٥) وهو تابع للسلطان الكبير فى القاهرة · ولم يحدث لى هنا كثيرا مما يمكن أن أرويه ، فالناس هنا مسلمون ، ولا تنبت الأرض شيئا وثمة ندرة شديدة فى المياه العذبة ويلطم البحر جدران المنازل · وكل أنواع الضروريات متوفرة هنا ، الا أنها تجلب من القاهرة وبلاد العرب السعيدة (جنوب جزيرة العرب) ومن أماكن أخرى · وفى جدة يوجد دائما عدد كبير من المرضى ويعزون ذلك لرداءة الهـواء فى هذا المكان · وتضـم جدة حوالى خمسمائة أسرة ·

وفى نهاية اليوم الرابع عشر ، اتفقت مع ربان سفينة كانت مبحرة الى فارس ، اذ كان فى ميناء جدة حوالى مائة سفينة بين كبيرة وصغيرة · وبعد ثلاثة أيام غادرت سفينتنا مبحرة فى البحر الأحمر ·

لماذا البحر الأحمر غير صالح للملاحة ؟

يجب أن يكون مفهوما أن هذا البحر ليس أحمر ، فمياهه ، كمياه أى بحر آخـر · وقد أبحرنا فى هذا البحر طـوال النهار وحتى مغيب الشمس ، فالابحار فيه ليلا غير ممكن · وكان هذا دأبنا نبحر نهارا ونرسو ليـلا حتى وصلنـا لجزيرة كمران chameran (٧٦) ، وبعد هذه الجزيرة يمكنك أن تبحر بأمان · أما السبب الذى جعل الابحار غير ممكن ليلا فهو وجود عدد كبير من الجزر والصخور ، ومن الضرورى أن يكون هناك ــ دائما ــ فى أعلى الصـارى رجل ليستطيع الطريق ، وهو أمر لا يمكن حدوثه ليلا ، لذا فقد كان فى امكانهم الابحار نهارا فقط ·

---

(٧٥) ما بين القوسين توضيح من المترجم ·

(٧٦) بين عدن وجزيرة فرسان ·

السفر الثالث

بلاد العرب السعيدة

جيزان (١) وخصوبتها

عند الحديث عن مواضع بلاد العرب الصحراوية ، ومدنها ، وعادات أهلها ، بقدر ما سمحت لى الظروف برؤيتهم ، تراءى لى أنه سيكون من الأفضل أن نتعرض لبلاد العرب السعيدة أيضا ، فالحديث هنا سيكون أكثر ايجازا ، وأكثر امتاعا • فبعد مرور ستة أيام وصلنا الى مدينة جيزان وهى ميناء جميل جدا ، وقد وجدنا فيه خمسا وأربعين سفينة لبلاد مختلفة • وهذه المدينة تقع على ساحل البحر وهى تابعة لحاكم مسلم Moorish Lord ، وهى تمثل منطقة مثمرة جدا ذات منظر خلاب ، كالمناطق المسيحية (فى أوروبا) ويوجد هنا عنب وخوخ وسفرجل ورمان وثوم له رائحة نفاذة جدا ، وبصل طيب وجوز وبطيخ وورود وأزهار وخوخ (دراق) وتين ويقطين وأترج وليمون وبرتقال حامض ، ولكل هذا فهى فردوس • وسكان هذه المدينة يسيرون شبه عراة ويسيرون فى حيواتهم على طريقة المسلمين • واللحوم والغلال والشعير والذرة البيضاء ــ التى يصنع منها خبز جيد ــ كل أولئك موجود هنا وبوفرة • ولقد مكثنا هنا ثلاثة أيام للتزود بالمؤن اللازمة للرحلة •

البــدو (٢)

بعد رحيلنا من مدينة جيزان ظللنا لمدة أيام خمسة فى محاذاة البر، وكان هذا البر عن يسارنا ، وعندما رأينا بعض السكان على الساحل

---

(١) يذكر بادجر فى تعليقه ما نلخصه كالتالى : تقع جيزان (يكتبها الرحالة الأوربيون بطريقتين املائيتين مختلفتين Jeezan أو Gheezan) فى منطقة خصبة وليس بها الا قليل من المساكن الحجرية وانما معظم بيوتها من القش على شكل هرمى (أكواخ) وبها قلعة كبيرة ، أصبحت خربة ، وفى جيزان مرفأ جيد للسفن الصغيرة ، ويغطى السكان الرجال أنصافهم السفلية بقطع من القماش القطنى (الفوطة) • وقد استخلص بادجر هذه المعلومات من رحلة نيبور Niebuhr

(٢) يعتقد فارتيما أن المقصود هنا ليس مطلق البدو (جمع بدوى) وانما المقصود =

نزل منا أربعة عشر رجـــلا لنطلب منهـم بعض المؤن مقـابل النقود ٠ فأجابوا طلبنا بقذف الحجارة علينا من مقاليعهم Slings ٠ وهم نوع من البشر يقال لهم البدو ٠ لقد كان عددهم يزيد على المائة ، وكنا أربعة عشر رجلا ، واشتبكنا معهم فى قتال استغرق حوالى ساعة حتى ان أربعا وعشرين رجلا منهم ماتوا فى ساحة المعركة وشرع الآخرون فى الانسحاب ، وكانوا عراة ولم يكن لديهم أسلحة الا هذه المقاليع ، وأخذنا كل ما استطعنا من دجاج وعجول وثيران وغير ذلك مما هو صالح للأكل ٠ وفى غضون ساعتين أو ثلاث بدأ الاضطراب والشغب يزدادان على هذا الساحل فقد كانوا أكثر من ستمائة ، وكنا مضطرين للانسحاب الى سفينتنا ٠

جزيرة كمران Chamran (٣) فى البحر الأحمر

وفى نفس النهار اتخذنا سبيلنا الى جزيرة يقال لها كمران ، ويبدو أن محيطهـا يبلـغ عشرة أميـال أو اثنى عشر ميـــلا ، ويقطنها حـوالى مائتى أسرة ، من المسلمين ٠ وبالجزيرة ماء عذب ولحوم ، ورأيت هنـــا أفضل أنواع الملح وبالجزيرة ميناء يطل على الساحل (المقابل) للبحـــر الأحمر ، ويبعد عنه قرابة الثمانية أميال ٠ وهذه الجزيرة تابعة للسلطان أمير المؤمنين Amanni (٤) وهو سلطان بلاد العرب السعيدة ، وقد

= سكان قرية يقال لها قرية البدوى Village El-Badawi التى تقع بين جيزان وكمران ٠ وتوجد قرية أخرى تسمى خبط البكار Khabt el-Bekkar وصفها نيبور بأنها قرية تسكنها بعض الأسرات المبدية (الجوالة التى تعودت على سلب المسافرين) ٠

(٣) كتبها فارتيما شمران Chamran ٠ وطول كمران أحد عشر ميلا ، أما عرضها فيتراوح بين ميلين وأربعة أميال ، ويوجد فى هذه الجزيرة سبع قرى معظمها مكون من أكواخ يمتلكها الصيادون ، ويتوفر الماء العذب فى هذه القرى وبعض مناطق الجزيرة مخصص للزراعة ، وبها وفرة من الغنم والثيران ، وهى ميناء آمن يتردد عليه السكان العاملون فى مجال التجارة بين البحر الأحمر ، وبلاد فارس والهند (مختصر تعليق بادجر) وكمران جزيرة معروفة بين عدن وجزيرة فرسان ، قرب الساحل الشرقى ٠

(٤) يرى بادجر أن المقصود قد يكون أحد أئمة صنعاء ، وقد يكون المقصود هو السلطان عامر بن عبد الوهاب الذى يصفه النهروالى بأنه آخر ملوك العرب فى اليمن ، ويقول فيه ما نصه : « اعلم أن سلطنة ممالك اليمن ، أعلاها وأسفلها ، وجبالها وتهائمها انتهت فى رأس القرن العاشر ، الى السلطان عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر بن معوضة الأموى ، ولقبه الملك الظافر ، صلاح الدين ، وهو آخر ملوك بنى طاهر ٠ وابتداء ملكهم فى سنة ٨٥٩ هـ ، أخذوا مملكة اليمن من بنى رسول الغسانى ، وولى السلطان عامر بعد وفاة عمه المنصور فى سنة ٨٩٤ هـ ، واستمر سلطانا مطاعا فى أقطار اليمن كلها =

مكثنا فى الجزيرة يومين • ثم اتجهنا صوب مخرج البحر الأحمر ، ومنذ مغادرة الجزيرة يمكنك الابحار بأمان ليلا ونهارا ، أما من الجزيرة حتى جـــدة فلا يمكنك الابحار ليــلا ، وعنــدما وصلنا الى مخــرج mouth البحر ، ظهر أننا كما لو كنا محاصرين ، فالمضيق لا يزيد عرضه عن ميلين أو ثلاثة ، وعن يميننا أرض يبلغ ارتفاعهـــا حوالى عشرة أقدام ، وعلى قدر ما يمكننا أن ندرك على بعد هذه المسافة ، فانه لايسكنها أحد ؛ وعلى يســارنا فى هــذا المضــيق embouchure يوجـــد جبل حجرى مرتفع جدا ، وفى منتصف المضيق توجد جزيرة غير مأهولة الا من القليلين تسمى باب المندب Bebmendo • فأولئك الذين يرغبون فى الذهاب الى زيلع Zeilla يبحرون الى اليمين أما الذاهبــون الى عدن فيتجهــون الى شمائلهم ، وقد سلكنا هذا الاتجاه للذهاب الى عدن ، وقد كنــا دائما نبحر بالقرب من الساحل • وقد وصلنـــا لعدن بعــد مغادرتنـــا جزيرة باب المندب فى يومين ونصف اليوم ، وانقص قليلا •

مدينة عدن ، وبعض عادات التجار

عدن هى أكثر المدن التى يمكن وصفها بأنها حصينة اذ ترى دائما فى مستوى الأرض ، وهى مســورة من جانبين ، ويحميها من جانبيهـــا الآخرين جبال عريضـــة ، وعلى هذه الجبال خمس قلاع (٥) ، وأرضها مستوية سهلة ، وتضم خمسة آلاف أو ستة آلاف أسرة • ويعقد بها سوق فى الساعة الثانية ليلا (٦) (صباحا) تجنبا للحرارة الشديدة نهارا • وعلى مرمى حجر من هذه المدينة (عدن) يوجــد جبل ، عليه قلعة ، وعند سفح هذا الجبل تلقى السفن بمراسيها (٧) • ومدينـــة عدن فى غاية

= الى انتهاء دولته ••• وكان كثير المال والسلاح ، شافعيا سنيا قرشيا عبشميا ، الا أنه كان كثير التعرض للأوقاف ••• الخ » •

النهروالى ، قطب الدين محمد بن أحمد : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى : تاريخ اليمن فى القرن العاشر الهجرى ••• الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م • اشرف على طبعه حمد الجاسر • ص ص ١٦ — ١٧ •

(٥) يذكر بادجر أن بقايا هذه القلاع لازالت موجودة ، ومعظم هذه التحصينات فيما يقول بادجر نقلا عن بعض المراجع العربية ، انشاها عثمان الزنجيلى الذى عينه طوران شاه ابن أيوب ، أخو صلاح الدين الأيوبى • حاكما على عدن سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) وقد ظلت بعض منشآت عثمان هذا قائمة حتى استيلاء الانجليز على عدن سنة ١٨٣٩ •

(٦) يرجح بادجر أن يكون المقصود « بعد مغرب الشمس بساعتين » •

(٧) يرى بادجر أن المقصود بالجبل هنا جزيرة سرا seerah التى ربطت على أيامه بالبر العدنى بجسر ، ومن الأمور التى تشاع فيما يتعلق بهذه المنطقة أن قابيل عندما قتل =

الجمال وهي عاصمة (أهم المدن) بلاد العرب السعيدة فهي ملتقى السفن التي تأتي من الهند الكبرى والهند الصغرى ومن أثيوبيا ومن بلاد فارس ، وكل السفن التى تقصد مكة ترسو هنا ٠ وبمجرد أن تصل السفينة للميناء يصعد اليها موظفو سلطان هذه المدينة ، ليعرفوا من أين أتت وما هي حمولتها ومتى تغادر وكم عدد الأشخاص على متنها ، وعندما يجمعون كل هذه البيانات ، يقومون بنزع أشرعة السفينه وساريتها ودفتها its rudder (موجهها) ومراسيها its anchors ويحملون كل ذلك معهم ، وذلك مخافة أن يغادر الأشخاص المسئولون عن السفينة الميناء ، دون دفع الرسوم للسلطان (٨) ٠ وفي اليوم التاني بعد وصولي عدن قبض علي وكبلت بالحديد وكان ذلك بسبب أحد رفاقي الذي قال لي : « أنت مسيحي كلب ابن كلب » ٠ وقد سمع بعض المسلمين ذلك القول ، ونتيجة سماعه هذا القول ، تم القبض على بعنف شديد واقتادوني الى قصر نائب السلطان Vice - Sultan وسرعان ما عقدوا اجتماعا ليقرروا ما اذا كان يجب عليهم اعدامي ، نظرا لأن السلطان لم يكن موجودا بالمدينة (عدن) ٠ لقد قالوا انني جاسوس للمسيحيين ، الا أن كون سلطان هذه الأنحاء لم يسبق له اعدام أي شخص ، جعل هؤلاء الناس يحترمون حياتي ، فأبقوني ستين يوما وخمسة أيام مكبل القدمين بحديد يزن ثمانية عشر رطلا ٠ وفي اليوم الثالث بعد القبض علينا ، أقبل أربعون أو ستون شخصا من المسلمين ــ كان البرتغاليون قد استولوا على سفنهم ــ يهرولون نحو القصر ، وكان هؤلاء المهرولون قد هربوا من قبضة البرتغاليين بأن وصلوا سباحة الى أقرب شاطىء ، وقد ذكر هؤلاء الناجون أننا (أي فارتيما وصحبه) ينتمون الى السفن البرتغالية المهاجمة ، وأننا (فارتيما وصحبه) قد قدمنا الى عدن كجواسيس ٠ وبسبب هذه الفرية فقد أقبلوا نحو القصر وهم في حالة هياج فظيع وأسلحتهم في أيديهم لقتلنا ، لكن عناية الله جعلت الحراس يسرعون باغلاق الأبواب fastened the door on the inner side.
لقد أدت هذه الحادثة الى تهيج أهل البلاد فحملوا السلاح ، ورأى بعضهم

= أخاه هابيل ، وخاف من أبيه آدم ، هرب من الهند واتجه الى عدن واستقر في جزيرة سرا Seerah ، ولانه كان حزينا لفراق أهله ، فقد ظهر له الشيطان وأهداه بعض الآلات الموسيقية ليسلي نفسه ، ومن الخرافات التي تشاع أيضا أن نار جهنم ستنبثق يوم الحساب من صخرة جزيرة سرا ٠ وقد استعمر البرتغاليون جزيرة سرا في سنة ١٥١٦ ورفعوا القلعة في قمة جبلها ، ولا تزال بقايا هذه القلعة قائمة الى اليوم ٠

(٨) يذكر بادجر ان هذا الاجراء ليس مقتصرا على مسئولي عدن فحسب ، في هذه الفترة ، وانما هو عادة متبعة يمارسها الشيوخ المحليون على طول سواحل شبه الجزيرة العربية ، عندما يريدون احتجاز احدى السفن ٠

ضرورة اعدامنا ، ورأى بعضهم الآخر الابقاء علينا · وفى خاتمة المطاف تلقى نائب السلطان أمرا من السلطان بالابقاء علينا · وفى نهاية اليوم الخامس والستين من القاء القبض علينا أرسل السلطان يستدعينا ، فحمل كلانا على جمل ولا زالت القيود الحديدية فى أقدامنا · واستغرقنا فى الطريق ثمانية أيام ثم قدمنا للسلطان فى مدينة يقال لها رداع Rhada (٩) · وقد كان السلطان عند وصولنا اليه يستعرض ٨٠٠٠٠ر مقاتل لأنه كان بصدد خوض حرب مع سلطان آخر هو سلطان صنعاء Sana التى تبعد عن Rhada مسافة تستغرق ثلاثة أيام (١٠) · ويقع جانب من صنعاء على جبل ، كما يقع جانب آخر منها فى السهل ، وهى مدينة جميلة جدا ، وعريقة جدا ، كما أنها غنية وعامرة بالسكان · وعندما مثلنا أمام السلطان سألنى عن موعد قدومى ، فأجبته قائلا « أنا من بلاد الروم ياسيدى ، وقد أتيت من القاهرة ، قاصدا المدينة المنورة ومكة المكرمة ، ثم أتيت الى بلادك لأن كل الناس فى سوريا وفى مكة والمدينة يقولون انك ولى من أولياء الله الصالحين Saint وأنا ـ ياسيدى ـ عبدك ، وأنت تعرف أننى مسلم ولأنك من أولياء الله الصالحين يا سيدى ، فأنت تعرف أننى لست جاسوسا للمسيحيين (١١) ، وانما أنا مسلم حق وأننى عبدك المخلص » وعندئذ قال السلطان لى : قل لا اله الا الله ، محمد رسول الله · لكننى لم أستطع النطق بهذه الكلمات على الاطلاق ، اما لأن هذه كانت ارادة الله أو لأن الخوف عقد لسانى · ولما رأى السلطان أننى لم أستطع النطق بهذه الكلمات (الشهادتين) أمر بالقائى فى السجن مع حراسة مشددة يقوم عليها رجال من ثمانى عشرة قلعة بحيث يجلب لهذا الغرض أربعة رجال من كل قلعة من هذه القلاع · وقد بقى فى حراستى فى بداية الأمر أربعة رجال لمدة أربعة أيام ثم استبدلوا بأربعة آخرين من أربع قلاع أخرى ، وبهذه الطريقة كانوا يقومون على حراستى طوال شهور ثلاثة ، وكانوا يقدمون لى رغيف دخن millet صباحا ، ورغيفا آخر فى المساء ، مع أن ستا من هذه الأرغفة ما كان ليكفينى ليوم واحد ، واذا ما حصلت فى بعض الأحيان على ما يكفينى من الماء فان ذلك كان يبعث فى السعادة ·

---

(٩) تقع الى الشمال من عدن ، وتبعد عنها حوالى ١٩٠ ميلا ، والى الجنوب من صنعاء بحوالى ستين ميلا · وبالرجوع الى كشاف البرق اليمانى فى الفتح العثمانى لقطب الدين النهروالى الذى أشرف حمد الجاسر على طبعه ، نجد أنها (رداع) تنطق بكسر الراء أيضا ·

(١٠) كان الأمير ابن عبد الوهاب الملقب بالملك الظافر سلطانا (حاكما) على عدن وجنوب اليمن ، وكان كما أشرنا فى حاشية سابقة شافعيا سنيا ، وكان فى حالة نزاع مع أئمة صنعاء ·

(١١) لا يعرف الغيب الا الله ـ (المترجم) ·

وبعد أن أمر السلطان بايداعي السجن بيومين ، توجه السلطان الى صنعاء بجيشه الذى كان يضم ثلاثة آلاف فارس من أبناء المسيحيين ، وان كانوا سودا (سمرا) كالمسلمين (كالعرب as Moors) · لقد كانوا من أتباع القديس يوحنا prester John (١٢) الذين تم شراؤهم وهم فى أعمار تتراوح بين الثامنة والتاسعة ودربوا على حمل السلاح وقد كان هؤلاء يكونون الحرس الخاص للسلطان لأنهم كانوا أفضل من بقية الجنود ، بل ويساوون فى مهارتهم بقية الجنود البالغين ٠٠٠ر٨٠ مقاتل · فقد كان الباقون جميعا يتسمون بالهزال كما كانوا عراة الا من قطعة من الكتان يرتديها الواحد منهم كعباءة (أو كستر Like a mantle) ، وعندما يخوضون المعركه يستخدمون تروسا مستديرة مكونة من قطعتين من جلود الأبقار أو الثيران ملتصقتين معا · وفى وسط كل ترس من التروس المذكورة آنفا نوجد أربعة قضبان (أعواد أو عصى) ليظل الترس مستقيما (حتى لايعوج) ، وقد طليت هذه التروس حتى تبدو لمن يراها أجمل شكلا وأفضل صنعا مما هى عليه فى الواقع · ويبلغ الترس فى حجمه قاع حمام خشبى as the bottom of a tub ، أما مقبضه فمكون من قطعة من الخشب يمكن القبض عليها باليد ، مثبتة فى الترس بمسمارين · كما يحمل المقاتل فى يده أيضا سهما (رمحا) a dart وسيفا قصيرا عريضا ، ويرتدى صدرة vest حمراء أو ذات لون آخر ، مصنوعة من القطن ، تقيه البرد وبأس أعدائه · وبشكل عام ، فانهم يحملون مقاليع sling لقذف الأحجار على أعدائهم ، وهم يرفعونها حول رؤوسهم (أى المقاليع) وتحت هذه المقاليع يضع الواحد منهم قطعة خشب طولها شبر a Span تسمى مسواكا لتنظيف أسنانه · وبشكل عام فان من هم أقل من أربعين أو خمسين سنه يلبس الواحد منهم قرنين (ضفيرتين) قد جدلتا من شعره

---

(١٢) المقصود انهم أحباش ، أو أثيوبيون ، وقد كان البرتغاليون يسمون بلاد الحبشة ـ فى هذه الفترة ـ مملكة القديس يوحنا ، ومما يذكر أن الكشوف الجغرافية البرتغالية منذ أيام هنرى الملاح · كانت تهدف ـ من بين ما تهدف ـ الى الوصول الى مملكة القديس يوحنا (الحبشة) ظنا من البرتغاليين أنها كانت مملكة قوية يمكن التحالف معها لتطويق العالم الاسلامى ، ولكن ذلك على كل حال لم يحدث ، والواقع أن ما كتبه فارتيما فى كتابه هذا عن بلاد العرب السعيدة ، من حيث دفاعه عن الملك البرتغالى ، وتحسره على رجال القديس يوحنا ، وما الى ذلك · يؤكد ما ذهبنا اليه فى مقدمة الترجمة العربية من أن الرجل كان يعمل لحساب البرتغال أو لحساب البرتغال واسبانيا معا · (مختصر عن تعليق بادجر) ·

حتى يبدو صغير السن (١٣) وقد أخذ السلطان الآنف الذكر مع جيشه أيضا ، خمسة آلاف بعير محملة بالخيام والحبال المصنوعة من القطن (١٤)٠

شغف نساء بلاد العرب السعيدة بالرجال البيض

بعد أن رأينا كيف رحـل الجيش الى صنعاء ، دعونا نعد مرة أخرى الى حديث السجن ٠ لقد كان فى قصر المدينة الذى ذكرته آنفا احدى أزواج السلطان الثلاث مع اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة من الوصيفات العذارى ، كن فى غاية الجمال ، وكانت بشرة زوج السلطان هذه أقرب للسواد من بشرتى زوجيه الأخريين ٠ وقد كانت هذه الأميرة (زوج السلطان) فى غاية الرقة معى ٠ لقد كنت أنا ورفيقى ورجل عربى مسلم a Moor فى السجن معا ، وكنا ثلاثتنا قد رتبنا أمرنا على أن يتظاهر واحد منا بالجنون ، كى يساعد كل منا الآخر ، وفى نهاية الأمر ـ عندما أسهموا ـ كان من نصيبى أن أقوم أنا بهـذه المهمة ، فأخذت الأمـــر على عاتقى ، ورحت آتى من الأمور كما لو كنت مجنونا حقا ٠ وأقول لكم الصـــدق ، اننى لم أحس أبدا بالرعب والانهاك ، كما أحسست فى الأيام الثـلاثة الأول ٠ والسبب فى ذلك أن خمسين أو ستين من الأطفال الصغار كانوا يلاحقوننى دوما ، ويحصبوننى كمـا كنت بدورى أحصبهم ٠ وكانـوا يصرخون فى اثرى قائلين : « يا مجنون ٠٠ يا مجنون » وكنت أملأ ثيابى بالحصى والأحجـــار وأتصرف كمجنون ٠ وكانت الأميرة (زوج السلطان الآنفة الذكر) تطل دوما مع وصيفاتها من النافذة ، وتظـــل هكذا عند النافذة من الصباح حتى المساء ، لترانى وتتجاذب معى أطراف الحديث ، وكان كثيرون من الرجال العابرين والتجـار يهزأون بى ويسخرون منى وينزعون قميصى حتى أغدو عاريا تماما كما ولدت ، وأكون بوضعى العارى هذا أمام الأميرة التى كانت تبدى سعادة فائقة عند رؤيتى عاريا هكذا ، وكانت تتشبث بى حتى لا أتركها وكانت تقدم لى طعاما فاخرا آكله حتى أكف عن ابداء رغبتى فى البعد عنها ٠ وقد قالت لى هذه الأميرة أيضا : أعطه لهذه الحيوانات ، حتى اذا ما قتلتها فانها ستكون هى المسئولة عن

(١٣) لبست هذه الطريقة فى لبس الضفائر المجدولة خاصـــة بقبائل وسط اليمن فحسب ، اذ أن بادجر قد رأى نســـاء من بعض أسرات الرقيق يفعلن ذلك فى زنجبار ، أما العرب القريبون من الساحل ٠ فعادة ما يتركون شعورهم الطويلة شعثاء مهوشة فى وسط رؤوسهم ، تاركين هذه السعور لتكون خصلة كبيرة (قنزعة) عند مقدمة الرأس ٠ (عن بادجر) ٠

(١٤) لم تكن الأسلحة النارية شائعة الاستعمال فى اليمن قبل سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) عندما أدخلتها الحملة المصرية ، وبدأ استخدامها فى القتل فى المنطقة الساحلية المواجهة لجزيرة كمران ـ (بادجر) ٠

ذلك » (١٥) وكان ثمة خروف يمـــر في الساحة السلطانية (الملكية) تزن ليته أربعين رطلا وقد حاصرته وسألته (أي الخروف) ان كان مسلما أو مسيحيا وأن عليه أن يقول الصدق ان كان يهوديا ، ورحت أكرر هذه الكلمات مرارا له (للخروف) ثم قلت له : « دلل على أنك مســلم وقل : لا اله الا الله ، محمد رسول الله » الا أن الخروف وقف ازائي لا ينطق ، ولا غرو ، فهو حيوان بائس ، وقد طعنته وكسرت أرجله الأربع (١٦) . وكانت الأميرة تجلس هناك وهي تغرق في الضـــحك ، وقد أطعمتني الأميرة من لحم هذا الخروف لمدة ثلاثة أيام ، ولا أذكر أنني أكلت لحمـا أفضل مذاقا من لحمه . وبعد ذلك بثلاثة أيام قتلت بالطريقـــة ذاتها حمـارا كان يحمل الماء الى القصـر ، لأنه رفض أن يكون مسلما (١٧) . وقد قتلته بالطريقة ذاتهـــا التي يقتل بهـــا اليهـــود الحيـوانات ، فقد رحت أضربه بالعصا الغليظة (النبوت) وتركته يموت . لكن حدث ذات يوم بينما كنت على وشك قتل حيوان آخر بالطريقة ذاتها أن مررت بواحد من أولئك الذين أتوا بي الى السجن ، وكان الرجـل أكثر جنونا مني ، فقال لي (وأنا على وشك قتل أحد الحيوانات) : (يا كافر يا كلب يا ابن الكلب) فألقيت كثيرا من الحجارة عليه الا أنه رد على ذلك بأن راح يقذفني وجميع الأطفال بالحجارة في صدري ، فآلمني كثيرا . ولم أعد قادرا على متابعته لوجود القيود الحديدية في قدمي ، فاتخذت سبيلي الى سجني ، لكنني قبل أن أصل ، قذفني بحجر آخر في الجانب فأحدث لي ألما أنكى من الألم الذي سببه الحجـر الأول . لقد كان يمكنني بيسر أن أتحاشى الحجرين اذا ما كنت راغبـــا في ذلك ، لكنني آثرت أن أتلقى الضربتين ، لأجعل لجنوني طعما . وعقب ذلك أسرعت فورا بدخول سجني وأوصدته بأحجار ضخام ، وظللت نهارين وليلتين دون طعام أو شراب ،

---

(١٥) النص الانجليزي :

Give it to those beasts, for if you kill them it Will be their own faults.

والمعنى غير واضح تماما . فما الذي يعطيه للحيوانات ؟ قد يكون المقصود هو الطعام . أما عن المسئولية او الخطأ ، فقد يكون خطأ الحيوانات لأنها أكلت الطعام المقدم لها . وقد يكون خطأ الذين أعدوا الطعام « كان يكون مسموما مثلا » . المعنى غير واضح على أية حال . ـ (المترجم) .

(١٦) النص الانجليزي :

"... I took a stick and broke all its four legs"

« وقد تناولت قضيبا وكسرت أرجله الأربع » Legs ومن المعروف ان هذه ليست طريقة الذبح عند المسلمين . والذي يقبله العقل أن هناك جملة ناقصة أو محذوفة أو ساقطة من النص ، نفيد أنه (أي فارتيما) ذبح الخروف ثم قطع أرجله ـ (المترجم) .

(١٧) هذا الكلام وفقا لخطة فارتيما الذي اتفق عليها مع صاحبيه في السجن ، وهي التظاهر بالجنون .

فخشت الأميرة والآخرون أن أكون قد لاقيت حتفى ، وكسروا الباب وأحضر لى هؤلاء الكلاب بعض قطع الرخام وقالوا لى : كل فهذا سكر ، وجاب لى آخرون عنبا مليئا بالتراب وقالوا لى : كل هذا ملح . وقد ازدردت قطع الرخام والعنب وكل شىء مرة واحدة .

وفى اليوم ذاته أحضر بعض تجار المدينة رجلين يعتبرونهما من الصالحين الأتقياء hermits لاعتزالهما فى بعض الجبال وذلك ليعرضونى عليهما ، وسألهما التجار عنى أأبدو لهما رجلا صالحا (وليا) holy ام مجنونا » فقال أحد الرجلين اننى (فارتيميا) أبدو له درويشا مبروكا ، وحكم الآخر على بالجنون ، وظلا يتناقشان فى هذا الأمر أكثر من ساعة ، وحتى أتخلص منهما ، فقد خلعت ثيابى وطرحتها عليهما ، فراحا يهرولان مبتعدين ، وهما يصيحان : مجنون .. انه مجنون .. ليس درويشا .. ليس صوفيا (١٨) . وكانت الأميرة مع وصيفاتها قرب النافذة ورأين هذا المنظر فضحكن ، وقالت الأميرة : « والله ، وراس النبى (١٩) .. هذا الرجل ما فى الدنيا مثله » . وفى صبيحة اليوم التالى وجدت الرجل الذى كان قد قذفنى بالحجرين فى حالة سكون ونعاس ، فحاصرته وأمسكته من شعره ووضعت ركبتى على بطنه ، ورحت ألكمه بقوة على وجهه حتى تغطى بالدم . وكانت الأميرة عند نافذتها تطالع وتبدى دشتها وتقول : « اقتل هؤلاء الدواب » . وقد اكتشف حاكم هذه البلدة فى ظروف متعددة أن رفيقى فى السجن يدبران للهرب اذ أحدثا فتحة فى السجن وأزاحا القيدين من أرجلهما ، ولأنه كان قد عرف أن الأميرة مسرورة منى جدا لذا فلم يلحق بى أى أذى حتى يكلمها بشأنى ، وعندما علمت الأميرة بالأمر كاملا ، وقر فى عقلها أننى عاقل ، فأرسلت الى وجعلتنى فى غرفة سفلية بالقصر ، لا باب لها ، وان كانت قد أبقت على القيد فى رجلى .

الأميرة تتصرف بتحرر

فى الليلة الأولى التالية لذلك ، قدمت الأميرة لزيارتى مع خمس أو ست من وصيفاتها ، وشرعت تتفحصنى ، وبدأت أظهر لها بالتدريج ما يفيد أننى لست مجنونا . وقد كانت تبدى - كامرأة ذكية - أننى لست

(١٨) الكلمات بنصها هى : صوفى مافى أو صوفى مفيش .

(١٩) هذا القسم شركى لا يقره المسلمون من أهل السنة والجماعة - (المترجم) .

مجنونا البتة ، وبدأت تفعل الشيء الكثير من أجلي ، فأمرت بسرير جيد لي بعد فرشه ، وأرسلت لي كثيرا من الطعام الممتاز ، وأعدت لي في اليوم التالي حماما وعطورا كثيرات ، واستمرت هذه العناية بي على هذا النحو اثني عشر يوما . وبعد ذلك راحت تنزل لي في غرفتي كل ليلة في الساعة الثالثة أو الرابعة ، وكانت في كل مرة تجلب لي معها مالذ وطاب من طعام. وكانت تدخل الى في مخدعي وتدعونى قائلة : « جونا تعال أنت هنا .. أجائع أنت ؟ » فأجيبها قائلا : « اى والله » وأقوم من مرقدى ، فأقف على قدمي ، وأخطو اليها وعلى قميصي . لكنها قالت : « ليش هذا القميص » أي « لا أريدك هكذا بهذا القميص .. اخلعه » . فأجبتها : « ياستى أنا مو مجنون الحين » أي « ياسيدتي .. اننى لست مجنونا الآن » فأجابتنى : « والله أنا عارفه ، انت أبدا ما مجنون .. انت مآ في الدنيا مثلك » ، وحتى أسعدها خلعت قميصي وألقيته أمامي بحياء ، فجعلتني الأميرة أقف أمامها بوضعي هذا لساعتين من الزمن وراحت تتأملني كما لو كنت أحد آلهة الجمال anymph وراحت تناشد الله سبحانه بهذه الكلمات : « يا الله أنت خلقت هذا أبيض مثـل الشمس ، وخلقتني سـوداء ... يا الله .. يانبي (٢٠) .. لماذا كان زوجي أسود ؟ ولدى أنا أسود .. وهذا الرجل أبيض .. ان شاء الله هذا الرجل يكون زوجي .. وان شاء الله يكون أولادى مثل هذا » وكانت الأميرة وهي تتضرع بهذه الكلمات لا تكف عن البكاء والتنهد وابداء اللهفة بتمرير يديها على طوال الوقت ، واعدة اياى أنه بمجرد أن يعود السلطان فانها ستجعله يفك قيودى . وفي الليلة التالية أتت الأميرة ومعها وصيفتان ، وجلبت لي طعـاما طيبا آكله وقالت : « تعال هنا يا جونا (يالوديفيكو) » فأجبتها : « أنا آجى عندك أى سآتيك .. لكن ليش يا ستى أنا مقيـد ؟! » فقالت الأميرة : « أيسعد يا لوديفيكو أن آتى وأجلس بعض الوقت معك » فقلت : لا ، لا ، فيكفيني ما أنا فيـه من عذاب بوجـود القيود في رجلي ، فلولاها (أي لولا الأميرة) لقطعت رأسى » فقالت : « لا تخف فرأسى فداك ، وان كنت أنت لا تريدني ، فسـوف أدعو جازيلا Gazella أو تيجيا Tegia أو جالزيرانا Galzerana ، لتأتى واحـدة منهن » لقـد قـالت ذلك فقط لأنها كانت راغبة في أن تأتى لتبقى معى بدلا من أى واحدة من النسوة الثلاث (الوصيفات) لكنني لم أكن لأقبل أبدا ، لأنني كنت أتوقع ذلك منذ غمرتني برقتها وعطفها بالاضـافة الى أنني وضعت في اعتباري أنها (أى الأميرة) لو كانت قد حققت رغبتها فانها كانت ستعطيني ذهبا وفضة وخيولا وعبيدا وكل ما أبغيه ، وقد تقدم لي عشرة عبيد سودا

(٢٠) من الترسلات الشركية غير المقبولة ـ (المترجم) .

يحرسونني ، الا أنني لم أكن أبدا بمستطيع الهرب فكل بـلاد الغــرب السعيدة كانت تعرف بأمري ، وقد بلغ الحرس بشأني عند كل الممرات والمخارج ، واذا ما نكرت في الهرب ذات مرة فلن أفلت من الموت · ولهذا السبب لم أرضخ لطلبها كما أنني لم أكن راغبا في أن أفقد جسدي وروحي
and because I did not wish to lose both my soul & body (٢١)
ورحت أبكي طوال الليل وأوكلت أمري الى الله · وبعد عودة السلطان بثلاثة أيام ، أرسلت الاميرة الى تخبرني أنني اذا كنت راغبا في البقاء معها فانها ستجعلني تريا ، فأجبت : « ان الأميرة اذا عملت على فك قيودي وأنجزت وعدها الذي قطعته أمام الله ورسوله (٢٢) ، فانني سـأفعل ما ترغب فيه » وسرعان ما عملت على استدعائي لحضرة السـلطان الذي سألني عن الجهة التي سأقصدها اذا ما فك قيودي ، فأجبته : « يا سيدي ، أب مفيش أم مفيش ، مره مفيش ، ولد مفيش ، أخ مفيش ، أخت مفيش · الله والنبي وانت بس ، سيدي · أنت تعطيني اكل ، أنا عبدك » أي يا سيدي أنا ليس لي أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ولا زوجة ولا ولد · وليس لي الا الله والنبي وانت ، فان أبقيتني وأعطيتني آكل ، فانا عبدك طوال حيـاتي · ورحت أبكي وأنشج · وكانت الأميرة حاضرة طوال الوقت ، فقالت للسلطان : « خف ربك ، واعمل له حسابا ، فهذا الرجل البائس أبقيتموه في القيود بلا سبب مدة طويلة » فقال السلطان : « حســـنا ، اذهب أينما تشاء فأنت حر » وأمر سريعا بفك قيـودي ، فركعت أمامه وقبلت قدمه ، وقبلت يد الأميرة فأمسكت يدي بدورها وقالت : « تعال معي أيها التابع البائس فأنا أعلم أنك تكاد تموت من الجوع » وعندما صرت في غرفتها قبلتني أكثر من مائة قبلة وقدمت لي مالذ من طعام ، الا أنني لم أحس بأية رغبة في الطعام ، وذلك لأنني كنت قد رأيت الأميرة تهمس للسلطان فاستنتجت أنها تطلب منه أن يمنحني لها كعبد خاص ، لذا فقد قلت للأميرة في غرفتها : « لن أذوق طعاما الا اذا وعدتني بأنني حـــر » فقلت : « اسكت (سكت) ، مجنون ! انت ما تعرف ايش يعطى الله لك » أي اسكت أنت ما تعرف ما وهبـك الله من خـير · ثم اسـتطردت : « ان كان انت مليح ، أنت أمير » أي ان كنت طيبا فستغدو أميرا · وقد عرفت الآن أي نوع من الامارة تريد اسباغها علي ، الا أنني أجبتها بأنني يجب أن أحظى قبل ذلك بقسط من الراحة وأن استرد دمائي التي هربت مني خوفا وهلعا نتيجة أفكار السوء التي راودتني أكثـر من أفكار الحب

(٢١) المعنى المقصود : حتى لا أموت وأقع في الخطيئة في الوقت ذاته ـ (المترجم) ·

(٢٢) المقصود أمام الله ، فهو حي لا يموت ـ (المترجم) ·

التى تحدثنى الآن عنهـــا . فقالت الأميرة : « والله أنت تتكلم مليح ». أنا أعطيك كل يوم بيض ودجاج وحمام وفلفل وقرفة وقرنفل وجوز الطيب nutmegs » » وعندئذ استرددت روحى شـــيئا ما ، نتيجة الكلمـــات الطيبات والوعود اللائى غمرتنى بها . ولأســـتعيد عافيتى ، ظللت فى القصر خمســة عشر يوما أو اثنى عشر . وذات يوم أرسلت الأمــيرة لى تسألنى اذا ما كنت أرغب فى الذهاب للصيد بصحبتها ، فأجبت بالايجاب وذهبت معها . وعند عودتنا من رحلة الصيد تظاهرت بأننى قد سقطت مريضا من الاعياء ، وظللت متظاهرا بهذا الامر ثمانية أيام ، بينما كانت الأميرة ترسل على الدوام أشخاصها لزيارتى والاطمئنان على وفى يوم ، أرسلت لأخبر الأميرة أننى كنت قد نذرت لله ورســول (٢٣) أن أزور درويشا (وليا) فى عدن وهو رجل كما يقولون يأتى بالمعجزات ، ورحت أؤكد بركاته حتى أحقق غرضى الذى أسعى اليه . فأرسلت الأميرة تخبرنى أنها قد سرت لطلبى وأنها أمرت لى ببعير وبخمسة وعشرين أشرفى ذهبا seraphim . وفى اليوم التالى ركبت متوجهـــا الى عدن فوصلتهـــا بعد ثمانية أيام وسرعان ما زرت هذا الدرويش (الولى) الذى كان يتعبد فقد كان يعيش دوما عيشة الفقر والتقشف والعفة (لايقرب النســـاء) Chastity ويقضى أيامه كناســك . والحق أقــول لكم ان عددا كبيرا من الناس فى هذه الأنحاء يعيشـــون كدراويش ويأنســون لحياة الفقر والتقشف ، الا أنهم مخادعون فهم لم يتلقوا تعميدا (لم يعمدوا) (٢٤) not having been baptised وعندما أديت صــلواتى فى اليوم الثانى تظاهرت بأننى شفيت بفعل بركة هــذا الدرويش (الولى العدنى) . وبعد ذلك كتبت للأميرة ذاكرا لها أنه ببركة الله سبحانه وبركة هــذا الشيخ الولى (استغفر الله) (٢٥) أصبحت معافى ، وأن الله سبحانه قد عافانى وشفانى ، فاننى أرغب فى التجول فى كل أنحــاء بلادها . وقد أبديت هذه الرغبـــة لأن السفن كانت فى هــذا المينــاء (عدن) وأنهـــا (أى السفن) لن تبحر قبل شهر . وقد تحدثت سرا مع أحــد ربابنة السفن مبديا له رغبتى بالسفر للهند مقابل هدايا ثمينة ، فأجاب بالموافقة الا أنها قبل الوصول للهند ستعرج على بلاد فارس ، وقد رضيت بذلك ووافقت .

---

(٢٣) النذر لا يكون الا للرحمان ــ (المترجم) .

(٢٤) يقصد التعميد المسيحى .

(٢٥) اضافة من المترجم .

لحج Lagi احدى مدن بلاد العرب السعيدة وكذلك عزعز Aiaz وسوقها ، وقلعة دمت Dante

وفى اليوم التالى ركبت قرابة خمسة عشر ميلا فوجدت مدينة يقال لها لحج Lagi (٢٦) وهى موضع مستو ، غاص بالسكان جدا ينمو به أعداد هائلة من النخيل ، والموضع عامر بالمراعى والغلال ، الا أننى لم أجد عنبا هنا ، كما أن أخشاب الوقود (الحطب) نادرة ٠ والسكان هنا غير متمدنين uncivilized فهم أعراب (بدو) غير أثرياء ٠وقد غادرت لحج وذهبت الى مدينة أخرى تبعد عنها يوما وهى مدينة عزعز Aiaz (٢٧) التى تقع على جبلين بينهما واد ممعن فى الجمال وينبوع ماء رائع ، وفى هذا الوادى يعقد سوق المدينة فيأتيه الناس من كلا الجبلين ٠ ونادرا ما ينعقد السوق دون شجار ونزاع ٠ وسبب ذلك أن سكان الجبل الشمالى يريدون من سكان الجبل الجنوبى أن يعتقدوا كما يعتقدون هم (أى سكان الجبل الشمالى) بأن محمدا رسول الله ، وأن كل صحابته وخلفائه الأربعة من الصالحين ، بينما سكان الجبل الجنوبى يعتقدون أن محمدا رسول الله ، وأن عليا هو الخليفة الحق ، أما الآخرون فمزيفون ٠ ولهذا السبب يقتل بعضهم بعضهم الآخر ، كما يقتل الكلاب بعضهم بعضهم الآخر ٠ دعونا نعد الى السوق الذى يجلب اليه أنواع كثيرة من التوابل وكميات كبيرة من الأقمشة والصوف والحرير ، والفاكهة الممتازة كالخوخ والرمان والسفرجل والتين والبندق nuto والعنب الرائع ويجب أن تعرف أنه يوجد على كل جبل من الجبلين اللذين أشرنا اليهما ــ قلعة حصينة ثم شرعت فى التوجه الى مدينة أخرى تبعد يومين ، وتسمى دمت Dante (٢٨) وهى مدينة حصينة جدا ، تقع على قمة جبل عظيم ويسكنها عرب فقراء جدا ، نظرا لأن المنطقة التى تقع فيها المدينة جدباء قاحلة ٠

المقرانة Almacarana ، احدى مدن بلاد العرب السعيدة ، وحديث عن رخائها ٠

ولكى نتابع حتى نهاية المطاف رغباتنا بعد أن رأينا لتونا هذه الأمور

---

(٢٦) تقع الى الشمال الغربى من عدن بحوالى ثلاثين ميلا . وكانت وقت رحلة فارتيما تابعة للأمير عبد الوهاب (أشرنا له فى حاشية سابقة) وفى سنة ١٥١٧ أصبحت تابعة لامام صنعاء ٠

(٢٧) يرجح بادجر أنها عزعز ، التى وصفها نيبور باعتبارها قرية تابعة لعدن ٠

(٢٨) دمت ، شرق رداع ٠

والمناظر الغريبة ، ارتحلنا الى مدينة أخرى تبعد يومين عن مدينة دمت (٢٩) Dante ، ونعنى بهـا مدينة المقرانة التى تقع على قمـه جبل ، ويستغرق الصعود اليهـا قطع سـبعة أميال عبر ممر لا يسع أكثر من شخصين يسيران متجاورين نظرا لضيق الممر · والبلدة تقع على مستوى قمة الجبل، وهى رائعة الجمال ، وبها طعام يكفى كل سكانهـا ، وقد بدت لى أقوى مدينة فى العالم ، بسبب موقعها ووفرة طعامها ، وليس ثمة نقص فى الماء فى هذه البلدة ، كما لاينقصها أى مقوم من مقومات الحياة ، وفوق كل هذا ، ففى البلدة خزان ماء يكفى ١٠٠ر٠٠٠ شـخص · ويحتفظ السلطان بكل نفائسه (أمواله) هنا لأنها مسقط رأسه وبلدته الأصلية ، لذا فالسلطان يجعل احدى زوجاته دوما فى المقرانة ·· ويجب أن يعرف أن كل ما يخطر على بالك من بضائع موجود هنـا ، وأن أنقى هواء فى العالم يمكن أن تتنفسه فى هذا المكان · والسـكان فى غالبهم بيض · ويحتفظ السلطان فى هذه البلدة بذهب ينوء بحمله أكثر من مائة جمل ، وما كنت لأقول ذلك لولا أننى رأيته (الذهب) بعينى ·

يريم Reame ، احدى مدن بلاد العرب السعيدة
وحديث عن هوائها ، وعادات بعض سكانها

بعد أن جلت فى هذه المدينة التى تحدثت عنها فى الفصل السابق ، اتخذت سبيلى الى موضع آخر تستغرق الرحلة اليه يوما واحدا وأعنى به مـدينة يريم Reame (٣٠) التى يقطن غالب أنحـائها سكان سود ، وهم تجار كبار · والمناطق المحيطة بهذه المدينة خصبة جدا الا أن خشب الوقود (الحطب) بها نادر ، وتضم هذه البلدة حوالى ألفى أسرة · وعلى جانبها يوجد جبل تقع عليه قلعة حصينة للغاية ، ويوجد هنا نوع من الخراف تبلغ زنة لية (ذيل) بعضها أربعة وأربعين رطلا ، وقد رأيتها بنفسى ، وليس لهذه الخراف قرون ولا تستطيع المشى لثقل وزنهـا · ويوجد هنا أيضا نوع من العنب الأبيض لا بذور فيـه لم أذق أطيب من طعمه · وقد وجدت هنا أيضا كل أنواع الفاكهة كما ذكرت آنفا ، والمناخ هنا جميل ومتفرد · وقد أجريت حوارا فى هذه البلدة مع أشخاص يزيد

---

(٢٩) دمت ، قلعة شرق رداع ·

(٣٠) ديمان فى ناحية يريم ·

عمر الواحد منهم عن مائة عام وخمسة وعشرين عاما (١٢٥ سـنة) ومع هذا فلازالوا بكامل صحتهم ٠

ويسير الناس هنا أكثر عريا من غيرهم ، وان كان ذوو الأوضاع الحسنة منهم يرتدون قمصانا ٠ والطبقات الدنيا يرتدى أفرادها نصف قطعة قماش يلفونها بالعرض حول نصفهم السفلى ويلبس الرجال فى كل بلاد العرب السعيدة قرونا (ضفائر) من الشعر صنعوها (جدلوها) من شعورهم ٠ أما النسوة فيرتدين سراويل فضفاضة تشبه سراويل البحـارة ٠

صنعاء ، احدى بلاد العرب السعيدة
وحديث عن قوة ابن الملك وقسوته

وبعد ذلك اتخذت سـبيلى الى صنعاء التى تبعـد عن بلدة يـريم Reame (٣١) ثلاثة أيـام ٠ وهى تقع على قمـة جبل عظيـم ، وهى مدينة حصينة للغاية ٠ وقد عسـكر السلطان بخيله ورجـله البالغين ٨٠٠٠٠ رجل ، ثمانية أشهر ، ليستولى عليها ، فلم يستطع دخولهـا عنوة ، وانمـا عن طريق اتفاقيـة استسلام عقـدها مع زعمائهـا by Capitulation وأسـوار صنعاء من الطين ويبلغ ارتفـاعها عشرة برازات braza كمـا يبلغ سـمكها عشرين برازا braza ، بحيث يمـكن لثمانيـة خيول أن تسير جنبا الى جنب فوقها ٠ وفى صنعاء تنمو فواكه متعددة تماما كما فى بلادى (٣٢) كما توجد ينابيع كثيرة ٠ وفى صنعاء سلطان (٣٣) له من الولد اثنا عشر ، أحدهم يسمى محمودا ، وهو شبيه بالمجانين فهو يعض الناس ويقتلهم ثم يأكل لحمهم ميتا حتى يشبع ، ويبلغ طوله أربع برازات ، كما أن ملامحه متناسقة ، ولون بشرته بنى داكن ٠ وينمو فى المناطق المجاورة لصنعاء بعض نباتات البهار ٠ ويوجد بصنعاء حوالى ٤٠٠٠ مسكن ، وهى مساكن جميلة وتشـبه المساكن فى بلادى ٠ ويوجد داخل المدينة أعناب وبساتين ، كتلك الموجودة فى بلادى٠

---

(٣١) قلعة ريمان فى ناحية يريم ـ (المترجم) ٠

(٣٢) يقصد ايطاليا أو البرتغال ـ (المترجم) ٠

(٣٣) يقصد الامام أحمد بن الامام الناصر ، الملقب بالمنصور ـ (بادجر) ٠

تعز Taesa وزبيد Zibit
وذمار Damat ، وهي مدن كبيرة جدا
في بلاد العرب السعيدة

بعد أن رأيت صنعاء اتجهت الى مدينة أخرى يقال لها تعز Taesa تبعد عنها ثلاثة أيام ، وتقع على جبل وهي جميلة غاصة بكل ما هو أنيق والأهم من كل ذلك ان بهـا كميات كبيرة من مـاء الورد rose water ويقال انها مدينة عريقة جدا ، فبها معبد مبنى على شاكلة سـانتا مارتا روتوندا Rotonda في روما ، بالاضـافة الى عـدد كبير من القصور القديمة • وفي صنعاء تجار في غاية الثراء • وألوان بشرات أهل صنعاء زيتونية • وقد غادرت صنعاء متجها الى زبيد Zibit التى تبعد عنها ثلاثة أيام ، وهى مدينة ضخمة وممتازة للغاية تقع بالقـرب من البحر الأحمر اذ تبعد عنه أكثر من نصف يوم • انها موضع يمتد امتدادا كبيرا ازاء البحر الأحمر ، ويتم تمويلها (عن طريق البحر الأحمر) بكميـات هائلة من السكر ، وبها فاكهة ممتازة ، وتقع زبيد فى واد بين جبلين ، وليس من سور يحيط بها • ويجلب الى زبيد كميات كبيرة من البهارات من كل نوع ، من المناطق والبلاد الأخرى لتتخذ طريقها للتوزيع فى المناطق الأخرى • أما عن ألبسة أهل زبيد وألوانهم فلا تختلف عن ألبسة وألوان أهل صنعاء •

وقد غادرت زبيـد متوجهـا الى ذمار Damar التى تبعد عن زبيد بيـوم واحـد ، ويقطنها تجار فى غاية الثراء من المسلمين Moors ، والأرض المحيطة بهذه المدينة خصبة ، ولا يختلف السكان فى عاداتهـم وأسلوب حياتهم عن سكان زبيد وصنعاء المذكورتين آنفا •

سلطان المدن المذكورة آنفا

كل المدن التى ذكرتها آنفـا تابعـة لسلطان اليمن "Amanni وهو سلطان بلاد العرب السعيدة الملقب بالشيخ الأمير Sechamir (٣٤) والكلمـة شـيخ Secho تعنى ما تعنيه كلمـة قديس Saint فى أوروبا ، أما كلمة أمير فتعنى «حاكم» أو «سيد» Lord ، وقد أطلق

---

(٣٤) أوردنا شيئا عنه فى الحاشية ص ص ١٩٢ ـ ١٩٣ •

الناس عليه هذه الألقاب لأنه لم يأمر باعدام أى شخص مهما كان الا أثناء الحروب • ويجب أن تعلم أن هذا السلطان كان يسجن ـ على أيامى ـ ١٥٫٠٠٠ أو ١٦٫٠٠٠ كلهم مكبلون فى الحديد ، ينفق على كل واحد منهم يوميا مبلغ كاترينين 2 Quattrini ، أى أنه يتركهم ليلاقوا حتوفهم فى السجن • ويمتلك السلطان ١٦٫٠٠٠ عبد ، جميعهم سود •

القرود وبعض الحيوانات ـ كالأسود ـ المؤذية للانسان

لقد غادرت ذمار واتجهت الى عدن فى خمسة أيام ، وفى منتصف الطريق وجدت جبلا مرعبا مخيفا ، رأيت فيه أكثر من ١٠٫٠٠٠ قرد ، يوجد بينها بعض الحيوانات المتوحشة كالأسود التى تلحق بالبشر أذى كبيرا ، ولايمكن للانسان أن يمر بهذا الطريق الا اذا كان بصحبة جماعة لاتقل عن مائة شخص • لقد مررنا بهذا الطريق على شفا خطر كبير ، ولم نحاول صيد أى من هذه الحيوانات الا أننا قتلنا عددا كبيرا منها بالسهام والمقاليع حتى نمر سالمين • وبمجرد وصولى الى عدن مكثت فى المسجد متظاهرا بأن المرض قد حل بى ، وظللت به طوال النهار وفى المساء رحت أبحث عن ربان السفينة ليجعلنى بين ركاب سفينة بشكل سرى •

بعض الأماكن فى القرن الأفريقى

ولأننا قررنا أن نرى مناطق أخرى ، فقد لجأنا للبحر لنصل لقصدنا ، الا أن الحظ (الظروف) نعود أن يملى ارادته المتقلبة على صفحات الماء ، فقد عدنا بعض الشىء ، خارجين بذلك عن خطتنا ، فقبل ذلك كنا قد أبحرنا مدة ستة أيام فى طريقنا لبلاد فارس ، ثم حدث ما جعلنا نعود فى اتجاه أثيوبيا (الساحل الغربى للبحر الأحمر) وعاد معنا خمس وعشرون سفينة محملة بالفوة Madder (٣٥) (نبات صبغى) لصبغ الملابس ، ففى كل عام يتم تحميل خمس وعشرين سفينة بهذا النبات من ميناء عدن • وينمو نبات الفوة هذا فى جنوب الجزيرة

---

(٣٥) يسميه العرب فوه foowwah ولا زال هذا النبات (حتى أيام بادجر) يصدر من عدن وموانىء اليمن الاخرى Badger, footnote, p. 85.

العربية • وبجهد فائق دخلنا ميناء زيلع Zeila وبقينا فيه خمسة أيام لرؤيته ، وكذلك لانتظار المناخ الملائم للابحار •

زيلع المدينة الافريقية ورخاؤها وبعض الحيوانات بها كالاغنام والابقار

زيلع (٣٦) ميناء يعج بالنشاط التجارى خاصة فى الذهب وأسنان الفيلة ويباع هنا أيضا عدد كبير من العبيد ، وهم مسيحيون من أتباع القديس جون (يوحنا) كان المسلمون قد أسروهم فى الحروب ، ويشحن هؤلاء العبيد من هنا الى فارس وجنوب الجزيرة العربية ومكة والقاهرة والهند • ومعيشة الناس فى زيلع رغدة ، وأمور القضاء تجرى على نحو ممتاز • وتنمو الغلال بوفرة هنا وكذلك أعلاف الحيوانات ، ويوجد الزيت هنا بكميات كبيرة ، وهم لايستخلصونه من الزيتون وانما من السمسم (٣٧) Zerzalino كما يتوفر هنا عسل النحل والشمع بكميات كبيرة ، ويوجد هنا نوع من الخراف ، لية الواحد منها تزن خمسة عشر أو ستة عشر رطلا ، ورؤوس هذه الخراف ورقابها سوداء تماما ، بينما بقية أبدانها بيضاء (٣٨) • وتوجد بعض الخراف الأخرى لها ذيول (ليات) فى طول ال brazzo ، وهى (أى الليات) مجدولة كجذوع أشجار العنب ولكل خروف من هذه الخراف لغد (غبب) يشبه غبب الثور ، وكثيرا ما يلمس الأرض • وقد وجدت فى زيلع نوعا معينا من الأبقار لها قرون كقرون الأيائل وهى متوحشة (٣٩) وقد رأيت هنا

---

(٣٦) زيلع التى عرفها Vincent باعتبارها مدينة موندوس Moondus القديمة تقع فى شمال شرق قارة أفريقيا فى مواجهة عدن ، وعلى بعد حوالى ستين ميلا من مضيق باب المندب • Budger, footncte, p. 86.

وقد نقل بادجر استطرادات طويلة عن الادريسى وأبو الفدا وابن بطوطة ، وباحثين غربيين لتحديد موقع زيلع ، وقد أصبح هذا معروفا الآن لذلك اكتفينا بالسطور المذكورة فى هذه الحاشية – (المترجم) •

(٣٧) لقد أرهقتنى كلمة Zerzalino ، حتى تذكرت أن فارتيما يستخدم حرف Z بدلا من حرف J ، فتصبح الكلمة Jeljulan جلجلان ، وينطقونها فى الهند Jingli أو Jirjili أما بارتى Paretti فقد كتبها Giuggiolana كمقابل لاتينى لكلمة السمسم Sesame – (بادجر) •

(٣٨) ينطبق هذا الوصف بشكل عام على خراف بربرة ، فمن النادر أن تكون بيضاء تماما ، وللواحد منها لغد طويل • أما النوع الآخر فتشبه ليته ذيل الخنزير – (بادجر) •

(٣٩) ربما كان فارتيما يقصد المهاة (والجمع مهوات) oryx رغم أنه قدم وصفا للقرون يشبه وصف قرون الظباء (جمع ظبى) antelope ، والواقع أن المهوات كثيرة الوجود داخل البر حول زيلع ، ويتم اصطيادها ، ونادرا ما يصطادونها حية – (بادجر) •

أيضا أبقارا أخرى للواحدة منها قرن وحيد فى جبهتها ، يبلغ طوله بالمو ونصف بالمو Palmo ، ويتجه الى ظهر البقرة ، أكثر من اتجاهه نحو الجبهة (٤٠) ولون هذا النوع من الأبقار أحمر بينما الأبقار التى ذكرناها قبل ذلك ذات لون أسود • والمؤن متوفرة بكثرة فى زيلع ، والتجار هنا كثيرون • ولزيلع سور غير قوى ، وميناء سيىء ، ومع ذلك فهو يقع على مستوى البر ، وملك (حاكم) زيلع مسلم ولديه عدد كبير من الجند المشاه والفرسان • وشعب زيلع شعب مقاتل ويلبس أفراده القمصان a shirt والوانهم كألوان الزيتون ولا يسيرون الا مسلحين بطريقة غير جيدة ، وهم جميعا من المسلمين •

بربرة احدى الجزر الأفريقية ، وشعبها

بمجرد أن أصبح المناخ ملائما ، أبحرنا ووصلنا الى جزيرة بربرة Barbara وحاكمها وكل سكانها من المسلمين (٤١) ، وهى جزيرة

---

(٤٠) وصف دقيق للصوماليين ، سكان بر الصومال وهو مصطلح ينطبق على المنطقة من رأس هافون Hafun على الساحل الشرقى لأفريقيا حتى زيلع غربا • وينقسم السكان وفقا لما يقوله كرتندن Cruttenden الى أمتين كبيرتين ترجعان أصولهما الى حضرموت ، وهما فى عداءات وصراعات مريرة لا تنتهى • ومركز هاتين الأسرتين الكبيرتين يقع الى الشرق أو ناحية مهب الريح Windward من جزيرة برنت Burnt وأحد هاتين الأسرتين مقسم الى أربع قبائل كبيرة ، وثلاث قبائل أصغر ••• وهم يدعون نسبتهم لأب واحد هو Darroud ابن اشميل Ishmail ابن عقيل Okeil ابن عرب Arab الذى أتى من حضرموت وتزوج ابنة من قبيلة Haweea المقيمة فى الساحل الشمال الشرقى لأفريقيا ، وقد أصبح هذا الحضرمى هو المؤسس المسلم للأمة الصومالية فى المناطق الشرقية •••

وثانى هاتين الأمتين الصوماليتين تمتد من جزيرة برنت Burnt أو بندر جديد Jedid الى زيلع وتنقسم الى ثلاث قبائل كبيرة هى : هابر جهاج Haber - Gehajjis وهابر عوال Haber Awwal وهابر الجهلة Haber el Jahlah (هابر تعنى أبناء) وهم أبناء Issakh من ثلاث زوجات ، و Isaak هذا قد قدم الى هنا من حضرموت بعد وقت قليل من تأسيس مواطنه الحضرمى الآخر أمة الى جهة الشرق ، وقد استقر فى بلدة ميت Meyt بالقرب من جزيرة برنت Burnt حيث لا يزال قبره موجودا حتى اليوم • ولما وجد Isaak نفوذه فى ازدياد بسبب زواجه من قبيلة الجالا Galla قام بهجوم مباغت على جارته بربرة وبمعاونة زعيم الجالا المشهور سلطان هرر Harireh ، ونجح فى الاستيلاء على المنطقة حتى زيلع ••• وقد عمر الشيخ Isaakh عمرا مديدا ، كوالديه ، ودفن فى مدينة ميت Meyt ولا زال اسمه يحظى بالاحترام حتى الآن • انظر Transactions of the Bombay Geographical Society, Vol. VIII (بادجر) •

(٤١) ان المقصود بلا شك هو بربرة ، الا أن بربرة ليست جزيرة كما وهم فارتيما ، =

صغيرة الا أنها طيبة وعامرة بالسكان ، وبها حيوانات من مختلف الأنواع ، والسكان فى غالبهم سود وغالب ثرواتهم من الحيوانات وقد مكثنا هنـا يوما واحدا ، ثم اتخذنا سبيلنا الى بلاد فارس ٠

= فهذا الاسم يطلق بشكل عام على خليج صغير inlet عميق وضيق يشكل ميناء آمنا فى موسم الرياح الموسمية الشمالية الشرقية للمناطق المجاورة له ٠ ويقع على بعد حوالى ١٢٠ ميلا الى الجنوب الشرقى من زيلع ٠٠٠٠٠٠ ولأن بربرة كانت ماهولة بالسكان عندما كان فارتيما هناك ، فمن الواضح أن زيارته كانت خلال الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ويتضح هذا من خلال الظروف التى أعادته مرة أخرى للساحل الافريقى بعد أن أبحر من عدن ، فربما تعرضت سفينته لاحدى هذه النوات (العواصف) الشمالية الغربية التى يسميها العرب بالات Balat والتى تحدث أحيانا خلال هذا الموسم على طول الساحل الشمالى الشرقى لشبه الجزيرة العربية ٠ ورغم أن فارتيما لم يذكر فى رحلته هذه الا قليلا من التواريخ ، الا أنه يمكننا أن نجلى هذا الغموض بالعديد من الملاحظات الواردة فى سياق رحلته ٠ لقد غادر دمشق فى الثامن من ابريل ، ووصل مكة فى ستة أسابيع وبقى فيها عدة أيام على الأقل ٠ ومكث اثنى عشر يوما فى طريقه للمدينة المنورة حيث مكث بضعة أيام قبل أن يذهب الى جدة ٠ ومكث فى جدة اسبوعين ، واستغرقت رحلته الى عدن سبعة عشر يوما ، وفى عـدن لبث فى السجن شـهرين قبـل أن يرسـلوه الى رداع Radaa حيث وصلها فى الصيف لأن الموسم كان موسم العنب وتجول فى أنحاء كبيرة من اليمن ، لمدة لا تقل عن ستة أسابيع وهذه الفترة فى مجملها تستغرق ما بين سبعة أشهر وثمانية ، لذا فربما غادر عدن فى حوالى منتصف ديسمبر عندما كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية على أشدها ، والسوق فى بربرة مزدهرة ـ (بادجر) ٠

السِّفْرُ الرَّابِعُ

بلاد فارس (وبعض سواحل الخليج العربى)

ديو بندر الروم

وجوجو ، وجلفار ، وأراضى مسقط

وصلنا الى مدينة يقال لها ديو بندر الروم Diubandirrami (١)

---

(١) رغم أن فارتيما جعل عنوان هذا الكتاب (أو الباب) عن بلاد فارس ، الا أن الموضعين المذكورين فى صدر عنوان هذا الفصل (بندر الروم وجوجو) يتبعان بشكل واضح لولاية جزيرات الهندية Guzerat ، وكان التغيير أثناء ابحار السفينة التى استقلها ، يرجع فى الأساس الى أنها كانت قد عرجت على فارس بسبب حملها بضائع من زيلع وبربرة لفارس ، خاصة وأنه بين زيلع وبربره من ناحية ، والسواحل الصومالية من ناحية أخرى ، توجد حركة تجاريه نشطة ٠

وبالنسبة الى ديو بندر الروم التى قدم فارتيما لنا اسـمها الصـحيح ، وهو Diu the port of the Turk (or Greeks) الا أن الباحث ادن Eden قد اتبع الترجمة اللاتينية الخاطئة التى مؤداها « ميناء الترك المقدس The holy Port of Turkes والمقصود بها بدون شك جزيرة ديو الصغيرة الواقعة فى خليج كمبى Cambay ، وكانت فى هذا الوقت تابعة لمحمود بقره ، سلطان جزيرات ، وقد بحثت ــ عبثا ــ عن الاسم الذى أطلقه عليها فارتيما ، والذى يتخذ طابع الأسماء العربية ــ فى مراجع أخرى ، سواء فى فترة رحلة فارتيما أو قبلها أو بعدها ، فلم أعثر له على أثر ٠ فمؤلف قرة العيون حدثنا عن اعصار مدمر فى بندر ديو Bander Diu فى البحر الهندى ، فى شهر يناير ١٤٩٥ تسبب فى فقد سفن كثيرة ، ويحدثنا مؤلف آخر بعد ذلك بخمس سنوات عن وفاة شخص اسمه عبد الله بن محمد بن علوى ــ وهو شريف يمنى مشهور ــ فى بندر ديو بالهند ، الا أن صفة (الرومية) لم تلحق باسم المدينة فى المؤلفين السابقين ٠٠٠٠ وتقع مدينة ديو فى الطرف الشرقى للجزيرة (أى جزيرة ديو) ، وهى مدينة جيدة التحصين ، يحيط بها سور فوقه أبراج يبعد الواحد عن الآخر بمسافات منتظمة ٠ والقناة (الممر المائى) الواقعة بين الجزيرة والبر لا تمكن السفن من الابحار ، خلا قوارب الصيد ، والمراكب الصغيرة ، ومع ذلك فالميناء ممتاز بالنسبة للسفن متوسطة الحجم ٠ ونظرا لهذا الأمر المشار اليه آنفا ، فاننا يجب أن نسقط هذا الموضع من اعتبارنا عند الحديث عن رحلة فارتيما (بمعنى أنه ليس المكان أو الموضع الذى أشار له فارتيما) وقد زار قيصر فريدرك Caesar Fredericke ، موضعا بهذا الاسم (ديو Diu) سنة ١٥٦٢ وقال « انها مدينة صغيرة عامرة بالحركة التجارية فالسفن تشحن هنا كميات كبيرة من البضائع ثم تتجه بعد ذلك الى هرمز ومكة المكرمة » ٠ وقد استولى البرتغاليون على ديو سنة ١٥١٥ وظلت فى حوزتهم حتى أيام بادجر (صاحب التعليق) وفى سنة ١٥٣٩ صد البرتغاليون هجوما على ديو قام به الاسطول التركى (العثمانى) بقيادة سليمان باشا الذى اضطر للعودة باسطوله للسويس ، وفى أثناء عودته (أى سليمان باشا) توقف لبعض الوقت فى زبيد فى اليمن ، وأثار الناس هناك لابتزازه أموالا من الامام ٠٠٠ (ملخص تعليق بادجر) ٠

بعد ابحار استمر اثنى عشر يوما ، وهى ميناء « تركى » يقع على مسافة قصيرة من الساحل ، وعندما يأتى المد يغدو جزيرة ، وعندما ينحسر الماء ، يمكن الوصول الى الساحل سيرا على الأقدام · وهذه المدينة تابعة لسلطان كمبى ، وحاكمها يسمى Menacheaz · وقد مكثنا فى ديو يومين · ولا توجد بها تجارة ضخمة ، ويقيم هنا بشكل دائم أربعمائة تاجر تركى · والمدينة محاطة بالأسوار ، وبها مدفعية كثيفة ، ولدى قاطنى المدينة سفن معينة تسمى تالى Thalae وهى تختلف شيئا ما عن السفن الشراعية ذوات المجاديف galleys ·

وقد غادرنا ديو وذهبنا الى جوجو (٢) التى تبعد عن ديو قرابة الأيام الثلاثة · وجوجو هذه ، ممتدة امتدادا كبيرا ، وبها تجارة عظيمة وحركة دائبة ، وتنعم بالثراء · وكل سكانها — على أية حال — من المسلمين · وقد غادرنا جوجو ، وقصدنا منطقة أخرى تسمى جيلفار Guilfar وهى رائعة وممتازة وعامرة بكل شىء (٣) · وثمة ميناء جيد هنا ، أبحرنا منه بريح مواتية حتى وصلنا لميناء مسقط (٤) ·

---

(٢) المقصود هنا — بدون شك — هى جوجها Gogha أو كما تسمى الآن Gogo وهى مدينة تقع فى شبه جزيرة كاوار على الساحل الغربى لخليج كمبى ، على بعد حوالى مائة ميل الى الشمال الشرقى من ديو ، ويصفها فوربس وهو مؤلف معاصر لبادجر صاحب التعليق كالتالى : « انها ميناء مرتب ومزدهر ، يسكنه أكثر من ثمانية آلاف نفس ، ولها مكلا (أى موضع قرب الساحل ترسو به السفن بسهولة) فى خليج كمبى · ويسمى بحارة هذا الميناء باسم الجوجاريين ، وبعضهم من المسلمين ، وبعضهم الآخر من الكولى أو الهندوس ، وهم عناصر تدعو للثقة وكان يحكم جوجو على أيام ملتون (١٦٨٨ — ١٧٢٣) حاكم من المغول العظام ، وقد استولى الانجليز عليها من المهراجات سنة ١٨٠٥ ، وهى الآن تشكل جزءا من ولاية أحمد أباد ··· (تعليق بادجر) ·

(٣) لابد أن يكون فارتيما قد عبر المحيط الهندى من (جوجو) ، ودخل الخليج الفارسى (العربى) ، لأن جيلفار Julfar تقع فى الخليج العربى ، على الجانب الغربى لمسندم ، على بعد حوالى عشرين ميلا الى الجنوب من هذا الرأس ، وهى احدى مدن خمس يسكنها العرب ، الا أن سكان جيلفار هم الأكثر تحضرا واستقرارا ، ويعملون بشكل أساسى فى صيد اللؤلؤ والتجارة والزراعة · ويتكون طعامهم من التمور والقمح والشعير واللحوم وكثير من السمك · أما بقية أفراد القسلة فمشغولون بتدبير أمور معيشتهم بشكل غير مستقر ، وذلك بالصيد فى الخلجان الصغيرة على الساحل أو بالتجول بين الصخور القاحلة فى المناطق الداخلية لتدبير المرعى الشحيح لقطعانهم ··· وقد استولى البرتغاليون على جيلفار فى مطلع القرن السادس عشر ، وقد ظلوا فى حماية القلعة هنا — لأغراض صيد اللؤلؤ — حتى طردوا من الخليج ، فاستعادها العرب ، وفى سنة ١٨١٩ دمرت حملة انجليزية مسقطية مشتركة الميناء والقلعة ، انتقاما من أعمال القرصنة التى ارتكبتها سفن تابعة لهؤلاء العرب — (تعليق بادجر) ·

(٤) مسقط هى الميناء الرئيسى لعمان ، ويحده البحر الهندى عند خط عرض ٢٢° و ٢٨′ شمالا ، وخط طول ٥٩° و ١٩′ شرقا — (عن بادجر) ·

هرمز
وكيف يصيدون اللآلىء الضخام جدا ، عندها

وقد تابعنا (٥) رحلتنا فغادرنا مسقط ، وذهبنا لمدينة هرمز العظيمة، وهى فى الغاية من الجمال · وهى عبارة عن جزيرة كبيرة ، ومركز ملاحى وتجارى · وتبعد عن البر عشرة أميال أو اثنى عشر ميلا · وليس فى هذه الجزيرة ماء أو طعام كافيان ، وانما يأتيها كل ذلك من البر · وبالقرب منها ، وعلى بعد ثلاثة أيام ، يصطادون أضخم اللآلىء فى العالم ، أما طريقة صيدهم فسأرويها لكم فيما يلى · هناك صيادون اختصاصيون فى صيد اللآلىء . يركبون قوارب صغيرة ، ويقذف الواحد منهم بحجر كبير مربوط بحبل سميك من ناحية مؤخرة القارب ، وبحبل آخر من ناحية مقدمة القارب ، وذلك ليبقى ــ أى القارب ــ ثابتا ، ثم يقذفون بحبل آخر ، معلق به حجر أيضا ، الى قاع الخليج ، وفى وسط القارب يقبل أحد صيادى اللآلىء يعلق حقيبتين حول عنقه ويربط الى قدميه حجرا ثقيلا ويغوص خمس عشرة خطوة ويبقى تحت الماء بقدر ما يستطيع ليجمع الأصداف الحاوية على اللآلىء Oysters ، ويضعها فى الحقيبة المعلقة حول عنقه ، ثم يتخلص من الحجر المربوط الى قدميه ويصعد الى ظاهر الماء مستخدما الحبال التى ذكرناها آنفا (٦) · وفى بعض الأحيان تتجمع سفن كثيرة تبلغ الثلاثمائة، تابعة لبلدان ومناطق مختلفة فى هذه الجزيرة التى يحكمها سلطان مسلم ·

---

(٥) يحدثنا عبد الرزاق الذى زار الجزيرة قبل فارتيما بستين سنة عن ازدهارها التجارى على نفس النحو الذى حدثنا به فارتيما ، أما رالف فتش Fitch فقد وصفها سنة ١٥٨٣ بأنها « جزيرة يصل محيطها الى حوالى ٢٥ أو ٣٠ ميلا ، وهى أكثر الجزر جفافا فى العالم ، فليس من نبات ينمو بها ، وليس بها سوى الملح ، أما المستلزمات الضرورية لحياة سكانها كالمياه والأخشاب والطعام وكل ما هو ضرورى ، فيأتيها من فارس التى يبعد برها عن الجزيرة حوالى اثنى عشر ميلا · وكان للبرتغاليين قلعة هناك عين فيها قائد من قبل ملك البرتغال ··· وفى هرمز تجار من مختلف البلاد ، وكثير منهم مسلمون ، وكثيرون أيضا من مختلف الأديان · ويوجد هنا تجارة مزدهرة فى كل أنواع البهار والعقاقير والحرير الخام والملابس الحريرية والسجاد العجمى الجميل ، ولآلىء كثيرة مجلوبة من البحرين ــ وهى أفضل أنواع اللآلىء وكثير من الخيول الفارسية المنتشرة فى كل أنحاء الهند ··· وقد استولى البرتغاليون بقيادة ألبوكيرك على هرمز سنة ١٥٠٨ ، وطردهم Gamrun الواقعة على البر الفارسى والتى عرفت بعده باسم بندر عباس ··· وتتراوح المسافة بين الجزيرة وبندر عباس ما بين أحد عشر ميلا ، واثنى عشر ميلا ــ (بادجر

(٦) هذا وصف دقيق لعملية صيد اللؤلؤ كما تتم حتى هذه الايام (أيام صاحب التعليق : بادجر) ·

سلطان هرمز ، وقسوة ابنه على أبيه وأمه واخوته

في الوقت الذى زرت فيه هرمز حدث ما سأقصه عليك • لقد كان لسلطان هرمز أحد عشر ابنا • كان أصغرهم بسيطا وينظر اليه على أنه نصف غبى ؛ أما الأكبر فكان ينظر اليه كشيطان طليق (غير مقيد أو لا يحد شره حدود) • وكان هذا السلطان قد جلب عبدين ، من أبناء مسيحيى القديس يوحنا Prester John اشتراهما صغيرين جدا وأحبهما كأولاده (٧) • وكان هذان العبدان فارسين ماهرين كما كانا مشرفين على القلاع • وذات ليلة قام الابن الأكبر بسمل عينى أبيه السلطان وعينى أمه وعيون اخوته جميعا ، فيما عدا أخيه نصف العاقل half-witted الذى أشرنا اليه آنفا ، وحملهم جميعا بعد سمل عيونهم الى غرفة أبيه وأمه ،وأشعل النار فى كل جثثهم وكل ما فى الغرفة • وفى الصباح الباكر عرف ما حدث ، وامتلأت المدينة بالشائعات ، وتحصن القاتل فى القصر ، وأعلن نفسه سلطانا ، أما أخوه الأصغر الذى كان الناس يعتبرونه غبيا فلم يبد من الغباء والبله ما كان الناس يظنونه به ، ذلك لأنه عندما سمع بما حدث اعتصم بالمسجد وصرح قائلا : « يا الهى •• ان أخى شيطان شرير ، لقد قتل أبى وأمى واخوتى جميعا ، وأحرق جثثهم بعد قتلهم » • وبعد مضى خمسة عشر يوما غاد السكون للمدينة ، فقد أرسل السلطان لأحد العبدين اللذين أشرنا لهما آنفا ، وقال له : « تعال أنت يا محمود » فأجاب العبد محمود : « ايش قلت ياسيدى » أى ماذا تطلب ياسيدى ، فقال السلطان : « أنا سلطان ؟ أليس كذلك ؟ » فأجاب محمود (اى والله ، سيدى ، أنت سلطان » فأخذ السلطان بيده وأكرمه ثم قال له : « روح اقتل صاحبك وأنا أعطيك أربع قلاع أو خمس » فأجاب محمود « يا سيدى أنا أكلت معه من صباى •• ثلاثين سنة ونحن نعمل معا ، والله سيدى أنا قاصر » يعنى والله ياسيد لا أستطيع • عندئذ قال السلطان : « حسنا، اذن دعه وحيدا » • وبعد هذا الحوار بأربعة أيام ، أرسل السلطان الى العبد الآخر ، وكان يسمى « قيم "Caim" وطلب منه ما سبق أن طلبه من العبد محمود ، فقال قيم « بسم الله الرحمن الرحيم ، ياسيدى » وحمل سلاحه سرا واتخذ طريقه فورا ليقتل زميله محمودا • وعندما رآه محمود نظر فى وجهه متفرسا وقال له : « يا خائن العهد والأمانة ، أنت لا تستطيع انكار خيانتها فقد اكتشفتها ، لكن انظر الآن لأنى سأقتلك قبل أن تقتلنى » •

ولما رأى قيم "Caim" أن أمره قد كشف وسره قد عرف ، سحب خنجره وألقاه تحت قدمى محمود ، وركع على قدميه وهو يقول : « آه ،

(٧) يرجح المستشرق بادجر أنهما من الأحباش •

يا سيدى فلتسامحنى ، فاننى أستحق الموت ، واذا رأيت من الأفضل لك أن تتناول هذه الأسلحـة وتقتلنى فلتفعـل ، لأننى ما أتيت الا لقتلك »
فأجاب محمود : « ربما كان ما وصفتك به من أنك خائن للعهد والأمانة كان قولا صحيحا ، فقد كنت دوما معى ، تعمل معى ، ونأكل معا ، طوال ثلاثين سنة ، ثم تأتى بعد كل هذا لتقتلنى بهذه الطريقة الخسيسة ٠٠ يالك من مخلوق بائس ، لأنك لم تعرف أن هذا الرجل (السلطان) ما هو الا شيطان انهض ، على أية حال ، فقد عفوت عنك ، لكن عليك أن تفهم أن هذا الرجل (السلطان) قد حرضنى على قتلك منذ ثلاثة أيام لكننى ما كنت لأقبل ٠ والآن ، دع الأمر كله لله ، لكن اذهب ، وافعل ما سأقوله لك ٠ اذهب الى السلطان وأخبـره أنك قتلتنى » فأجاب قيـم Caim « اننى مقتنع ، وسأفعل » وذهب للسلطان سريعا ، وعندما رآه السلطان قال له : « حسنا ، أقتلت صاحبك ؟! » فأجاب قيم Caim « نعم ياسيدى، قتلته والله » فقال لـه السلطان « تعـال هنا » فاقترب قيم Caim من السلطان ، وعندئذ طعنه السلطان عدة طعنات فى صدره وقتله ٠ وبعد ذلك بثلاثـة أيام تسلح محمود سرا وذهب لغرفـة السلطان ، فلمـا رآه اضطرب وصاح قائلا : « آه يا كلب ، يا ابن الكلب ، ألا زلت حيا !؟ »
فأجاب محمود : « اننى حى رغم أنفك ، وسأقتلك ، لأنك أدنى منزلة من الكلب أو الشيطان ، واقتتلا للحظة وقد حمل كل منهما سلاحه ، وقتل محمود السلطان وتحصن بالقصر ٠ ولأن الناس فى هـذه المدينة كانوا يحبونه ، فقد هرولوا جميعا الى القصر وراحوا يهتفون « يعيش محمود السلطان » واستمر محمود سلطانا لمدة عشرين يوما ، وبعد ذلك أرسل لكل شيوخ Lords وتجار المدينة وتحدث اليهم بهذه الكلمات الحكيمة : « ان ما فعلته كان لابد أن يحدث ، ولأننى أعرف أنه لا حق لى فى السلطنة، لذا فاننى أرجو كل الناس أن يسمحوا لى بتنصيب ابن السلطان الذى قتله ابنه ، ذلك الابن الذى كان يعتبره الناس مجنونا ، ليكون حاكما (ملكا) » وبذلك فقد جعله محمود ملكا ٠ وعلى أية حال فان محمودا — فى حقيقة الأمر — كان هو الحاكم الحقيقى ٠ وقال الناس فى المدينة « حقيقة ان محمودا هذا لابد أن يكون حبيب الرحمن » (٨) فحقيقة الأمر أن محمودا هذا كان يحكم المدينة والسلطان معا ، اذ لم يكن ثمة ذكر (أو قيمة) لهذا السلطان (٩) ٠ ويجب أن تعلم أنه يوجد بهذه المدينة بشكل عام أربعمائة تاجر أجنبى يتاجرون فى الحرير واللؤلؤ والجواهر والبهـار ٠

---

(٨) نص العبارة : the friend of God ، وقد آثرنا ترجمتها كما يطالع القارىء فى المتن ٠

(٩) يذكر المستشرق بادجر محقق الرحلات أنه لم يجد أية معلومات تاريخية فى المصادر عن هذه الأحداث ٠

والطعام الشـــائع هنا يتكون من الأرز الذى يستخدمه الناس أكثر من الخبز ، لأن القمح لا ينمو فى هذا المكان ٠

هراة Eri فى خراسان Corazani
ببلاد فارس ، ووفرة كثير من الأشياء بها
خاصة الراوند Rhubarb

وبعد أن سمعت هذه الحكاية المؤسفة ، ورأيت عادات أهل جزيرة هرمز ، غادرتها وتوغلت فى بلاد فارس ، وبعد رحلة استغرقت اثنى عشر يوما ، وجدت مدينة يقال لها هراة Eri (١٠) فى منطقة يقال لها خراسان ، ويقال لها أيضا the Romagna ، وملك خراسان يســكن فى المدينة (هراة) العامرة بمختلف البضائع خاصة الحرير ، فيمكنك فى يوم واحد أن تشترى هنا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حمل بعير من الحرير ٠ وهراة عامرة بأنواع الأطعمة (١١) ، ويوجد بها سوق كبير للراوند (١٢) ٠ وقد رأيت من يشترى ستة أرطال منه بدوكات ducat ، ومعنى هذا أن الرطل الواحد يساوى اثنتى عشرة أونصة ounces ٠ وتضم مدينة هراة حوالى ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ نفس ٠ وكل الســكان مسلمون ٠ وقد غـادرت هراة وسافرت برا لمدة عشرين يوما فوجدت مدنا وقلاعا عامرة بالسكان٠

---

(١٠) Eri أو Heri هو الاسم القديم لمدينة هراة Herat لكن السؤال هل المقصود هو هذه المدينة ذاتها ، أم مدينة أخرى زارها فارتيما ٠ لقد كانت هراة أثناء زيارة فارتيما عاصمة لخراسان ومقرا للسلطان حسين ميرزا ٠ وعلى أية حال فمن خلال وصفه يمكننا القول أن المقصود هو هراة المعروفة ، وأنه زارها فعلا ولم ينقل سماعه ــ (موجز تعليق بادجر) ٠

(١١) هراة هى أكثر مناطق خراسان خصوبة ــ (من تعليق بادجر) ٠

(١٢) نبات عشبى معمر من الفصيلة البطاطية ٠ عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ــ (المترجم) ٠

ويذكر بادجر أن هراة هى مفتاح التجارة بين تركستان وأفغانستان وفارس والهند ، وقل شأنها الآن (أيام بادجر) عما كانت عليه فى الأيام الخوالى ٠ وفى فترة زيارة فارتيما ، هناك احتمال كبير أن تكون هى المعبر الرئيسى بين التبت ومنغوليا ــ وهما المنطقتان الرئيسيتان لزراعة الراوند ــ والمناطق الغربية ٠ وهذا يفسر وفرة هذا العقار (الراوند) فى أسواق هراة ــ (مختصر تعليق بادجر) ٠

نهر يوفرا Euphra

الذى أعتقد أنه نهر الفرات Euphrates

لقد وصلت الى نهر عظيم وجميل يسميه النـاس هناك يوفـرا Eufra (١٣) ، ولكن أقصى ما أستطيع أن أحكم به أننى أعتقد أنه نهر الفرات ، نظرا لاتساعه وطوله on account of its great size •

لقد سافرنا لمدة أيام ثلاثة الى جهة اليسار ، وان كنا متتبعين لهذا النهر ، فوجدت مدينة يقال لها شيراز (١٤) Schirazo ، وكانت المدينة تستقبل زعيمها its lord وهو فارسى مسلم على مذهب الفرس Who is a persian & Mohammadan from the persians.

ويوجد فى شيراز جواهر كثيرة من الفيروز turquoises وكميـات هائلة من الياقوت الأحمر Balass rubies • حقيقة ان هذه الأحجار الكريمـة لا يتـم انتاجها هنـا ، وانما ترد (كما ذكرت التقارير) من بداخستان Badachsam التى تزخر أيضا بكميات ضخمة جدا من التجارة البحرية الفائقة ultra marine ؟ ، وكثير من التوتيـا tucia والمسك (١٥) • ويجب أن تعلم أنه من النادر أن نصادف المسك فى بلادنا دون أن يكون مغشوشا • وترجع هذه الحقيقة الى أننى قد رأيت بعض التجارب والخبرات فى هذا الصدد•خذ قنينة bladder مسك فى الصباح،

---

(١٣) نظرا لعدم وجود نهر بين هراة وشيراز له الاسم نفسه ، أو اسم قريب ، فاننى أميل الى الظن واحتمال أن يكون فارتيما قد صادف نهر بلوان Pulwan القريب من المرقاب Merghab التى تبعد ثمانين ميلا الى الشمال الشرقى من شيراز • ويجرى نهر بلوان فى بندمير Bendemir وبشكل سيلا سريعا ، ولعبوره لابد من اجتياز جسر يبلغ عرضه ثلاثمائة قدم ، ولابد أن يكون فاريما قد عبر هذا الجسر قبل الوصول الى شيراز ــ (مختصر تعليق فارتيما) •

(١٤) شيراز سوق عظيم للفيروز ، وأفضل أنواعه توجد فى جبال قريبة من نيسابور فى خراسان ــ (بادجر) •

(١٥) بداخستان Badakhshan تقع فى خانات القندز Kunduz لازالت مشهورة بمحاجر اللازورد (حجر كريم سماوى اللون) ومناجم الياقوت • أما التوتيا فقد كتبها فارتيما محرفة هكذا Tucia وتستخدم فى صنع الكحل • أما المسك فمن المحتمل أنه يصل الى بداخستان من التبت وتتاريا حيث توجد أفضل أنواعه ــ (مختصر تعليق بادجر) •

واكسرها ، ودع ثلاثة رجال أو أربعة يشمونها بالترتيب ، فسيؤدى ذلك على الفور الى خروج الدم من أنوفهم ، وحدوث هذا ، دليل على أنه مسك حقيقى وليس مغشوشا ٠

وقد سألت عن المدة التى يمكن أن يحتفظ بها المسك بجودته ، فقال لى أحد التجار « ان المسك اذا لم يكن مغشوشا فانه يستمر صالحا لمدة سنوات عشر » ٠

وقد خطر لى ـ بناء على ذلك ـ أن المسك الذى يصل الى بلادنا (أوروبا) قد غشه هؤلاء الفرس ، فهم أمكر خلق الله وأبرعهم فى تزييف الأشياء ، وفى الوقت نفسه فاننى أقول انهم أفضل الأصدقاء (الرفاق) وأكثر خلق الله تحررا (ليبرالية) ، انى أقول ذلك لأنى لمسته مع تاجر فارس قابلته فى شيراز Schirazo ٠ وعلى أية حال فقد كان الرجل من هراة Eri التى سبق ذكرها عند حديثى عن خراسان Corazani ٠ وقد كان هذا الرجل يعرفنى منذ عامين عندما كنت فى مكة وقال لى : ماذا تفعل هنا يا يونس ؟ ألست أنت الذى لقيتك فى مكة ؟ فقلت له : « اننى هو بعينه واننى فى رحلة حول العالم » فأجابنى : « الحمد لله لأننى وجدت صديقا سيكتشف العالم معى » وقد بقينا خمسة عشر يوما فى المدينة ذاتها (شيراز) وقال لى هذا التاجر واسمه المعلم ذو النور Cazazionor : (١٦) « لا تفارقنى ، لأننا سنكتشف جانبا طيبا من هذا العالم » ٠

ثم اتخذنا سبيلنا الى سمرقند Sambragante .

سمرقند (كما يسمونها) ، وهى مدينة كبيرة كالقاهرة وهى واقعة تحت اضطهاد الصوفى Sofi ٠

يقول التجار ان سمرقند (١٧) Sambragante مدينة كبيرة كالقاهرة ٠ وملك هذه المدينة مسلم ٠ ويقول بعض التجار انه يسيطر على ستين ألف فارس وكلهم بيض ومقاتلون شجعان ٠ ولم نتقدم أبعد من هذا ، وسبب ذلك أن الصوفى (الملك) يجوس خلال المنطقة ويحرق كل شىء ، ويقتل ـ خاصة ـ كل من يعتقد فى صحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان

---

(١٦) يقول بادجر أن المقطع الأول من هذا الاسم هو بلا شك خواجة والتى تختصر عادة بكلمة خوجة وتقابل بالانجليزية كلمة السيد Mister (بادجر) وهى فى الغالب تعنى (المعلم) باعتبار هذا الشخص كان تاجرا ـ (المترجم) ٠

(١٧) الشاه اسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية شن حروبا قاسية فى فارس وخراسان منذ حوالى سنة ١٥٠٠ ، وكان متعصبا جدا للمذهب الشيعى الذى تلقاه عن والده حيدر ـ (المترجم) ٠

(رضى الله عنهم) مع أنهم كانوا من صحابة الرسول (ص) الا أن هذا الملك يحمى من يؤمنون بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى (رضى الله عنه) • وقد قال لى رفيقى التاجر « تعال هنا يا يونس حتى تتأكد أنى راغب فيك ، وأنى أريد أن أحظى برفقتك ، فاننى سأزوجك ابنة أختى (شمس) • وحقا انها لاسم على مسمى فقد كانت رائعة الجمال • وقال لى ما هو أكثر من هذا : ويجب أن تعلم أننى الآن لن أسافر حول العالم لأننى فى حاجة الى الثروة ، لكننى أرحل بقصد المتعة ولأرى وأعرف •

وعندئذ شرعنا فى اتخاذ طريقنا للعودة الى هراة Eri • وعندما وصلنا الى منزله سرعان ما أرانى ابنة أخته التى أشرت اليها سابقا فتظاهرت باعجابى الشديد بها رغم أن عقلى كان مشغولا بأمور أخرى • لقد عدنا الى هرمز فى نهاية ثمانية أيام وركبنا مركبا وأبحرنا فى طريقنا للهند ، ووصلنا الى ميناء يقال له جو Cheo (١٨) •

---

(١٨) يرجح بادجر أن الميناء الذى كتبه فارتيما Cheo هو نفسه الميناء الذى يكتب بالطريقة الانجليزية Jooa أو Joah أو Joaah أو Kow وهو ببلاد السند ــ (مختصر تعليق بادجر) •

السفر الخامس

وهو السفر الأول عن الهند

مدينة كمبى Cambei ، العامرة بكل شيء

اذا لم تخنى الذاكرة ، فقد وعدت بأن أعالج الموضوعات باختصار ، حتى لا يكون سردى مملا لذا فسأستمر ــ باختصار ــ فى ذكر الأمور التى بدت لى جديرة بأن يعرفها الانسان ، وكذلك أكثر الأمور تشويقا واثارة٠

لقد دخلنا الهند بالقرب من الميناء المذكور آنفا (جو Cheo) حيث يوجد نهر الهندوس Indus الكبير القريب من مدينة كمبى Combeia(١)٠ وتقع هذه المدينة داخل البر (اليابسة) بثلاثة أميال ، وهى الى الجنوب من نهر الهندوس المذكور آنفا ٠ ويجب أن تعرف أنك لا تستطيع الذهاب الى هذه المدينة المذكورة بسفينة كبيرة أو متوسطة الا اذا كانت المياه مرتفعة ، فثمة نهر يصل اليها ، وأن المد يرتفع ثلاثة أميال أو أربعة ويجب أن تعرف أن المياه ترتفع عندما يكون القمر فى المحاق (متضائلا) on the wane ، على عكس ما يحدث فى بلادنا (الأوربية) اذ أن المد لا يكون الا والقمر فى التمام at the full (٢) ٠ ومدينة

---

(١) يبدو حديث فارتيما عن موقع مدينة كمبى Cambay (الأكثر صحة Khumbayut) ونهر الهندوس Indus ــ مضطربا اضطرابا شديدا ٠ وهذا ليس امرا غريبا ففيلبب بلدبوس Philip Baldaeus الذى كتب بعد ذلك بقرن ونصف ذكر أن هذه المدينة « تقع عند مدخل أحد أكبر فروع النهر » (انظر : Collection of Voyages, Vol. III, III, p. 566) أما نيكولو دى كونتى Nicolo de Conti الذى سبق فارتيما بخمسين عاما فيحدد موقعها بشكل أكثر دقة فيذكر أنها « فى الخليج الثانى بعد عبور مصب نهر الهندوس Indus" (انظر : India in the fifteenth Century, III, p. 10) وعلى أية حال فان دى كونتى كان محقا عندما حدد موقعها عند مصب نهر الهندوس وبالقرب من نهر آخر هو ــ بلاشك ــ نهر نيهى Myhee ، كما أن وصفه لهذا المصب الخليجى estuary يؤكده النص التالى الذى نستشهد به من قول هورسبرج Horsburgh « وفى مواجهة مدينة كمبى Cambay ، يوجد البحر على مسافة سبعة أميال أو ثمانية ، بعمق قد يصل الى حوالى ثلاثة أميال ، الا أن المياه تكون ضحلة جدا من جانب لآخر حتى أثناء المد الأعظم at low water spring tides فتصبح الملاحة متعذرة حتى لأصغر القوارب بسبب جفاف الأرض » (انظر : India Directory, Vol. i, p. 485) (بادجر ،

(٢) هذا خطأ وقع فيه فارتيما ، ربما بسبب ما سمعه ، أو لقصور فى ملاحظته للمد والجزر ذوى الحركة غير المعتادة والمميزة فى خليج كمبى Cambay ، والتى تسمى ــ أى حركة المد والجزر ــ بالتيهور أو العبر النهرى bore التى وصفها الفقيد القبطان =

Cambeia مسورة على غرار أسوار مدننا ، والحقيقة أنها رائعة جدا ،

= اثرساى Ethersay الذى كان يعمل فى البحرية الهندية ، قائلا : « التيهور الأساسى يرتفع خمسة أميال الى غرب الجنوب الغربى .W.S.W فى خليج كامبى Cambay Creek ولا يمكن ادراكه (تمييزه بوضـــوح) خـــلال المد الأدنى (الجزر) on the neaps دون ادراك المد الأعظم Spring tide المرتفع جدا ، والذى يسبقه (أى يسبق الجزر) وفى هذه الحالة يمكن ملاحظته بشكل غير واضح خلال الـ quarter • وهو يبدأ ـ عموما ـ عندما يبدأ المد الأعظم the Springs فى الارتفاع ، فتزداد الموجة يوميا وتبلغ ارتفاعا يوازى ارتفاع المد ، أو عندما يبلغ المد أشده ، ويحدث أن يبلغ المد ذروته بعد أن يكون القمر فى التمام (بدرا) ، وبعد ميلاده (ميلاد القمر) بحوالى يومين ويعتمد ارتفاعه على وضع القمر بالنسبة للأرض ، وعلى هذا فانه عند ارتفاع المد واشتداده بكون القمر الجديد فى نقطة الحضيض القمرى perigee ، ففى هذا الوقت تحدث أقصى درجات المد ، وتغدو امواج العبر bore فى أشدها ، وعندما يكون القمر تاما (بدرا) ويكون فى نقطة الأوج القمرى apogee ، يكون المد الأدنى (الأصغر) أقل من أى مد أعظم ، يكون العبر فى أدنى (أقل) حالاته • ويختلف المد والجزر أيضا فى الليل عنه فى النهار لأن المد الأعلى هو الأعظم من حيث سرعته ، وطالما أن المد والجزر the two tides يختلفان من ستة أقدام الى ثمانية ، ويستمر كلاهما فترة زمنية واحدة ، وللمد الأعظم أقصى سرعة وهنا يكون موج التيهور فى أقصى ارتفاعه مع المد الأعظم » (انظر : Bombay Government (Selections, No. XVII, p. 87 وقد عرف الدكتور فنسنت Vincent التيهور معتمدا على ما أورده مؤلف Periplus عن الملاحة فى خليج كمبى Cambay « انظر : (Commerce & Navigation of the ancients, etc, Vol. II, p. 396.) متعرضا لمظهره وتأثيره بحيث لا ندهش من ملاحظات الرحالة الأوائل الذين زاروا الهند ازاء هذه الظاهرة • يذكر فوربز Forbes « ان اندفاع المد الأعظم لا يقاوم فهو قوى جدا ، وهو يشكل منظرا لا يمكن للعين أن تتحقق منه تماما • انه يشكل جدارا عموديا من الماء ، يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام أو أربعة ، تمتد عبر الخليج على مدى رؤية العين ، وتبلغ سرعته اثنى عشر ميلا فى الساعة • وهذا المد بصوته المحذر يحمل تهديدا حقيقيا للملاح الذى يؤدى به جهله أو طيشه الى التغاضى عن هذا الصوت المحذر » •

(انظر : Ras Mala, Voél. i, p. 319) ـ (بادجر) •

(٣) نظرا لصعوبة هذه النصوص والتعليقات التى أوردهـا بادجر عن المد والجزر والحضيض القمرى ، والأوج والتيهور وما الى ذلك ، فقد آثرنا توضيح هذه المصطلحات بشكل يجعلها أقرب للفهم من خلال الرجوع لبعض المعاجم الجغرافية ، فيما يلى :

bore تترجمها المعاجم الجغرافية ، تيهور ، أو موجة مد ، أو عبر نهرى • وورد فى معجم منكهوس وجون صمول ، تحت هذه المادة (bore) ما معناه : « جدار » أو « حائط من المياه المنكسرة المتحركة تجرى ضد التيار على السطح upstream فى المياه الضحلة عند مصب النهر ، ويمكن تقدير مداها بمدى المد والجزر appreciable tidal range ، ويسببها قيام المد الأعظم بالتصدى لفيضان النهر المتقدم نحو البحر (عند مصب النهر) مما يعوق تقدم مياه النهر التى تصب فى البحر (أو المحيط) نتيجة التصادم (الاحتكاك) سواء عند القاعدة (القاع) أو بمواجهة تدفق النهر عند السطح ، وتتلاشى الموجات تدريجيا بمعنى أن ارتفاعها يقل شيئا فشيئا ، ويؤدى اصطدام موجة المد البحرى ، بماء النهر المندفع عند مصبه الى تراكم الوحل عند مدخل النهر وهذا يقتضى ازالته لتتمكن السفن من الملاحة فيه •

عامرة بالغلال والفاكهة الطيبة جدا • ويوجد هنا ثمانية أنواع أو تسعة من البهارات ، يقال لها : توربيدى turbidi ، وجالانجا gallanga وسبيكونــدارو Spicondaro وسافيتيــكا Saphetica ولاكرا (٤) lacra وبهارات أخرى ، لا أستطيع تذكر أسمائها • ويتم انتاج كميات هائلة من القطن هنا ، ففى كل عام يتم تحميل أربعين أو خمسين سفينة

---

neaptide أما المد الأدنى أو الأصغر فيكون عندما تكون الأرض والشمس والقمر فى حالة تربيع quadrature

spring tide أما المد الأعظم فيحدث عندما تكون الأرض والقمر والشمس فى نفس الخط المستقيم ، (فى حالة اقتران Syzygy) سواء مرتبطا بالقمر الجديد (عند ميلاد القمر) أو عندما يكون القمر فى التمام (بدرا) •

perigee وتعنى نقطة فى مدار الكوكب ، عندما تكون فى أدنى (أقرب مسـافة) من الأرض ، ويستخدم هذا المصطلح الآن للاشارة الى القمر عندما يكون بعده عن الأرض ٣٤٨٢٦٢ كيلو متر ، وتترجمها (*Perigee*) بعض المعاجم العربية بالحضيض القمرى •

a Perigeantide مد الحضيض القمرى ، ويحدث هذا المد عندما يكون بعده عن الأرض ما تكون الى الأرض (٣٤٨ر٢٩٢ كيلو متر) ، ويســمى المد الأعظم حيث يكون المـد الأعظم is المرتفع (العالى) والمد الأعظم المنخفض (الجزر) is أكثر من المعتاد بكثير •

a pogeantide المـد الأكبر (مد الأوج) ، عنـدما يكون القمـر فى أبعـد نقطـة له عن الأرض (٣٩٨ر٥٧٩ كيلو متر) (٧٤٧ر٦٦٧ ميلا) ويسمى المد الأكبر بهذا الاسم عندما يكون المد الأكبر المرتفع أكثر انخفاضا والجزر أكثر ارتفاعا من المعتاد ويكون مدى المد أقل من المعتاد •

مترجمة عن : A dictionary of Geography & the natural environment by F. J. Monkhouse & John Small. (المترجم) •

(٤) أسقطت الطبعة اللاتينية لرحلة فارتيما كل هذه المسميات للبهارات المختلفة فى منطقة كمبى • أما الطبعة الايطالية التى قام عليها راموزيو Ramusio فذكرت Turbitti و galanga و Spico nardo, و asso fetida, والك Lacca أما النوع الاول الذى أسماه فارتيما turbidi فهو عقار معروف تماما باسم turbith ، وهو نوع من اللبــلاب Convolvulus (C. Tarpethum L.) وهــو يوجـد فى مختلف أنحــاء الهند وكذلك فى جزر بحر الجنوب • (**اضـافة من المترجم** : بالرجوع لمعجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية وجدناه يذكر تحت مادة المحموديات أنهـــا عن المحمودة أو السقمونيا ، وكان يمكن تسميها اللبلابيات نسبة الى اللبلاب) يقول بادجر : وقد وجدته مدرجا تحت هذا الاسم فى قائمة الأدوية التى اشتراها القبطان جون ساريس John Saris فى سنة ١٦١٢ من قبطان سفينة هندية وصلت للمخا قادمة من ســـورات Surat أما الجالانجا Galanga فهى وفقا لما ذكره بارتى Baretti نـوع من المرنطـة arrow-root (**اضافة من المترجم** : عربها معجم المورد بالمرنطة ، أما معجم العلوم الزراعية للشهابى فقد عربها أروروت أى أنه كتب المصـــطلح الأجنبى (arrow-root) بالحروف العربية ، وعرفه بأنه نبات ذو جذور نشوية ، وذكر منه أنواعا هى : المرنطة الهندية Indian arrow-root "Maranta Indica" وقنا ماكول Queensland arrow-rrot وذكر أنه يستخرج من عساقله نشا ، ومرنطة قصبية West Indian arrow-root أو Maranta ar undinaca ويستخرج أيضا من جذورها نوع من النشا) • وللمجالانجا اســـتخدامات طبيـــة • أما الاســـبكينارو (Spikenard) والســـافيتيكا (assafoetida)

بالمنسوجات القطنية والحرير التى تصدر للبلاد المختلفة · وفى مملكة كمبى هذه يوجد أيضا على بعد ستة أيام ، جبل يستخرج منه العقيق الأحمر Cornelians ، وجبل آخر يستخرج منه العقيق الأبيض Chalcedonies · وعلى بعد تسعة أيام من كمبى يوجد جبل آخر يوجد به الألماس (٥) ·

منزلة سلطان هذه المدينة العظيمة ، كمبى

سوف نتعرض الآن لمنزلة وأحوال السلطان محمود Machamuth سلطان كمبى · فمنذ حوالى أربعين عاما استولى على مملكة كمبى هذه من ملك جزيرات Guzerati والجوزاتيريون نوع من البشر لا يأكلون

=معروفه تماما كادوية هندية (اضافة من المترجم : عرب معجم الشهابى الاسبكينارو بالناردين السنبلى وعرفه بأنه نبات من الفصيلة الناردينية كان الناس يستخرجون من جدوره عطرا مشهورا ، والاسم العلمى لهذا النبات هو Nardostuchys jataman‑i ويطلق الاسم أيضا على الزيت المستخرج من جذور هذا النبات ، وقد عدد معجم الشهابى أنواعا من هذا النبات (spikenard) ذكرها على النحو التالى : بالاضافة للناردين السنبلى المذكور أعلاه ، ذكر أرالبه سنبلية ، والاذخر المكى Andropogon nordus وخزامى سنبلية Lavandula Spica أو اللافندر ·· الخ) يقول بادجر : أما اللك Lacca فهى بدون شك صبغة تنتجها حشرة اللك lac insect تعرض لها بالتفصيل الدكتور بوشنان Buchnan

(انظر : Journey through Mysove, Canara & Malabār
فى : (Pinkerton' Voyages, Vol. VIII, pp. 760-761.

أما نيكولو دى كونتى Nicolo de Conti الذى كتب عن خليج كمبى فيذكر « أنه (أى كمبى) زاخر بالمارنطة (الناردين) واللك ، والنيلة (صبغة زرقاء) والاهليلج myrobalans والحرير »(**اضافة من المترجم** : بالرجوع لمعجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية . وجدنا التعريف التالى · الاهليلج نبات استوائى قابض ، منه الهندى الشعيرى ، ويسمى أيضا Terminilia ، ويسمى أيضا الأملج ، ويستعمل ثمره للأغراض الطبية واسمه العلمى Phyllanthus emblica يقول بادجر : اما نيكيتين Nikitin فيذكر : « اللك داكيك دالوان .Lek daokyk daton" من بين منتجات هذه المنطقة (كمبى) وأظن أن الكلمة العربية عقيق مأخوذة منها (agates) ، أما كلمة dâl الهندوستانية فتعنى العدس lentils · (انظر India in the fifteenth Century, II, p. 20, (III, p. 19. (بادجر) ·

(٥) لا تزال كمبى مشهورة بالعقيق agates, Cornelians والجزع onyxes (أو العقيق اليمانى ، وهو المقابل العربى الذى ورد فى معجم المصطلحات العلمية والفنية ـ انجليزى ، عربى . الذى وضعه أحمد الخطيب ، ورغم أن بادجر قد ذكر agates و Cornelians على أنها مصطلحان مختلفان ، الا أن المعاجم المتوفرة بين أيدينا تجعل العقيق هو المقابل العربى لكليهما ، الا أنه لابد من فارق دقيق بين الكلمتين ـ (**المترجم**) المشغول =

اللحوم ، ولا يقتلون أى كائن حى . وهم ليسوا مسلمين Moors وليسوا همجا أو وثنيين Heathens (٦) وأرى أنهم لو عمدوا لأمكن انقاذهـم ،

= بأشكال مختلفه . وأفضل العقيق agates & Cornelians يوجد فى طبقة معينة تحت السطح بحوالى ثلاثين قدما فى بقاع صغيرة فى تلال راجبيلا Rajpeeplai على ضفاف نيربودا Nerbudda . على بعد حوالى سبعين ميلا الى الجنوب الشرقى من كمبى Cambey ولا أعلم بوجود أيه مناجم ماس موجودة فى جزيرات Guzerat أو حولها ، وربما كان فارتيما يشير هنا الى تلك الموجودة فى جولكوندا Golconda — (بادجر) .

(٦) كان السلطان فى ذلك الوقت هو فتح خان Fath Khan ، ويلقب محمود بغره Mahmud Bigarrah ، وقد تولى الحكم سنة ١٤٥٩ م وتوفى سنة ١٥١١ ، الا أن فارتيما أخطأ فى تاريخه لمعاقب الحكم . فقد أصبحت جزيرات Guzerat منفصلة عن دهلى Delhi تحت حكم ظفرخان Dhafir Khan الذى استولى على السلطة فيها سنة ١٤٠٨ . ولم يعاصر فارتيما هذه الأحداث كما هو واضح . أما ذكر ملك جزيرات الذى لم يكن مسلما ولا وثنيا heathen . فذلك يدعونى للظن بانه حرف ما سمعه عن الانتصارات الحربية للسلطان محمود على بعض الأمراء المحليين ، فخلط زمن هذه الحروب كما خلط أو وهم فيما يتعلق باعتقادهم فى القوة العليا Supreme, power . ولعل أقرب الحوادث التاريخية التى يحتمل أن فارتيما قد خلط فيها بهذا الشأن ، هى استيلاء السلطان محمود على قلعتى جرنار Girnar وجاناجاره Janagarah الحصينتين من راو مانداليك Rao Mandalik فى سنة ١٤٧٢ . وكانت هاتان القلعتان فى كتيوار Kattywar احدى مقاطعات Province جزيرات ويبدو أن هذه المقاطعة كان يقطنها فى ذلك الوقت الجينيون (اليانيون) Jains . وقد كتب بوستانز Postans عن جرنار Girnar ما يلى : « كل هذا الجبل المنير عامر بطهارة وقدسية خاصة ، ذات أصول عريقة جدا ، وتبدو نظم العبادة الحالية مطعمة بالعقيدة البوذية القديمة الشائعة هنا ، فشعائر (نظم عبادة أو مراسم) بوذا pyadasi واضحة بما فيه الكفاية فقد كان جبل جيرناجار Girinagar وما حوله ، فى الماضى البعيد معقلا للموحدين بالله Monotheists الذين اضمحلت نظم عبادتهم الآن وتلاشت من العبادة الجينية (اليانية) Jainism الحديثة » (انظر : Notes on a journey to Girinagor, p. 882.

وانى أكثر ميلا الى هذا الاستنتاج السابق ، لأن وصف فارتيما لعقيدة وعادات البشر الذين اشار اليهم ولكون الجينيين (اليانيين) Jains عامة يكثرون فى كمبى وما حولها ، وهم يحرصون حرصا شديدا على حياة الحيوان . فالشرافاكان the Shravakans وهم احدى فرق الجينيين (اليانيين) لديهم كثير من المصحات (pinjreepols) للحيوانات والزواحف ، مهما كانت قليلة الشأن . كما أن لديهم منشآت خاصة أخرى تسمى جفكوتى Jevkotee ، وهى عبارة عن قبة لها باب عند القمة يسع دخول انسان زحفا — يضعون فيها السوس وغير ذلك من الحشرات التى يجدونها فى الغلال (الحبوب) . ويمدونها بالطعام ، لفرط حرصهم (أى الشرافاكا) وعنايتهم الشديدة بكل ما فيه روح (بكل أشكال الحياة) . وأكثر من هذا فهم يؤمنون بعبادة اله واحد ، ويرفضون تماما وكالة (وساطة) كل من : Devats و Aryhuntas, أو Gooroos (انظر (Bombay Government Selections, No XXXIX, p. 342-5. وقد كتب Fitch عن مستشفيات الحيوانات هذه (البنجريبول) قائلا : « انهم فى كمبى لن يقتلوا ، ولا هم قتلوا أى كائن حى ، بل ان لديهم مصحات لعلاج واطعام المرضى والضعاف من الكلاب والقطط ، وأخرى للطيور الضعيفة أو المريضة . بل انهم يقدمون اللحوم للنمل » (انظر : (Pinkerton's Voyage Vol. IV, p. 409)

وذلك بسبب صدق أعمالهم ، وتحليهم بالفضائل ، فهم لا يقومون بأى عمل يؤذى الآخرين مما يكرهون أن يفعله الآخرون معهم • أما لباسهم فأصفه كالتالى : بعض منهم يلبس قميصا ، وبعضهم الآخر عراة الا من قطعة قماش، يلفها الواحد منهم حول خصره ويمشون حفاة ، ويضعون على رؤوسهم قطعة قماش حمراء كبيرة ، وألوان بشرتهم سمراء مصفرة وبسبب طيبتهم وحبهم للسلم ، وجدنا السلطان محمودا الذى أشرنا اليه آنفا يستولى على مملكتهم •

وسوف أقص عليك الآن أسلوب حياة السلطان محمود هذا • فأول ما أذكره لكم أن هذا السلطان وكل شعبه من المسلمين ، ولديه عشرون ألف فارس • وعندما يستيقظ فى الصباح ، يأتى الى قصره خمسون فيلا وقد ركب على كل فيل رجل وقد دلى ساقيه على جانبى الفيل (يركب الواحد منهم منفرج الساقين astride) وتنحنى هذه الفيلة انحناءة خاصة تحية للسلطان ، وهذا هو سبب مجيئها للقصر ، ولا سبب آخر • وتقوم الفيلة بالشيء نفسه عندما ينهض السلطان من فوق سريره • وعندما يأكل السلطان تعزف خمسون آلة موسيقية أو ستون منها الأبواق Trumpets والطبول من مختلف الأنواع والمزامير (الصافرات) Flageolets والنايات Fifes وآلات أخرى كثيرة لا أذكرها مراعاة للاختصار •

وعندما يأكل السلطان أيضا تأتى الفيلة التى سبق أن ذكرتها لتحيته • وفى الوقت المناسب ، سأقص عليك من أمر هذه الفيلة ما يفيد ذكاءها وقدرتها على الفهم • وللسلطان محمود شوارب طويلة تحت أنفه ، وهى شوارب يبلغ طولها مبلغا كبيرا حتى انه ليعقدها فوق رأسه على نحو ما ترتبط النسوة ضفائرهن ، وللسلطة لحية بيضاء طويلة تصل الى حزام وسطه (٧) ويتناول هذا السلطان السم كل يوم • وعلى أية حال ، لايمكنك أن تتصور أنه يملأ معدته به ولكنه يتناول قدرا معينا ، وعندما يرغب فى قتل أى شخص ذى مكانة فانه يدعوه للجلوس أمامه عاريا ، ثم يأكل فاكهة معينة تسمى شوفول Chofole وهى تشبه حبات عنب المسكات muscatal nuts (٨) ، ويأكل أيضا بعض أوراق الأعشاب ، تشبه

---

(٧) ذكر على محمود خان فى كتابه « تاريخ جزيرات "history of Guzerat" عن السلطان محمود ما يلى : « فيما يتعلق بلقبه « بقرة » فان أهل جزرات يقولون ان قرنى شاربيه كبيران ، وهما مضفوران ، ويشبهان قرنى البقرة ، لذا فقد أسموه السلطان محمود قرنى البقرة ، أو السلطان محمود بقرة » (انظر ترجمة Bird للكتاب الذكور (pp. 202-203

(٨) ذكر الشيء نفسه أدواردو باربوسا Odoardo Barbosa الذى يبدو أنه زار كمبى بعد موت السلطان محمود خان بفترة قصيرة • يقول ادواردو : « لقد سمعت أنه تعود تناول السم منذ الطفولة لخوف أبيه من أن يقتل بالسم وهو اسلوب القتل الشائع =

أوراق البرتقال الحامض Sour orange يسميها بعضهم تمبولى Tamboli ثم يأكل بعض ما فى القواقع والأصداف البحرية • يأكل كل ذلك معا ، وعندما يمضغها جيدا ويمتلىء فمه بها يبصقها (يقذفها) على الشخص الذى يريد قتله ، فيقع ميتا على الأرض فى غضون نصف ساعة • ولهذا السلطان ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف زوجة (وجارية) وفى كل ليلة يقضيها مع احداهن ، توجد المرأة ميتة فى الصباح واذا ما خلع هذا السلطان قميصه ،فلا يمكن لأى انسان أن يمسه (أى يمس هذا القميص) وهذا ينطبق على كل ما يلبسه ، ففى كل يوم يختار ملابس جديدة • وقد سأل رفيقى كيف يتأتى لهذا السلطان أن يأكل السم على هذا النحو ؟ فأجابه بعض التجار الأكبر سنا من السلطان ، بأن أباه كان يطعمه السم منذ كان صغيرا • دعنا الآن نترك السلطان ، لنعود الى رحلتنا • فمعظم رجال هذه المدينة يرتدون قمصانا وهم قوم مقاتلون شديدو البأس ، كما أنهم تجار كبار • ومن المستحيل أن أصف روعة المنطقة ، فثمة حوالى ثلاثمائة سفينة من مختلف البلدان تتردد على هذه البلدة • فهذه المدينة (كمبى) ومدينة أخرى سأتحدث عنها تمد كل بلاد فارس وبلاد التتار وتركيا وسوريا وشمال أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا والقرن الأفريقى (Ethiopia) والهند كثير من الجزر المأهولة ـ بالحرير والمنسوجات القطنية • لذا فهذا السلطان يعيش فى رخاء واسع ، ويدخل فى معارك مع الملك المجاور له وهو ملك يوحى Ioghe التى تبعد خمسة عشر يوما•

= فى هذه البلاد ، لذا فقد اتخذ أبوه حذره ضد ذلك ، فبدأ يطعم ابنه بالسم بجرعات ضئيلة ، وراح يزيد مقدار هذه الجرعات بالتدريج حتى أصبح (أى ابنه) قادرا على تناول قدر كبير من السم حتى أصبح هو نفسه مسمما حتى ان الذبابة اذا ما حطت على يده فانها سرعان ما تنتفخ وتموت ، وقد ماتت نسوة كثيرات ممن ضاجعهن للسبب نفسه • (انظر : Ramusio, Vol. I. I, pp. 294-5 أما فارتيما فيورد ما هو أكثر من هذه فبصقة محمود بعد مضغه ورق البتل Betel Leaf مع فاكهة نخيل الأريكا the Areca palm ونخاع الأصداف ـ على أى شخص بريد جلالته قتله ـ تؤدى للقتل • وهذا بعيد عن الحقيقة فلم أجد ما يثبت هذه الرواية المبالغ فيها والتى تذكرنا بحكايات المناعة من السم Mithridates ، وحكايات ألف ليلة وليلة ، فمؤلف Miraat Sikandari نقل عن على محمد خان قوله : « ان السلطان محمود كان الأفضل من بين كل ملوك جزرات لعدالته واحسانه ومراعاته أحكام الشريعة الاسلامية كلها ، ولصلابته فى الحق فى الأمور كلها ، صغيرها وكبيرها ، وكان مشهورا بالقوة والشجاعة والتحرر » (انظر ترجمة Bird , p. 203) (بادجر) •

(٩) لا يقصد فارتيما بمصطلح « أثيوبيا » دولة الحبشة المعروفة الآن ، وانما استخدمها فى أكثر من موضع من رحلاته للدلالة على كل ساحل أفريقيا الشرقى حتى سفالة (فى موزمبيق الحالية) كما أطلقها على مناطق زيلع وبربرة • (انظر نص رحلة فارتيما التى أشرنا لبياناتها الببليوجرافية فى المقدمة وفى قائمة المراجع ، pp. 289-298) (المترجم ـ) •

ملك جوغى Joghe ، أسلوب حياته وعاداته

ملك جوغى (أو جوجى) (١٠) ذو سلطان واسع اذ يحكم حوالى ثلاثين ألف شخص ، وهو — وكل شعبه — وثنيون وينظر الملوك الوثنيون الآخرون له ولشعبه باعتبارهم قديسين (مقدسين) نظرا لأسلوبهم فى الحياة الذى سأذكره لكم هنا • فمن عادة ملك جوغى أن يذهب للحج كل ثلاث سنوات أو أربع مصطحبا معه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من شعبه ، ومصطحبا معه زوجته وأطفاله • وهو يأخذ معه أربعة أو خمسة من طيور الزقزاق Coursers والزباد Civet-Cats والقرود والببغاوات ، والصقور والنمور ، وهو يمر بالهند كلها وهو فى طريقه للحج • أما ثيابه فمن جلد الماعز ، جلد ماعز لتغطية قبله ، وجلد ماعز لتغطية دبره ، وهو يجعل جانب الجلد الذى فيه الشعر (الوبر) الى الخارج • ولون بشرة هذا الملك مسودة مشبعة بالصفرة dark tawny ففى هذه المنطقة نجد الناس أكثر سوادا ، وأبعد عن البياض • ويتزين هذا الملك وشعبه بكميات كبيرة من المجوهرات واللآلىء وغير ذلك من الأحجار الكريمة يعلقونها فى آذانهم ، وهم يرحلون لحجهم هذا وقد ارتدوا الزى الفضفاض على النسق الرومانى a l'apostolica (١١) وبعضهم يرتدى القمصان ، وقد غطى وجه الملك وذراعاه وكل جسده — وكذلك بعض النبلاء (ذوى الحيثيات) بمسحوق خشب الصندل ، والروائح العطرية الممتازة • وبعض هؤلاء الناس — ورعا وتقوى — تعودوا ألا يجلسوا فوق أى مقعد مرتفع ، بل ان

---

(١٠) لست بقادر على التعرف على ملك يوغى "King of Ioghe" (Joghees) الذى يقال ان السلطان محمودا دخل معه فى حرب • وليس من مصادر نقارن بها ما أورده فارتيما من أسماء ومسافات • وربما كان فارتيما يشير الى راجا Rajah ايدور Eedur فى مبهى كانتا Myhee Kanta الذى سار اليه السلطان محمود بجيش كبير فى سنة ١٤٩٤ م ، وبين راجات كولى Koolee Rajahs وجزرات Guzzerat Sovereigns كانت توجد حروب مستمرة منذ سنة ١٤٠٠ حتى أصبحت جزرات احدى مقاطعات امبراطورية أكبر منذ سنة ١٥٨٣ م Akbar's empire (انظر : Bird's translation of the Mirât Ahmadi, pp. 121, 137, 222, 277, 325. • وانظر أيضا : Forber's Ras Mala, Vol. I, pp. 372, 381, 385 ...) وربما كان موضع الحج الذى أشار اليه فارتيما هو المزار البوذى المشهور (بوذخانا (Boodkhana) فى بروتم perwuttum التى وصفها نكيتين Nikilin قائلا : « انها قدس الهندوس اذ يتجمع فيها الناس من مختلف أنحاء الهند » (انظر : India in the 15th Century, III, p. 16.) (بادجر) •

(١١) أظن أن فارتيما استعار هذا من التعبير الرومانى Toga الذى يعنى الثوب الرومانى الفضفاض الذى كان الفنانون الايطاليون القدماء يرسمون الرسل والحواريين وقد ارتدوه وهو تعبير مقبول ومقارنته واردة ، نظرا لأن عامة الناس فى الهند يرتدون اللونجاتى longhati • وقد سبق لفارتيما عند حديثه عن لباس بعض أهل جنوب الجزيرة العربية أن أجرى مقارنة مشابهة — (بادجر) •

آخرين منهم لا يجلسون ـ ورعا وتقوى ـ على الأرض أبدا ، وآخرين منهم لا يتمددون تمددا كاملا على الأرض ، وآخرين لايتكلمون أبدا • وهم دائما يطوفون مع ثلاثة أو أربعة رفاق يقومون على خدمتهم • وكلهم ـ بوجه عام ـ يعلقون فى رقابهم أبواقا صغارا a little horn وعندما يصلون الى احدى المدن ، ينفخون جميعا فى أبواقهم ، وهم يفعلون ذلك عندما يكونون فى حاجة الى الصدقات • واذا لم يكن الملك مصاحبا لهم فانهم يحجون على دفعات ، يبلغ عدد الدفعة الواحدة أربعمائة أو ثلاثمائة شخص على الأقل ويبقون فى المدينة ثلاثة أيام فى حالة سنجانى Signani (١٢) ، وبعضهم يحمل عصيا لها حلقات من الحديد عند أطرافها • وبعضهم يحمل أطباقا حديدية ذوات حواف حادة كالأمواس وهم يقذفون بها بمقاليع ، عندما يريدون الحاق الأذى بأى شخص ، ولذلك فان هؤلاء الناس عندما يصلون الى أية مدينة هندية ، فان كل من فيها يحاول ارضاءهم لأنهم اذا ما حدث أن قتلوا أحدا ـ حتى ولو كان حاكم البلاد ، فان أحدا لا يعاقبهم لأن الناس ينظرون اليهم كقديسين Saints (١٣) • وأرض جوغى ليست خصبة جدا لذا فهم يعانون من جدب المحاصيل وقلة المؤن ، فالجبال فى بلادهم أكثر من السهول ، والسكان فقراء جدا وليس فى بلادهم مواضع مسورة (١٤) • وتصل جواهر كثيرة الى بلادنا على يد هؤلاء الناس •

فبسبب حرية الحركة التى يتمتعون بها ، وكذلك بسبب صدقهم وطهارتهم ، فانهم يذهبون حيث تنتج الجواهر ، ويحملونها الى مناطق الهند الأخرى ، دون أن يدفعوا فيها شيئا without any expense ونظرا لأن بلادهم حصينة ، فقد كان السلطان محمود فى حرب معهم •

مدينة شول Cevul وعادات أهلها وشجاعتهم

عندما غادرت مدينة كمبى ، ظللت فى حالة ترحال حتى وصلت مدينة أخرى هى شول التى تبعد عن كمبى اثنى عشر يوما وما بين المدينتين (كمبى وشول) يسمى جزرات Guzerati •

---

(١٢) Singani أو Zingani تعنى الغجر gipsies (؟) ـ (بادجر) •

(١٣) من المؤكد أن ما ذكره فارتيما عن الممارسات القاسية والصارمة التى يمارسها الجوغيون الفقراء Joghee Fakirs ، وكذلك تقدير اخوتهم الدينية Co-religionists فيه كثير من الاعتدال فى الوصف ، وهو اعتدال يفوق ما كتبه برنير Bernier او هملتون Hamilton اللذين أبديا كثيرا من الاشمئزاز والقرف ازاء هذا الزهد (التقشف) الفاحش Filthy ascentics (انظر :

Pinkerton's Voyage, vol. VIII, p. 180, 317-8

(١٤) ما ذكره فارتيما من وصف للمنطقة ، يجعلنى أتأكد أنه يشير الى منطقة ميهى كانتا Myhee Canta ـ (بادجر) •

(١٥) يكتب الكتاب الانجليز هذه المدينة بأشكال مختلفة Choul أو Chaul =

وملك شول وثني والناس هنا ذوو بشرات سوداء مشبعة بصفرة ٠ أما عن لباسهم — باستثناء بعض التجار المسلمين — فانهم يلبسون قمصانا، وبعضهم يسيرون عراة الا من قطعة قماش حول الخصر ، وهم حفاة ولا يغطون رؤوسهم ٠ وهم مقاتلون ، وأسلحتهم هي السيوف والتروس والأقواس والسهام المصنوعة من القصب والخشب ، ولديهم مدافع they posses artillary ٠ وهذه المدينة مسورة بشكل جيد وتبعد عن البحر بميلين ٠ وفي هذه المدينة نهر في غاية الجمال ، تغدو وتروح فيه السفن الأجنبية بأعداد كبيرة فالمنطقة عامرة بكل شيء عدا العنب وجوز الهند والكستناء chestnuts ٠ وهم يحملون هنا كميات هائلة من الغلال والشعير والخضروات من كل نوع،ويصنعون المنسوجات القطنية هنا بكميات كبيرة ٠

ولن أصف لك عقائدهم هنا ، لأن عقائدهم هي نفس عقائد ملك كلكتا Calicut التي سأذكرها لك عندما يحين وقت الحديث عن كلكتا ٠ ويوجد في شول عدد كبير من التجار المسلمين ٠ والمناخ هنا أقرب للحرارة منه للبرودة ٠ والعدالة تسير سيرا حسنا في هذه البلاد ، وليس لدى ملكها عدد كبير من المقاتلين ، ويملك السكان هنا خيولا وثيرانا وأبقارا بأعداد كبيرة ٠

مدينة دابول Dubuli

بعد أن رأينا مدينة شول وعادات أهلها ، رحلت الى مدينة أخرى

= أو Chowul ، وهي مدينة وميناء في الكنكان الشمالي Northern Concan في مقاطعة (منطقة) تاناه Tannah البريطانية الى الجنوب من بمباي بثلاثة وعشرين ميلا ٠ ويبدو أنها كانت موضعا لتجارة هامة فيما مضى وقد زار نيكين Nikitin الرحالة الروسي هذه المدينة وأسماها شيفيل Chivil قبل فارتيما بحوالي خمس وثلاثين سنة ووصف أحوال سكانها بتفصيل أكثر مما قدمه لنا فارتيما ، فهو يقول « ان الناس يسيرون شبه عراة ، ورؤوسهم عارية ، وكذلك صدورهم ٠٠٠ وأميرهم their Kniaz يضع الفاتا fața (وهو ثوب حريري فضفاض) على رأسه ، وآخر ، حول خصره ٠ (وهو ما يشير اليه فارتيما بعبارة alla apostolicha ٠ أما خدم الأمير فيربطون (يعقدون) الفاتا fata حول خصورهم ويحمل كل واحد منهم في يده ترسا وسيفا (ذى حدين) أو سيفا معقوفا (أحدبا) أو خنجرا أو سيفا ضالعا (وحيد الحد ، وطويل ، ومعقوف قليلا) أو قوسا وسهاما ، الا أنهم جميعا عراة وحفاة » (انظر : (voyage, XI, p. 408, VIII, p. 351. أما رالف فتش Fitch الذى كان في شول سنة ١٥٨٣ بعد سقوطها في أيدى البرتغاليين فيقول : « توجد هنا تجارة عظيمة في كل أنواع البهار ، والأدوية والحرير والملابس الحريرية والصندل والعاج وأسنان الفيلة » الا أن هذه التجارة قد انهارت بدرجة كبيرة زمن هملتون Hamilton الذى نجده يقول : « ان هذا المكان بائس تماما الآن » (انظر Pinkerton's (voyage, XI, p. 408, VIII, p. 351. (بادجر) ٠

تبعد عنها بيومين ، وهى مدينة دابولى (١٦) التى تقع على ساحل نهر كبير جدا • ومدينة دابولى ، ذات سور يشبه أسوار المدن فى بلادنا وهو بحالة جيدة جدا • وهذه المدينة وما حولها تشبه المدينة التى سبق أن ذكرتها (شول) • ويوجد عدد كبير جدا من التجار المسلمين هنا وملك دابولى وثنى ولديه حوالى ثلاثين ألف مقاتل الا أنهم يشبهون المقاتلين — فى شول Cevul التى سبق أن أشرت اليها • ويراعى الملك هنا تحقيق العدالة بشكل صارم ، أما أسلوب الحياة واللباس والعادات فى دابولى فهى جميعا تشبه ما فى مدينة شول •

جزيرة كاوه (جوجا) وملكها

لقد غادرت دابولى وتوجهت الى جزيرة جوجا (كاوه) التى تبعد عن البر الهندى حوالى ميل والتى تدفع سنويا لملك الدكن Deccan عشرة آلاف دوكات ذهبى ، ويسمونها (أى الدوكاوات) بارادى Paradi ، وهى (أى البارادى) أصغر من الأشرفى Seraphim القاهرى ، الا أنها أسمك وقد حفر شيطانان devils على أحد وجهيها ، وبعض الكتابات على الوجه الآخر (١٨) • وفى هذه الجزيرة قلعة تقع بالقرب من البحر وهى

---

(١٦) تقع فى المقاطعة البريطانية Rutnagherry ، عند خط طول ٣٤َ و ١٧°٥٦٨ ٣٣ ١٦َ و ٧٣° شرقا ، على الضفة الشمالية لنهر واششتى washishtee (كان الملاحون الاوائل يسمونه هليويك Hulewacke او كاليوكو Kalewacko — (بادجر) •

(١٧) جزيرة Coa التى يسميها ابن بطوطة كاوه (Kawah) يحتلها البرتغاليون الآن (أيام بادجر) الا أنها فى ذلك الوقت كانت تابعة لسلطنة المماليك فى الدكن ، وقد استولى ألبوكيرك على هذه الجزيره سنة ١٥١٠ الا أن حاكمها عادل شـــاه 'Adil Shah سرعان ما طردهم • واستعادها البرتغاليون مرة أخرى فى العام التالى من خليفة عادل شاه ، ولازالت فى حوزتهم حتى الآن (أيام بادجر) ولم تكن تجارتها مزدهرة جدا قبل البرتغاليين ، الا أنها — أى التجارة — عادت فازدهرت فى الفترة الباكرة من الحكم البرتغالى ، وقد ذكر رالف فتش Fitch الذى زار Goa سنة ١٥٨٣ أنه بوجد فى هذه الجزيرة كثيرون من مختلف بلاد العالم » الا أن وضعها الآن بائس تماما — (بادجر) •

(١٨) البارادو أو البيرتات Parado or Pertab ، المقصود بها نفس العملة التى نسمى الهن hun • ووفقا لما ذكره برينسب Prinsep فان هذه العملة تحمل صورة سـيفا (شـيفا) Siva وبارباتى Parbati على أحـد الوجهين ، ومعبد هـرمى على الوجه الآخر ، وتسمى بين الأوربيين Pajoda الا أنه فى مجموعة مارسدن عن عملات جنوب الهند بوجد لوحة بقطعة عملة من النوع المشار اليه فى حجم ووصف (الكتابة) يتماثلان مع ما ذكره فارتيما ، فعلى أحـد وجهيها صـورة شيفا وبارباتى Parbati وعلى الجانب الآخر شعار ببدو أنه لحاكمة (امرأة) اسمها سرى ساداسيفا Sri Sadasiva (انظر : Marsden's Numes mata Onientalia Vol II, p. 738) (بادجر) •

مسورة على غرار قلاعنا ، ويوجد فى هذه القلعة تحت امرتـه أربعمائـة مملوك ، بل ان هذا القائـد نفسه مملوك • وعنـدما يستطيع هذا القائد المملوكى تدبير رجل أبيض ، فانه يدفع له مبلغا كبيرا من المال ويخصص له على الأقل خمسة عشر أو عشرين بارادى Paradi فى الشهر • وقبل أن يدرجه ضمن قائمة الرجال القادرين (المقاتلين) فانه (أى القائـد) يرسل فى طلب رداءين runics من الجلد واحد له (أى لقائد القلعة) والآخر لمن يريد القائد ادراجه ضمن رجال القلعة المقاتلين ، ويرتدى كل منهما رداءه الجلدى ، ويدخلان فى صراع (مصارعة) فاذا ما وجده القائد قويا ، أدرجه ضمن رجال القلعة المقاتلين واذا وجده غير قوى وظفه فى عمل آخر غير القتال • ويشن هذا القائد ومماليكه الأربعمائة حروبا شديدة ضد ملك نارسنجا (١٩) Narsinga الذى سنتحدث عنه فى الوقت المناسب• وقد غادرت كاوة (جوجا) وسرت فى البر الهندى سبعة أيام حتى وصلت الى مدينة الدكن •

مدينة الدكن المدينة الهندية رائعة الجمال وجواهرها المتنوعة والثمينة

يحكم مدينة الدكن المذكورة ملك مسلم ، ورئيس القلعة الذى أشرنا له فى الفصل السابق يتبع ملك الدكن ويدفع له هو ومن معه من المماليك، ومدينة الدكن فى الغاية من الجمال ، وأرضها خصبة جدا • ولدى ملكها ، خمسة عشر ألف فارس وراجل • ويوجد قصر جميل بهذه المدينة ، بـه أربع وأربعون غرفة يتحتم عليك المرور بها جميعا قبـل أن تصل لغرفـة الملك • وهى مدينة مسورة على نسق أسوار المدن المسيحية ومنازلها جميلة جدا (*) • ويعيش ملك الدكن فى أبهة وعظمة فائقتين •

---

(١٩) المقصود راجا راجايانجر Raja of Rajayanagar عاصمة المملكه البرهمية المسهورة كارانتك Carantic التى كان بينها وبن سلطة عادل شاه فى الدكن حروب مستمرة فى هذه الفترة (انظر Scott's Ferishta, Vol. I, pp. 207-225) (بادجر) •

(★) المقصود هنا ـ بلا شك ـ هى بيجابور Bijapur وهى مدينة خربة مهجورة الآن ، فى مقاطعة ساتارا Sattara district بالقرب من الحدود الشرقيـة نحو حيدر أباد ، الا أنها كانت فيما مضى عاصمة مملكة الدكن الاسلامية • وقد ذكر فيتش Fitch الذى زار جوجا Goa فى سنة ١٨٥٣ أن « بيجابور تقع فى منطقة الدكن (Hidalcan) التى تبعد عن جوجا ستة أيام أو سـبعة • وتعد بيجابور Biscapor or Bijapur المدينة الرئيسية فى الدكن » وكان الأمير الحاكم على أيام رحلة فارتيما هو يوسف خان ، الابن التشهير لمراد الثانى فى الأناضول الذى كان (أى الابن) قد تم شراؤه كعبد (مملوك) =

ويضع عدد كبير من خدمه على أحذيتهم الياقوت الأحمر والألماس وغير ذلك من الجواهر ، وعلى هذا يمكنك أن تتخيل كثرة ما يلبســونه فى أصابعهم ويعلقونه فى آذانهم ، منها ، ويوجد جبل (*) فى هذه المملكة يستخرجون منه الألماس ، وهذا الجبل يبعد عن المدينة مسافة فرسخ ، وقد أحاطوه بسور وفرضوا عليه حراسة مشددة • وهذه المملكة عامرة بكل شيء • وأهلها جميعا من المسلمين •

ويتكون لباسهم من الأثواب robes أو القمصان الحريرية رائعـة الجمال ويلبسون أحذية ، وسراويل قصيرة كتلك التى يرتديها البحارة • أما النساء فمحجبات كنسوة دمشق •

الأعمال العسكرية لملك الدكن

وملك الدكن الذى أشرنا اليه آنفا ، كل أهل مملكته مسلمون ، وهو فى حالة حرب دائمة مع ملك نارسنجا Narsinga • وغالب عسكر ملك الدكن من الأجانب البيض (٢٠) ، أما لون شعبه فأسود مشبع بصفرة •

= ليكون حارسا لملك أحمد أباد (بدار) Bidar (Ahmedabad) الا أنه سرعان ما وصل الى أرقى المناصب فى الدولة ثم انفرد بالسلطة واتخذ لنفسه اسم عادل شاه ‘Adil Shah فى سنة ١٥٠١ • ولابد أن موارده كانت هائلة لأنه بنى قلعة بيجابور الضخمة التى جعلها مقرا له • وتتأكد حديث فارتيما عن فخامة هذه المدينة وازدهارها وعن روعة بطانة ملكها وبسالة قواته العسكرية من خلال الآثار العظيمة التى تدل على موقع بيجابور التى كانت عظيمة ذات يوم ، وكذلك من خلال ما ذكره فريشا Ferisha عن حكم عادل شاه • وفريشا هذا زار هذه المنطقة سنة ١٨٥٢ ووصف بقايا القصر Padishah's palace قائلا : « لقد كان فخما ورائعا حقا ، يفوق الوصف ، فلا يمكننى القول انى رأيت قصرا أوروبيا قديما أو حديثا يدانيه من حيث المساحة واسلوب العمارة ، فالجدران المحصنة التى تحيط بالقصر وملحقاته يبلغ محيطها ميلا ونصف وتسور مساحة تبلغ حوالى اثنين وستين فدانا انجليزيا acres • والخندق المائى العريض الخارجى تظلله أشجار التمر الهندى الضخمة ، كما أن الباحات التى تتخلل القلعة غاصة أيضا بالأشجار •••• » وهو يقدر السكان الحاليين بحوالى أحد عشر ألف نفس (انظر : Bombay Quarterly Magazine, July 1853.

وانظر أيضا : Sydenham's Account of Bijapur : (بادجر) •

(*) ربما كان هو الموقع الذى أشار اليه تافرنير Tavernier فى قوله : وأول المناجم التى زرتها تقع ضمن حدود ملك بيجابور Visapour Bijopur فى مقاطعة (ولاية) كارناتيكا Carnatica ، وهـــذا المنجم يســـمى رولكوندا ، Raolconda ويبعد عن جلكوندا Golconda بخمسة أيام ، ويبعد ثمانية أيام أو تسعة عن بيجابور (Visapoor)

(انظر : Pinkerton's Voyage, Vol. VIII, p. 235 (بادجر) •

(٢٠) وفقا لما ذكره فريشتا Ferishta فان عادل شاه قد أدخل فى خدمته عددا كبيرا من المساعدين الأجانب ، وكان من بينهم كثير من الأحباش ، كما ذكر أن خليفته اسماعيل عادل شاه كون جيشا من ١٠ر٠٠٠ فارس من العرب والفرس والترك الأزبك والأكراد وغيرهم من الجنسيات الأخرى (انظر Scot's Translation, Vol. I, p. 245) .

وملك هذه البلاد قوى جدا وثرى جدا ومتحرر most liberal • وهو يمتلك بالاضافة لذلك أسطولا بحريا وهو عدو لدود للمسيحيين (٢١) •

وقد غادرنا بلاده ، وذهبنا الى مدينة باتاكالا Bathecala ٠

باتاكالا ، ووفرة الأرز والسكر بها

تبعد باتاكالا ، احدى مدن الهند العظيمة ، عن الدكن ، خمسة أيام ، وملكها وثنى • ومدينة باتاكالا مسورة ورائعة ، وتبعد عن ساحل البحر حوالى ميــل • وملكها (حاكمها) تابــع للملك نارسنجا Narsinga • وللمدينة ميناء ولا يمكن للسفن الاقتراب منها الا عبر نهر صغير • ويوجد بها عدد كبير من التجار المسلمين نظرا لأنها مركز تجارى هام •

ويمر النهر المشار اليه فيما سبق ، بالقرب من أسوار المدينة العامرة بالأرز والسكر ، خاصة الملبسات (أو الحلوى) المصنوعة وفقا لطريقتنا (الايطالية أو الأوربية) • ويوجد هنا الجوز والتين ، على شاكلة ما هو موجود فى كلكتــا • والناس هنــا وثنيون كما هو الحــال فى كلكتــا ، ولا نستثنى الا المسلمين الذين يعيشون وفقا للشريعة الاسلامية • وليس من المألوف هنــا وجود الخيول والبغــال والحمير ، وانما توجــد الأبقار والجواميس والخراف والثيران والماعــز • ولا يوجــد هنا غــلال أو شعير أو خضر ، وانما توجد أفضل أنواع الفاكهة فى الهند • وقد غادرت هذا المكان وذهبت الى جزيرة أنزديفا (٢٢) Anzediva يســكنها مسلمون ووثنيون • وتبعد هذه الجزيرة عن الساحل بنصف ميل ومحيطها حوالى عشرين ميلا • وليس هواؤها طيبا جدا ، كما أن أرضها ليست خصبة •

ويوجد ميناء ممتاز بين الجزيرة والساحل ، وفى هذه الجزيرة التى أشرت لها يوجد ماء عذب ذو طعم ممتاز •

---

(٢١) طرد عادل شاه البرتغاليين من جوجا Goa بعد أن استولوا عليها للمرة الأولى سنة ١٥١٠ • وقد أبدى حماسا دينيا فائقا انطلاقا من وعى سياسى وبعد أن كان عادل شاه قد اعتنق المذهب الشيعى وجعله الدين الرسمى (الوطنى) عاد مرة أخرى فغير آراءه ليهدىء من المعارضة الخطيرة التى أبداها السنة المتحمسون ورفضهم لردته (أى تحوله للمذهب الشيعى) ـ (بادجر) •

(٢٢) هى جزيرة تبعد عن ساحل كنارا الشمالية North Canara بميلين• « ويبلغ طولها حوالى الميل ، وهى من بين الممتلكات البرتغالية وتبدو صخرية من الخارج الا أن لها جانبها المبهج من الجانب الآخر ، حيث حصنت بسور وبعض الأبراج » (انظر : (Horsburgh's Directory, Vol. I, p. 507).

وقد استولى البرتغاليون عليها سنة ١٥٠٥ • وقد بالغ فارتيما كثيرا فى ذكر أبعادها ـ (بادجر) •

المقاطعات الهندية : سنتاكولا وأونور ومانجولور ، وهى مناطق هندية رائعة

بعد مغادرتنا جزيرة أنزديفا Anzediva التى أشرت لها فى الفصل السابق ، وصلنا الى سنتاكولا (٢٣) Centacola التى تبعد يوما واحدا عن الجزيرة . وحاكم سنتاكولا ليس غنيا جدا . وتوجد هنا كميات كبيرة من لحوم البقر والأرز ، والفاكهة الطيبة الشائعة فى الهند . ويوجد فى هذه المدينة عدد كبير من التجار المسلمين . وحاكم هذه المدينــة وثنى . وأهاليها سود ، شبع سوادهم بالصفرة ، وهم عراة وحفاة ورءوسهم عارية . وحاكم سنتاكولا تابع للملك بيثاكالا Bethacala . وقد غادرنا سنتاكولا ووصلنا الى أونور (٢٤) onor التى وصلناها بعد يومين من مغادرة المدينة السابقة ، وملك أونور الوثنى تابع للملك نارسينجا Narsinga ، وهو تابع

---

(٢٣) أميل الى أن سنتاكولا هى أنكولا Uncola (التى أسماها هاملتون أنكالا ، وأسماها بوشانان Buchanan أنكولا Ancola) وهى الموضع الرئيسى فى أحد أقسام ولاية (أو مقاطعة) كانارا الشمالية البريطانية ، وهى مدينة تبعد عن بحر العرب أو شمال المحيط الهندى ، بميلين (انظر : Thornton's Gazetteer) وقد استغرق فارتيما يوما لبصــل سنتاكولا من أنجديفا Angediva ، وتقع أنكولا على خط عرض ٤٠َ و ١٥° الى الجنوب من هذه الجزيرة بخمسة أميال جغرافية . وقد جعل بوشنان المسافة ثمانية كوسات Cosses من أنكولا الى سيداسيفاجور Sedasivghur ووصفها ــ أى أنكولا ــ بأن بها قلعة خربة وسوقا ، وسكانها قليلون « لأن السكان فى هذا المكان لا يتجمعون فى أعداد كبيرة ، وانما تجدهم منتشرين فى القرى والمزارع . وفى منتصف الطريق بين جوكرنا Gaukarna وأنكولا التى تبلغ ثلاث كوسات Cosses يقع جنجاوالى Gangawali وهو خليج صغير مالح الماء ... ومصبه تجاه البحر ضيق ، الا أنه يشكل بحيرة على الساحل يبلغ عرضها ما بين الميل ونصف الميل . ويمكن للقوارب ذوات الحجم الكبير (Patemars أن تتخطى المر الضيق (الحاجز) وتصعد فى النهر مسافة ثلاث كوسات Cosses ولا يستخدم النهر فى التجارة ، وتبدو شواطئه قاحلة رغم جمالها » (انظر : (Pinkerton, Vol. VIII, 362, 756-7 .

(٢٤) هى هوناهوار Honahwar أو الهينور كما أسماها ابن بطوطة أو هوناويرا Honawera كما أسماها بوشنان أو هونافر كما أسماها ولكز Honaver wilks وهى اونور Onore كما تعود الكتاب البريطانيون أن يطلقوا عليها ، وهى مدينة وميناء فى ولاية كانارا الشمالية البريطانية . (وتقع الى الجانب الشمالى للمصب الممتد أو عند الخليج الصغير الذى يستقبل عند طرفه الشمالى الشرقى نهر شيرافتى Sheravutty الهام الذى ينبع من الجبال الغربية Western ghats والبحيرة زاخرة بالأسماك التى يتم اصطيادها بكميات كبيرة للاتجار بها . وقد كان هذا الميناء فيما مضى مقرا لتجارة مزدهرة ولازالت تجارة الفلفل وجوز الهند والفوفل betel-nuts والأسماك ، وغير ذلك ، خاصة عطر خشب الصندل الذى ينمو بكثرة هائلة فى التلال الصخرية » .
(انظر : Thornton's Gazetteer) . =

مخلص ، ويمتلك سبع سفن أو ثماني لا تكف عن الابحار حول المنطقه ، وهو صديق كبير لملك البرتغال • أما عن ملابس أهل أونور فهم يسيرون عراة الا من أقمشة يلفونها حول خصورهم • ويوجد هنا أرز كثير ، كما هو مألوف في الهند ، كما يوجد بعض الحيوانات كالخنازير وأيائل (جمع : أيل) Stags والذئاب والأسود ، كما توجد أعداد كبيرة من الطيور التي تختلف عن طيورنا (عن الطيور الأوربية) ويوجد هنا أيضا كثير من الطواويس والببغاوات • وتتوفر هنا لحوم الأبقار والأغنام بكميات كبيرة •

أما الورود والزهور والفاكهة فهي موجودة هنا على مدار العام • والهواء هنا منعش والناس أطول أعمارا منا (من الأوربيين) وبالقرب من ولاية (مقاطعة) أونور هذه ، يوجد مكان آخر يسمى مانجولور (٢٥) Mangolor كان به أكثر من خمسين أو ستين سفينة محملة بالأرز ، والسكان في هذا المكان وثنيون ومسلمون •

أما عن أسلوب حياتهم وعاداتهم ولباسهم فهم لا يختلفون عن سكان أونور التي سبق أن تحدثنا عنها ، وقد غادرنا مانجولور ، وذهبنا الى مدينة أخرى هي كانولور Canonor •

= وقد وصف ابن بطوطه الذى زار هوناهوار Honahwar فى حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ملامحها على النحو نفسه ، ونجده أيضا يقول ان نساء هذا البلد وكذلك كل نساء الهند فى المناطق الواقعة على الساحل لا يلبسن ثيابا مخيطة ، فالواحده منهن على سبيل المثال تربط قطعة قماش حول خصرها ، وتضع الجزء الباقى على رأسها وصدرها • والملك الحالى هو جمال الدين محمد بن حسن ، وهو أحد أفضل الأمراء ، الا أنه تابع لملك كافر اسمه حوريب Horaib'' « (انظر : Lee's translation, pp. 165-6) وقد بنى البرتغاليون فى القرن السادس عشر قلعة قوية هنا ، طردهم منها الراجا فى كانارا Rajah of Canara • وقد وصف هملتون المعبد الوثنى فى هوناهوار ، ذلك المعبد الذى يزوره سنويا عدد كبير من الوثنيين • وعلى زمن ابن بطوطة كانت الغالبية العظمى من السكان مسلمين ، وكانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب ـ (بادجر) •

(٢٥) مدينة فى كانارا الجنوبية البريطانية تقع على الجانب الشمالى لمصب نهر فرعى ينبع من الشمال الشرقى ويلتقى فى مصب واحد مع نهر نترافتى Naitravutty الهام والذى لا تبحر فيه الا السفن الصغيره •• وهى مدينة كبيره يحيط بها من الشرق والغرب هذا النهران ، اللذان يكونان معا مصبا • ومساكنها بشكل عام متواضعة ولا توجد بها منشآت عامة تستحق الذكر • ورغم أن مانجولور تعد مرفأ سيئا الا أنها الميناء الرئيسى لمنطقة حيدر على Hyder Ali انظر : Thornton's Gazetteer وقد ذكر ان بطوطة الذى أسماها مانجرون Manjerun أنه « يوجد فى هذا المكان بعض أكبر تجار فارس واليمن •• وملك هذه الأنحاء هو أعظم ملوك الملابار ، وبها حوالى أربعة آلاف تاجر مسلم » (انظر : Lee translation, p. 169) وكذلك نجد هملتون Hamilton يصفها بأنها « أعظم الأسواق فى كل ممالك (امارات) كانارى Canary dominions'' (بادجر) •

كانونور

كانور (٢٦) مدينة كبيرة وجميلة ، يمتلك فيهاملك البرتغال قلعة حصينة جدا • وحاكم (ملك) هذه المدينة صديق كبير لملك البرتغال رغم أنه (أى ملك كانونور) وثنى (٢٧) • ويتم انزال الخيول المستوردة من

---

(٢٦) مدينة وميناء فى ولايه مالابار البريطانيه British district of Malabar وتقع على الشاطئ الشمالى لخليج صغير مفتوح من ناحية الجنوب ، ولكنه محمى من ناحية بحر العرب بواسطه جرف عال abluff headland •• وهى عامره بالسكان . الا أن مبانيها غير منتظمه . ومع هذا نفيها مساكن كبيره جيدة ، خاصه تلك العائده الى أسره موبلاى Mobali أو الأسره المسلمة مالكة المدينة •• وتمثل ميناء تجاريا هاما خاصة فى مجال الفلفل والغلال والأخشاب وجوز الهند » (انظر Thornton's Gazetteer)
ويذكر هملتون أن البرتغاليين بنوا الحصن سنة ١٥٠٧ الا أن الاستيلاء على الجزيره لم يتم على أية حال الا بعد هذا التاريخ • وقد طرد الهولنديون البرتغاليين منها فى حوالى سنه ١٦٦٠ وباعوها بالتالى لأسرة موبلاى • ثم أوقعت (أى الجزيرة) ى يد السلطان تبو Tippoo ثم استولى عليها الانجليز منه سنة ١٧٩١ بقيادة أبركرومبى Abercrombie
وذكر أسره موبلاى Moplahs فى الفقره السابقه يدفعنى الى استنتاج اشتقاق آخر للكلمة غير ما هو معروف • لقد افترض دنكان Duncan انها مشتقه من Mahapilla التى تعنى ابن المخا "Child of Mocha" » الواقعة فى شبه الجزيره العربيه التى قدمت منها هذه الأسرة لأنه فى لغة المالابار كلمه Maha تعنى مخا Mocha ، وكلمة بيلا Pilla تعنى ابن • (انظر : Thornton's Gazetteer, sub Voce Malabar)
الا أننى أميل الى أن هذا الاسم اما أن يكون محرفا للكلمة العربية « مفلح "Muflih" من الاصل العربى (ف ل ح) والتى تعنى الفالح أو المزدهر أو الناجح أو المنتصر ، وهو معنى يمكن أن ينطبق على هؤلاء الرجال المسلمين الاجانب فى الساحل الغربى للهند ، وقد تكون مشتقة من الأصل العربى نفسه (ف ل ح) بمعنى الفلاح أو الزارع ، وهذا ينطبق عليهم أيضا ، فهم وفقا لما ذكره بوشانان Buchanan نجار وفلاحون ـ(بادجر) •

(٢٧) ان ما حدث بعد ذلك سيبين أن فارتيما هنا قد استبق الأحداث فذكر ما حدث بالفعل بعد سنتين أو ثلاث من زيارته الأولى التى لابد أن تكون قد حدثت بين عامى ١٥٠٢ و ١٥٠٥ • فقد ظهر البرتغاليون للمرة الأولى عند كانونور بقيادة بدرو الفارز كابرال Pedro Alvarez Cabral فى ١٦ يناير سنة ١٥٠١ • وكانت التجريده البرتغالية التى قادها جوان دى نوفا Juan de Nueva فى نوفمبر من العام نفسه ، وفى كلتا الحالتين (الحملة الأولى والثانية) فان السكان استقبلوا الأجانب (البرتغاليين) بترحاب وعاملوهم أفضل معاملة ، بل ان الراجا Rajah نفسه عرض أن يؤمن لهم كميات كبيرة من المؤن ومنتجات المنطقة بدلا من أن تعود سفنهم فارغة الى أوروبا • وفى سنة ١٥٠٢ أسس فاسكو دى جاما Vassco de Gama محطة تجارية هناك ، وقدم له الراجا فى العام التالى منزلا ، ودخل مع البرتغاليين فى حلف هجومى ودفاعى ، الا أنه يبدو أن القلعة لم تكن موجودة حتى سنة ١٥٠٧ ، عندما قام دون فرانسسكو دى الميدا Don Francisco de Almeyda أول نائب للملك البرتغالى بالحصول على اذن ببنائها فى الميناء حيث ترك لورنزو دى برتو Lorenzo de Britto ومعه ١٥٠ رجلا ، وسفينتين للابحار (للقيام بدوريات) حول الساحل • (انظر : Green's Collection of Voyages, Vol. I, pp. 48-60.) (بادجر) •

بلاد فارس في ميناء كانونور ويجب أن تعرف أنه يتم دفع خمس وعشرين دوكات كرسم جمارك عن كل حصـان ، وبعد ذلك يتم ترحيلهـا برا الى نارسنجا Narsinga • وفى هذه المدينـة كثير من التجـار المسلمين • ولا تزرع الغلال والأعناب ، ولا غير ذلك من المزروعات التى ألفناها فى أوروبا ، فكل ما هو موجود هنا هو الخيار والبطيخ • ويقال ان الناس هنا لا يـأكلون الخبز ، وانمـا يأكلون السمك والأرز واللحم والجوز • وسأحدثكم عن دينهم وعاداتهم عند الحديث عن كلكتا ، لان دينهم وعاداتهم هى دين وعادات أهل كلكتا •

وتوجـد هنا بهارات ، كالفلفل والزنجبيل والهيل Cardamums والشب (؟) mirabolans (؟) وقليل من السنا (أو القرفة) Cassia وبوجه عام ، فكميات البهـارات قليلـة هنـا • وليس للمدينـة سور ، ومساكنها بائسة • وتوجد هنا فاكهة مختلفة عن فاكهتنا الأروبية وأعلى منها جودة • وسأقارن بينهما فى الوقت المناسب • وقد أعـدت المنطقة اعدادا جيدا لمواجهة ظروف الحرب ، فيوجد بها عدد كبير من الخنادق التى حفرها الناس بأنفسهم hollow places • ولدى ملك هذا البلد٠٠٠ر٥٠ من النيرى (٢٨) Naeri يحاربون بالسيوف والتروس والسهام والأقواس وبالمدافع artillery • وهم يسيرون حفاة وعراة الا من قطعة قماش يلفونها حول أنفسهم ولا يغطون رؤوسهم الا اذا ذهبوا للقتال فعند ذلك يضعون عمائم حمر ذوات لفتين ويعقدونها (أى العمائم) جميعا بطريقة واحدة • وهم لا يستخدمون هنا الخيول أو البغال أو الجمال أو الحمير • أما الفيلة فيستخدمونها أحيانـا لكن ليس فى القتال • وسأحـدثكم فى الوقت المناسب عن الجهود التى بذلها ملك كانونور ضـد البرتغاليين • والحركة التجارية نشطة هنا ، اذ يصل كل عام الى كانونور ثلاثمائة سفينة من مختلف بلاد العالم • لقد قضينا فى كانونور بضعة أيام ، ثم اتخذنا طريقنا الى مملكة نارسنجا Narsinga وقد ظللنا مسافرين خمسة عشر يوما فى اتجاه الشرق حتى وصلنا الى مدينة يقال لها بيسنجار Bisinegar

---

(٢٨) يذكر بوشنان : « النير Nairs هم من السدرا Sudras الخالصين ، من مالايالا Malayala ، ويدعون أنهم ولدوا جندا ٠٠ (خلقوا للقتال) ٠٠ وهم يشكلون الجهاز العسكرى للملايالا ، وبهجتهم الكبرى فى امتلاك الأسلحة واستخدامها » •

(انظر : Pinkerton's Voyage, VIII, 735-6.) (بادجر) •

بيسنجار ، وهي مدينة خصبة جدا
في مملكة نارسنجا بالهند

تتبع مدينة بيسنجار (٢٩) Bisinegar ملك نارسنجا ، وهي مدينة كبيرة ومحصنة بسور قوى . وتقع على جانب جبل ، ويبلغ محيطها ستة أميال ، ولها سور ثلاثي (أو ثلاثة أسوار متتالية ، سور وراء الآخر)

---

(٢٩) نارسنجا أو بيجايانا جار Narsinga or Bijayanagar أصبحت الآن مخربة (أعتقد أن الاسم الأخير هو الصحيح من الناحية الاملائية ومن ناحية ضبط الكلمة ، الا أن الكتاب المحدثين وكذلك القدماء نسبيا ، يختلفون اختلافا كبيرا فى طريقة كتابتها وضبطها) . وكانت نارسنجا فيما مضى عاصمة لمملكة برهما القديمة the ancient Brahminical Kingdom فى كارناتك Carnatic التى كانت قبل الفتح الاسلامى ليا تمتد امتدادا كبيرا بين المالابار والسواحل الكوروماندلية Coromandel Coasts وتقع بين الشاطىء الغربى لنهر تونجابورا Toongabura على خط عرض ١٩ ´ ١٥° وخط طول ٣٢ ´ ، ٧٦° . وقد زارها عبد الرزاق . وكذلك نيكولو دى كونتى Nicolo de Conti الذى زارها فى الفترة من ١٤٤٢ الى ١٤٤٥ ، كما وصفها بعد ذلك بحوالى خمس وعشرين سنة ، نكيتين Nikitin وروايات هؤلاء الرحالة جميعا والتى طبعت فى مجلد بعنوان India in the fifteenth Century والذى نشر ضمن منشورات Haklut Society ـ كلها (أى كل روايات الرحالة هؤلاء) تتضافر فى تأكيد ما ذكره فارتيما باختصار عن سعة وعظمة هذه المدينة التى كانت يوما عاصمة مشهورة ، وما ذكره عن فخامة بلاط مليكها . أما عن عدد الفيلة ، وقوتها وذكائها وجيش الراجا Rajah الكبير الذى قدره كونتى Conti بحوالى ٩٠٫٠٠٠ مقاتل داخل المدينة وحدها ـ لحقد كان أيضا مثار اهتمام خاص للرحالة الأول . وفى الفترة التى زار فيها فارتيما هذه البلاد ، كانت ادارة الشئون العامة فى يد هيمراج Heemraj وهو أحد المسئولين (الوزراء) الرئيسيين للدولة والذى أصبح الوصى على العرش عند موت الراجا سالف الذكر الذى ترك على العرش ابنه الصغير الذى سرعان ما مات ، فرتب هيمراج Heemraj الأمور ليحتفظ بالسلطة المطلقة لمدة أربعين عاما ، وقد خلفه فى منصبه ابنه رامراج Ramraj ، وخلال فترة حكمه تحطمت قوة دولة بيجايانا جار Bijayanagar على يد تحالف ملوك الدكن المسلمين الذين قادوا معركة تاليكوتى Talikote ضدها فى سنة ١٥٦٥ . وقد كتب فرشتا Ferishta قائلا : « انه منذ ذلك الوقت لم يستعد راجا raj بيجايانا جار (كتبها فرشتا : (Beejnuggar عظمته القديمة أبدا ، وخربت المدينة نفسها وهى الآن غير مأهولة بالمرة ، بينما حاصر الزمادرة (جمع زمندار) (Zamindar المنطقة ، وأصبح كل زمندار يدعى سلطة مستقلة فى منطقته (ولايته) » وبعد حلول هذه الكارثة (الهزيمة) انتقل البلاط الى بناكوندا Pennaconda التى تبعد الى الجنوب من بلارى Bellary بحوالى تسعين ميلا ، حيث (فى بناكوندا) بقايا هذه الدولة القوية Powerful dynasty لا تزال موجودة تبعث على التأمل العميق فى هذه العظمة الغابرة التى ظلت مستمرة حتى استولى أورنجزيب Aurungzib على هذه المنطقة فى سنة ١٦٨٥ . وكانت بيجايانا جار على أية حال ، لا تزال مدينة كبيرة عندما زارها قيصر فردريك Scott's Ferishta Fredericke فى سنة ١٥٦٧ . (انظر .Vol. I, pp. 262-268 وانظر أيضا : Wilk's historical sketches of the South of India, Calcutta, pp. 4-15). (بادجر) .

وهى عامرة بالبضـائع ، وأرضـها خصبة a triple circle of walls جدا ، وبها كل أنواع الأطعمة الشهية ٠ وموقعها أكثر المواقع جمالا ، ولم أشهد هواء أرق ولا أطيب من هوائها ، وبها مواضع معينة للقنص وصيد الطيور وهى مواضع فى غاية من الجمال حتى انها ـ لفرط جمالها ـ ظهرت لى وكأنهـا فردوس ثان ٠ وملك هذه البلاد وثنى وكذلك كل رعاياه ٠ وهو ملك فى غاية القوة ويحتفظ بشكل دائم بأربعين ألف فارس ٠

ويجب أن تعرف أن الحصان الواحد يساوى على الأقل ٣٠٠ أو ٤٠٠ أو ٥٠٠ بارادى Paradi وبعض الخيول يتم شراء الواحد منها بمبلغ ٨٠٠ بارادى ، ويرجع ارتفاع ثمن الخيول الى أنها لا تستولد هنا ولا توجد أفراس هنا بأعداد كبيرة ، لأن الملوك الذين يسيطرون على الموانىء لا يسمحون بجلبها الى هناك (الى هذه البلاد) ويمتلك ملك بيسنجار ٤٠٠ فيل وبعض الجمال العربية التى تعدو بخفة كبيرة ٠ ولقد أتيح لى هنا أن أعاين بنفسى موضوعا جديرا بالاعتبار وهو ذكاء الفيلة وادراكها وقوتها ٠ سأذكر لكم أولا كيف يقاتل الفيل ٠ عندما يذهب الفيل للمعركة يضعون عليه سرجا ، على النحو نفسه الذى يضع أهـل مملكة نابولى Naples السروج على بغالهم ، ويثبت أهل بيسنجار هذه السروج على الفيـلة بسلسلتين من الحديد تحت السروج مباشرة ٠ وعلى كل جانب من جوانب السروج يوضع على الفيل صندوق خشبى كبير ومتين جدا ، يكمن فى كل صندوق من هذين الصندوقين ثلاثة مقاتلين ٠ وعلى رقبـة الفيل ـ بين الصندوقين ـ يضعون لوحا خشبيا عرضه نصف شبر Span ، وبين الصندوقين واللوح الخشبى يجلس رجـل مفتوح الساقين (واضعا ساقا على كل جانب من جوانب الفيل astride) ، ويتحدث (أى الرجل) الى الفيل ، لأنـه ـ أى الفيـل ـ أكثر ذكاء من أى حيوان آخـر فى العالم ، وكل الرجال السبعة فوق الفيـل مسلحون بالأقواس والرمـاح والسيوف والدروع ، ويرتدون قمصانا مدرعة ٠ وهم يسلحون الفيل أيضـا خاصـة رأسه وخرطومه ، فينبتون فى خرطومه سيفا يبلغ طوله براكيان two braccia كمـا تبلـغ سـماكته وعرضـه ، سـماكة يد الرجـل وعرضهـا ٠ وبهذه الطريقـة يحاربون ، ثم يشرع الرجـل (المقـاتل) الجالس على رقبة الفيل فى اصدار الأوامر له (للفيل) : للأمام سر ، خلفا در ، اضرب هذا ، كفى لا تضرب ، والفيل فى كل هذه الأحوال يفهم الأوامر كما لو كان انسانا ٠ الا أنهم اذا ما شرعوا فى القتال ، فمن غير الممكن ايقافه لأن هؤلاء الناس بارعون جدا فى القذائف النارية fireworks ، كما أن الفيلة ترهب النار جدا ، الا أن هذه الحيوانات (الفيلة) ـ على أية حال ـ هى أكثر الحيوانات ذكاء وادراكا ، وأقواها ٠ وقد رأيت ثلاثة فيلة تسحب سفينة من البحر الى البر ، بالطريقة التى سأذكرها لك ٠ عندما

كنت فى كانونور ، سحب بعض التجار المسلمين سفينة الى البر ، بنفس الطريقة التى يسحب بها المسيحيون سفنهم فهم (المسيحيون) يسحبون مقدم السفينة (القيدوم) أولا ٠

أما هنا فيضعون جانب السفينة أولا ، ويضعون تحتها ثلاث قطع خشبية ومن ناحية جانب السفينة المواجه للبحر ، رأيت ثلاثة أفيال تطأطىء رؤوسها وتدفع السفينة برؤوسها الى البر ٠ ويقول كثيرون انه ليس للفيلة مفاصل (ركب) وحقيقة الأمر أن لها مفاصل لكنها منخفضة وليست مرتفعة كركب (مفاصل) الحيوانات الأخرى ٠ وسوف أزيدك عن الفيلة حديثا ، فاناثها أقوى من ذكورها وأكثر اعتزازا بالنفس ، وبعض اناث الفيلة مصاب بالجنون ٠ والأفيال التى ذكرتها لكم يبلغ حجم الواحد منها حجم ثلاث جواميس،وجلودها كجلد الجاموس ، وعيونها كعيون الخنازير، ويصل خرطوم الواحد منها الى الأرض ، وبخراطيمها تلك تضع الطعام والماء فى أفواهها ، ففم الفيل تحت حنجرته Situated beneath their throat (؟) ، وهو (أى فم الفيل) فى الغالب يشبه فم الخنزير أو سمك الحفش a sturgeon ٠ وخراطيم الفيلة مجوفة من الداخل وقد رأيتها مرات عدة تلتقط بخراطيمها الكاترينو Quattrino من الأرض ٠ وقد رأيتها تسحب بخراطيمها فروع الأشجار التى لا يستطيع أربعة وعشرون رجلا من رجالنا (الأوربيين) اسقاط الواحد منها وسحبه بحبل ، بينما يسقطه الفيل ويسحبه بمجرد ثلاث هزات (دفعات) ٠ وتوجد السنتان التى يمكن رؤيتهما فى الفك العلوى للفيل ٠ وتبلغ طول الواحدة من أذنى الفيل حوالى اثنين من الباليات two Palmi ، واحيانا أطول من ذلك ، وأحيانا أقصر ٠ أما سيقانها فهى أضخم عند الطرف السفلى منها عند الطرف العلوى ٠ وقدم الفيل مستديرة كالصينية التى تقطع عليها اللحم ، وحول قدمه خمسة أظافر ، الواحد منها فى حجم قوقعة المحار ٠ وذيله فى طول ذيل الجاموسة ، أى حوالى ثلاثة باليات Palmi وعليه قليل من الشعر المتناثر ٠ وأنثى الفيل أصغر حجما من الذكر ٠ أما فيما يتعلق بارتفاع الفيل فقد رأيت كثيرا منها يبلغ ارتفاع الواحد منها ثلاثة عشر أو أربعة عشر بالمى ٠ وقد ركبت فوق بعض الفيلة التى تبلغ هذا الارتفاع ٠ ويقال ان هناك بعضا من الفيلة يبلغ ارتفاع الواحد منها خمسة عشر بالمى Palmi والفيلة تسير سيرا بطيئا جدا ولا يستطيع ركوبها من لم يعتد عليها ٠ لأن ركوبها يربك الأمعاء على نحو ما يحدث للانسان عند السفر بحرا because it upsets their stomach, Just as it does in travelling by sea ٠ وللفيل الصغير خطوة تشبه خطوة البغل ، وركوبه ممتع٠وعندما يشرع الانسان فى ركوب الفيل يثنى احدى ساقيه الخلفيتين، وفوقها يصعد الى ظهره من يريد الركوب ، ويجب أن تساعد نفسك

أو يساعدك آخرون على ركوبه · ويجب أن تعلم أنه لا يوضع للفيل لجام . ولا يربط بمقود (رسن) ولا يربط رأسه بأى شيء ·

تناسل الفيلة

وعندما يريد الفيل الاتصال بأنثاه فانه ينتحى بها فى مكان سرى ، كأن يذهب بها الى مياه مستنقعات معينة (٣٠) ثم يضاجعها كما يضاجع الانسان أنثاه وفى بعض المناطق ، تعد أجزاء الفيل ، هى أفضل طعام يمكن أن يقدم كهدية للملك ، لأن الفيل يساوى فى بعض المناطق خمسين دوكات ، ويساوى فى مناطق أخرى ألف دوكات أو ألفين · وأخيرا ، أقول اننى رأيت بعض الفيلة لها من الذكاء والفطنة والفهم ، أكثر من أى بشر قابلتهم · وملك نارسنجا Narsinga أغنى ملك تحدث الناس عنه · وموقع المدينة يشبه موقع ميلان الا أنها ليست فى سهل من الأرض · ويتخذ الملك مقره هنا ، وملكه يمتد ليشمل مساحة تساوى مساحة مناطق نابلى والبندقية ، ويحد البحر مملكته من الجانبين · ويقول البرهميون التابعون لمملكته his Brahmins (وهم رجال الدين فى مملكته) ان عائده اليومى ١٢٫٠٠٠ باراداى Paradai · وهو فى حرب دائمة مع الملوك المسلمين والوثنيين · وهو وثنى يعبد الشيطان كما هو الحال فى كلكتا ·

وسأحدثكم عن كيفية عبادتهم للشيطان عندما يحين الوقت المناسب· وهم يعيشون عيشة الوثنيين · أما عن لباسهم ، فالرجال ذوو الوضعية الاجتماعية العالية يلبسون قمصانا قصارا ، ويضعون على رؤوسهم أقمشة حريرية موشاة بالذهب على النمط الاسلامى ، الا أنهم حفاة ، أما الناس العاديون فيسير الواحد منهم عاريا الا من قطعة قماش حول خصره · ويضع الملك على رأسه تاجا من ذهب يبلغ طوله (ارتفاعه) شبرين وعندما يذهب للحرب يلبس ثوبا محشوا بالقطن (كاللحاف) وفوق هذا الثوب يلبس ثوبا آخر (عباءة) مملوءا (محشوا) بالبيزووات (القروش) الذهبية Golden piasters ويحيط كل ملابسه بالمجوهرات من مختلف الأنواع · وحصان الملك أغلى ثمنا من بعض مدننا نظرا لما عليه من زينة ومجوهرات · وعندما يركب الملك حصانه بغية النزهة فانه يكون مصحوبا بثلاثة ملوك تابعين له أو أربعة ، وكثيرين من النبلاء وخمسة آلاف حصان· لذا يمكن اعتباره حاكما قويا جدا · أما العملة السائدة فى مملكته فهى البارداو Pardao ، ولديه عملة فضية أيضا هى التار Tare بالاضافة لعملات ذهبية صغيرة هى الفانوم fanom ، والعشرون فانوم تساوى

---

(٣٠) ذكر الملاحظة نفسها تربن Turpin p. 614

بارداو واحدا ، كما أن ستين تار تساوى بارداو واحدا • وتوجد عملة أخرى هى الكاس Cas ، ستون منها تساوى تارا فضيا واحدا (٣١) ويمكنك أن

عبد الرزاق (١٤٤٣م) عملات ذهبية	فارتيما (١٥٠٤ ــ ١٥٠٥ م) عملات ذهبية
فاراها Varaha = ٢ ينار ، كوبيكى Kopeki	. . . .
برتاب Pertab = $\frac{1}{2}$ فاراها	بارداو . . . .
فانوم = ١/١٠ البرتاب (فضة خالصة)	فانوم = $\frac{1}{20}$ بارداو (فضة)
تار = ١/٦ فانوم (نحاس)	تار = ١/١٥ من الفانوم (نحاس)
جيتل Djitel = $\frac{1}{3}$ تار	الكاس = $\frac{1}{60}$ من التار الفضى (وهو يساوى الكاترينو البندقى Quattrino

(٣١) فيما يلى مقارنة بين العملة الهندية Hindu Coins السائدة فى بيجاياناجار = وقيمتها النسبية كما ذكرها عبد الرزاق وفارتيما •

والفاراها Varaha ونصف الفاراها كان يسميها الكتاب المسلمون بعد ذلك باسم الهن Hun . أما الأوربيون فأسموها باجودا Pagoda وهذا الاسم الأخير اشتقه البرتغاليون من المعبد الهرمى المرسوم على أحد وجهى العملة • أما عبد الرزاق فقد ذكر الفاراها varaha وبرتاب Pertab باعتبارهما الباجودا Pagoda والباجودين Single & double pagoda بعد ذلك بفترة من الزمن (أى الباجودا والباجودين) • ولم يذكر فارتيما أى شىء عن الفاراها ، الا أنه نظرا لأنه ــ أى فارتيما ــ قد جعل البارداو Padao يساوى عشرين فانوم ، بينما كان عبد الرازق قد جعله يساوى عشرة فانومات فقط ــ لذا فمن المحتمل أن يكون البارداو الذى ذكره (أى فارتيما) مساويا للفاراها Varaha أو ضعف الباجودا • وهنا يبدو أن العملات الذهبية فى دولة بيجاياناجار Bipayanagar لم يدخل عليها تغيير مادى فى غضون نصف القرن الذى يمثل الفارق الزمنى بين رحلتى الرحالتين •

أما العملة الفضية فلابد أنها كانت تتداول بكثرة لأنه بينما وجدنا عبد الرزاق يجعل الفانوم مساويا لستة تارات Tars فقط ، فان فارتيما يجعله مساويا لخمسة عشر تارا • وربما كان التار الذى ذكره فارتيما من معدن أدنى قيمة من معدن التار الذى ذكره عبد الرزاق خاصة وأنه أى عبد الرزاق قد ذكر أنه من الفضة الخالصة •

وثمة تباين كبير بين الرحالتين فيما يتعلق بالنقود النحاسية ، ويكفى حقيقة أن أشير الى الاستدلال الذى مؤداه أن الجيتل Djitel والكاسا Casa عملتان مختلفتان ، ولأننى لست خبيرا فى علم النميات ، لذا فانه يتحتم على أن أترك الاختصاصيين لحل هذا التناقض • ولقد قدم برينسب prinsep مساعدة هزيلة فيما يتعلق بالعملات الهندية القديمة فى منطقة كارناتك Carnatic

ومن الجدير بالذكر أن عبد الرزاق وفارتيما لم يذكرا الكوارى Cohrie كجزء مهم لنظام العملة • وقد ذكره ابن بطوطة باسمه العربى : الودع وذكر أنه يجمع من جزر المالديف ، ويرسل بكميات كبيرة الى البنغال حيث يستخدم فيها (فى البنغال) أيضا كبديل للنقود • (انظر : Lee's tran lation, p. 178)

اما حديث نيكولو دى كونتى Nicolo de Conti عن العملة الهندية فى أيامه فهو =

تذهب الى أى مكان فى هذه المملكة بأمان ، الا أنه من الضرورى أن تحترس من بعض الأسود فى الطريق ٠

ولن أتحدث عن طعام هؤلاء الناس الآن ، لأننى سأصفه عندما أصل الى كلكتا حيث تشيع نفس العادات ونفس أسلوب الحياة ٠ وملك هذه البلاد صديق كبير للمسيحيين ، خاصة ملك البرتغال فهو لا يعرف كثيرا عن مسيحيين آخرين وعندما يصل البرتغاليون لبلاده يستقبلونهم بترحاب ٠ وبعد أن مكثنا فى هذه المدينة العظيمة ثلاثة أيام عدنا الى كانونور ، وبعد أن وصلنا اليها بعد ثلاثة أيام ذهبنا برا الى مدينة تورما باتانى Torma-Patani .

تورما باتانى وباندارانى وكابوجاتو

تبعد تورما باتانى (٣٢) Tormapatani عن كانونور ، اثنى عشر ميلا ، وحاكمها وثنى ، وأرضها ليست خصبة جدا وتبعد عن البحر ميلا واحدا ، وبها نهر ليس ضخما جدا ٠ ويوجد هنا سفن كثيرة للتجار المسلمين ٠ ويعيش الناس هنا عيشة بائسة وأعظم ثروات هذه المنطقة تتمثل فى جوز الهند Indian nuts التى يأكلونها مع قليل من الأرز ٠ وتتوفر هنا بكثرة أخشاب لبناء السفن ٠ ويوجد هنا حوالى ١٥٫٠٠٠ مسلم وهم رعايا لسلطان وثنى ٠ ولن أتحدث الآن عن أسلوب حياتهم ، فسأتناوله عند الحديث عن كلكتا ، لان الناس هنا لهم عقائد أهل كلكتا وأسلوب

= حديث هام وغير كاف ٠ فهو يقول : « فى بعض مناطق الهند كان الدوكات البندقى متداولا فيما مضى ٠ وكانت العملة الذهبيه التى تزن ضعف الفلورين Florin والتى تزن أقل من الفلورين سائده فى بعض المناطق ٠ وتوجد بالاضافة لهذا النقود الفضية والنحاسية ٠ وفى بعض المناطق تستخدم قطع الذهب ذات الوزن المحدد ، كنقود » (انظر : (India in the 15th Century, II, p. 30.

(٣٢) تورماباتانى . هى بدون شك التى أسماها هملتون دورماباتام Dormapatam وهى ميناء بالقرب من نهر تليشرى Tellicherry التى تقع الى الشمال قليلا من تورماباتانى وهى ما افترض أن فارتيما يشير اليها (دورماباتام) ، وقد أسماها باربوسا Barbosa « ترماباتانى "Termapatani" وذكر أنها تقع على نهر له مصبان على البحر ، ويسكنها بشكل أساسى الموبلاى Mupulars (Moplahs) وهم تجار كبار ، وهى حد مملكة كانونور من ناحية كلكتا (فى اتجاه كلكتا) (انظر (Rumusio, Vol. I, p. 335 « والمناطق المجاورة لها ذات انتاج وفير ، والأراضى المنخفضة تنتج محصولين من الأرز سنويا . وفى بعض المناطق ثلاثة محاصيل ٠ كما تنمو نخيل جوز الهند بوفرة ٠٠٠ ويقدر عدد السكان بعشرين ألف ، غالبهم من الموبلاه المسلمين (انظر (Thornton's Gazetteer وأميل الى أن جرافاتان Jara-fattan او بارافتان Badafattan هما بين هيلى Hili وكلكتا من ناحية ودورميبتان من ناحية أخرى ، أو كما كتبها بالدوس Baldaeus ، ترماباتان termapatan ٠ اما هيلى Hili فأميل الى انها أولالا Ulala التى وصفها بوشانان Buchanan بانها مدينة كبيرة على الجانب الجنوبى لبحيرة مانجالور Mangalore والتى كانت فيما مضى مقرا (عاصمة) لأمير صغير » ٠

(انظر : (Pinkerton's Voyage, Vol VIII, p. 747.

حياتهم . والمساكن هنا غير جيدة ، اذ يساوى الواحد منها نصف دوكات كما سأوضح لك فيما بعد . وقد مكثنا هنا يومين ثم غادرنا . وذهبنا الى موضع يقال له باندارانى (٣٣) Pandarani يبعد يوما عن تورما باتانى،

---

(٣٣) باندارانى Pandarani وكذلك كابوجاتو Capogatto التى سيرد ذكرها فى المتن بعد ذلك ، قد اختفتا من الخرائط المعاصرة ، واذا لم يكونا هما : واداكار Waddakarre وتيكودى Tikodi ، فان البحث عنهما يجب أن يكون بقرب هذين الموضعين ، اللذين وجدت الرحالة القدماء قد كتبوهما بطرق مختلفة . فقد كتبهما هملتون Burgara و ,Cottica ، وعن هذه الأخيرة كوتيكا كتب أنهـا « صخره الاضـاحى Sacrifice Rock التى تمتد ثمانية أميال فى البحر » وهى ـ بلا شك ما قال عنها فارتيما "insula deshabitita" اما دنفل D'Anville فقد كتب عن Bergare و ,Cotta وقد كتب بوشنان Buchnan الأولى ، هكذا Barrygurry أو Vadacurry أما أروسمث Arrow Smith فقد كتب Cotta هكذا Kotacull ، ولا نهـاية لهذا الاختلاف المربك . الا أن المكانين ـ على أية حال قد ذكرهما بوضوح بالدبوس Baldaeus عند حديثه عن الوجود البرتغالى الأول فى ساحل المالابار . « بين كانونور و كلكتا تقع مدينه بانان Panane على الساحل ... وكان السمورين Sammoryn قد اتخذ هذا المكان مقرا لاقامته عندما وصل فاسكو دى جاما الى هذه الانحاء ... وقد أرسل السمورين بعض المرشدين ليدل الأسطول البرتغالى الى ميناء كابوجيت Capogate حيث يوجد مرفأ أفضل وأكثر أمنا (انظر (Churchill's Collection of Voyages, Vol. III, p. 625

وثمة نص آخر عن هذه الزيارة التى تمت سنة ١٤٩٨ تذكر أن دى جاما وصل الى البر عند باداران Padarane وانه واصل ابحاره بعد ذلك الى Kapokats حيث استراح بحارته . (انظر : (Green's Collection, Vol. I, pp. 30-31

وهذا الموضع (باندارانى Pandarani أو بانان (Panane يجب الا نخلطه بموضع اخر ذكره فارتيما وهو بانان Panani ، الى الجنوب من كلكتا ، وهو نفس الموضع الذى كتبه ثورنتون « بونانى ponany » .

وقد ذكر باربوسا Barbosa أيضا بانديرانى Panderani الواقعة بين كانانور وكلكتا وقال ان سكانها مسلمون ، وانها مرفأ كبير للسفن ، الا أنه جعل موقعها الى الجنوب من كابوجاتو Capogatto . بينما تحدث فارتيما عن باندارانى الواقعة الى الشمال من كابوجاتو . واعتقد أن هـــذا التناقض الظاهرى يرجع الى التماثل فى اسمى الموضعين (موضعين باسم واحد) فكابوجاتو التى وصفها بربوسا ذكر أنها تقع على بعد اثنى عشر ميلا على نهر تارماباتان Tarmapatam . بينما كابوجاتو التى يتحدث عنها فارتيما يذكر أنها ميناء ولا تبعد عن كلكتا بأكثر من أربعة فراسخ . وهنا لا أجد صعوبة فى التعرف عليها من خلال حديث باربوسا عن كابوكار Capucar التى تقع كما ذكر هو الى الجنوب من كلكتا بأربعة فراسخ . وقد ذكر عنها : « خلف باندارانى يوجد موضع آخر على نهر يسمى كابوكار . يسكنه (أى الموضع) مسلمون كثيرون وهم من أهل البلاد ، وبه كثير من السفن . والمسلمون هنا يتاجرون فى بضائع المنطقة تجارة هائلة ... والى الخلف من هذا الموضع بستة أميال توجد كلكتا » (انظر (Ramusio, Vol. I, p. 311

ونجد فى رواية باربوسا عن هذا الجزء من الساحل كما ذكره راموسيو Ramusio عدة ثغرات ترجع بوضوح الى خلل فى المخطوطة الأصلية . وفيما يلى قائمته بالمواضع والبلدان ـ على التوالى ـ بين كانانور وكلكتا : كانانور ، كريكات Crecate ... تارماباتام ، تركودى Tircori ، بانديرانى ، كابوكار ، كلكتا .

=

وهى تابعة لملك كلكتا • وهى مكان بائس ولا مياه له ، وفى مواجهة باندارانى على بعد ثلاثة فراسخ فى البحر ، توجد جزيرة غير مأهولة • وأسلوب حياة أهل باندارانى وعاداتهم هى نفسها الموجودة فى كلكتا • وهذه المدينة (باندارانى) غير مستوية وأرضها مرتفعة • وقد غادرناها وذهبنا الى موضع آخر يسمى كابوجاتو Copogarto تابع أيضا لملك كلكتا • وفى كابوجاتو قصر رائع ، مبنى على الطراز القديم ويوجد الى الجنوب نهر صغير ، وتبعد هذه المدينة عن كلكتا بأربعة فراسخ • وليس لدى ما أقوله هنا فأحوال الناس وعاداتهم تشبه ما هو موجود فى كلكتا ، كما لن أكتب عن أسلوب الحياة والعادات والعقائد والقضاء واللباس ، ولا عن شيافول Chiavul ودابول Dabul وباثاكالا Bathacala ولا عن ملك أونور Onor ولا منجالور Mangalor ، ولا كانونور ، ولا عن ملك كوشن Cucin ولا عن ملك كيكولون Caicolone ولا عن ملك كولون Colon ، ولا عن ملك نارسنجا Narsinga

أما الآن فسأحدثكم عن ملك كلكتا لأنه أهم من كل الملوك المذكورين آنفا ويسمى ساموری (٣٤) Samory وهى كلمة تعنى فى لغة الوثنيين « الاله على الأرض "God on earth" » •

= ورغم أن وصف فارتيما مختلف اختلافا كبيرا ، الا أننى أميل الى أن باندرانى التى ذكرها هى فاندارينا Fandaraina التى ذكرها ابن بطوطة والتى حط رجاله فيها قبل أن يصل الى كلكتا من الشمال » •

(انظر : Lee's translation, p. 171)

(٣٤) الكلمة الانجليزية Zamorin • وفقا لما يقوله البعض ، تحريف لكلمة Tamuri التى تطلق على أكثر أسرات طبقة النير Nair Caste أهمية • يقول بوشانان : « يدعى التامورى أنهم من طبقة أرقى من البرهما Brahmans وانهم لا يقلون عن أحد أبدا الا الآلهة التى لا يراها أحد ، ويقر أتباعهم ذلك ، الا أن البرهما يعتبرونه ادعاء سخيفا ومقيتا ، ولا ينظرون اليهم الا على أنهم سدرا Sudra (انظر : (Pinkerton's Voyage, Vol. VIII, p. 835) وهناك آخرون يجعلون هذا الاسم مشتقا من Zamoodin التى تعنى البحر ، أى أن 'Zamorin of Calicut' تعنى « سادة البحر the lord of the Sea) (بادجر) •

السفر السادس

وهو السفر الثانى عن الهنـد

بعد أن وصلت بالقارىء ـ تقريبا ـ الى رأس الهند ، كما يقـال ، وهو الموضع الذى تتجلى فيه أقصى درجات عظمة الهند ، ظهر لى من الملائم أن أبدأ كتابا ثانيا لأطرح أمام القراء بفئاتهم المختلفـة أمـورا فى غاية الأهمية ، كما أنها أمور ممتعة ذهنيا ، بالاضافة الى أنها تشـكل حافزا يزيد من شغفنا بالرحلة حول العـالم ، ويزيد من معارفنـا التى تخدم أهدافنا ، تاركين كل شيء ـ على أية حال · لحكم الرجال الذين ربما زاروا بلدانا أكثر من تلك التى زرتها ·

***

كلكتا ، المدينة الهندية الواسعة جدا

كلكتا (١) مدينة على الساحل ، يضرب البحـر بأمواجه حوائط منازلها ، وليس لها ميناء ، وانما يوجد الى الجنوب بحوالى ميل ، نهر ضيق عنـد مصـبه ، لا يزيد ارتفاع الماء فيه عن خمسة أشبار أو ستة · وهذا النهر يمر خلال كلكتا وله فروع كثيرة · وليس لكلكتا سـور ، وتمتـد مساكنها نحو ميل ، وهى مساكن متلاصقة ، ثم تأتى المنازل الواسـعة ، وهذه متباعد بعضها عن بعضها الآخر (٢) ، وتغطى مساحة تبلغ حوالى

---

(١) كلكتا ميناء فى ولاية مالابار البريطانية The British district of Malabar « وتقع على ساحل مكشوف حيث لا نهر ولا مرفأ ، وانما ترسو السفن فى عرض البحر » فى البحر المكشوف open beach ··· ويقال ان المرفأ كان رحبا واسعا يوما ما الا ان الرمال تراكمت فيه ··· وقد تحدث فوربز Forbes الذى زاره سنة ١٧٧٢ باعتباره مرفأ ليس به الا قليل مما يثير الرحالة ، فليس فيه الا عدد من الأكواخ المنخفضة المسقوفة بأخشاب اشجار جوز الهند Cocoa nuts على الساحل الرملى » (Thornton's Gazetteer) وقد وصف ابن بطوطة كلكتا باعتبارها احدى أعظم الموانىء فى منطقة مالابار » وقد وصفها نيكولو دى كونتى Nicolo de Conti « كمدينة بحرية ، محيطها ثمانية أميال ، وهى سوق كبير ، لكل الهند » كما وصفها عبد الرزاق باعتبارها « ميناء آمنا تماما يشبه ميناء هرمز ، يرده تجار من كل المدن ومن كل البلاد » ·

(٢) يطلق الانجليز الهنود Anglo-indians على هذه المنـازل ذات الباحات المكشوفة حولها اسم : houses with Compounds ·

ستة أميال . والمساكن هنا بائسة جدا ، وجدرانها فى ارتفاع رجل يركب حصانا ، وغالبها غطيت سقوفه بأوراق النباتات وليس لهذه المنازل غرف علوية ، والسبب فى ذلك أنهم عندما يحفرون فى الأرض الى عمق أربعة أشبار أو خمسة يجدون ماء ، لذلك لايستطيعون بناء منازل ضخمة (٣). وعلى أية حال فان منزل التاجر يساوى خمسة عشر دوكات أو دوكاتين فى أقصى تقدير .

ملك كلكتا ، ودين شعبها

ملك كالكنا وثنى Pagan ، وعبادة الشيطان worships the devil هى السائدة على النحو الذى سنذكره لك . فهم يعرفون أن هناك الها هو الذى خلق السماء والأرض وكل العالم (٤) وهم يقولون ان الله اذا أراد أن يقضى عليك أو على هذا أو ذاك ، فانه لا يسعده كاله ـ فى هذه الحالة ـ أن يفعل ذلك ، لذا فهو يرسل روحه التى هى الشيطان الى العالم لتحقيق قضائه ، وبالنسبة له (الله) فان من يفعل خيرا ، يجازيه الله بالخير ، ومن يفعل شرا يجازيه بالشر . ويسمون الشيطان ديمو Deumo (٥) أما الاله (الله) فيسمونه تاميرانى Tamerani (٦) . ويحتفظ ملك كلكتا بالشيطان ديمو فى معبده his chapel بقصره ، على هذا النحو : يبلغ عرض معبده خطوتين

---

(٣) ذكر فارتيما فى فصل لاحق ، السبب نفسه لتعليل انخفاض قصر زامورين (فى كلكتا Zamorin وعدم فخامته .

(٤) « انهم جميعا يعتقدون فى وجود اله أعظم a great God الا أنهم لم يستطيعوا تصور هيئته ، كما أنهم لم يصنعوا له تمثالا » هاملتون .

(٥) « الكلمة Dev تعنى ـ بشكل غير واضح ـ موجودا (أو ساكنا dweller) فى العوالم العلوية upper Worlds ، كما تعنى ـ بشكل أكثر تخصيصا ـ أحد ساكنى السويرجا Swerga ، وهي الفردوس التى تحكم منها الهند . وتتحدث الكتب المقدسة الهندوسية عن مائة وثلاثين مليونا من ال Devs ، لكنها ـ اى هذه الكتب عندما تتحدث عن الله (أو الرب God) فانها لا تقصد الا موجودا واحدا فقط
the term can only apply to one being
(انظر : Forbes's Ras Mala, Vol. II, pp. 423-442.)

وقد فرق فارتيما بين مصطلحى (الديافولو Diavolo) و (الشياطين Sathanas) فقد جعل الشياطين شخصيات علوية héigher personage بشكل واضح . الا انه مما يدعو للدهشة أن فارتيما قد قدم لنا ـ مع شىء من التجاوز ـ معلومات صحيحة عن أصل الآلهة وتعدادهم وعبادتهم عند الهندوس .

(٦) تامارين Tambaran التى تعنى السيد أو الزعيم ، هى كلمة شائعة كلقب من القاب السيادة والتشريف فى المالابار ـ بين أفراد الطبقات العليا لجماعة النير Nairs .

فى جهاته الأربع ، ويبلغ ارتفاعه ثلاث خطوات ، ولهذا المعبد باب خشبى مغطى بصور الشياطين المنقوشة بالحفر البارز (٧) Cavved in relief
وفى وســـط هذا المعبد يوجـــد شـــيطان منحوت مـــن المعـــدن جالس على مقعد مصنوع من المعـــدن كذلك • ولهـــذا الشيطان تـــاج مصنوع على شاكلة تاج المملكة البابويه The Papal Kingdom ولهـــذا الشـــيطان ثلاثة تيجان ، وله أيضا أربعة قرون وأربعة أسنان ، وفم واسع جدا وأنف ضخم ، وعينان مرعبتان للغاية • أما اليدان فمصنوعتان بطريقة تجعلهما ســـبيهتين بخطاف اللحم flesh-hook اما قدمـــاه فشـــبيهتان قـــدمى (أصابع) الديك ، لذا فمنظره مرعب وكل الصور حول هذا المعبد سالف الذكر تمثل شياطين Devils وعلى كل جانب من جوانبـــه توجد الشياطين Sathanas وقد جلست على مقاعد وضعت فى لهب النـــار ، حيث توجد أعداد كبيرة من الارواح ، وقد صور لهب النار فى طول الأصبع ونصف الأصبع • ويقبض الشيطان سالف الذكر على احدى الأرواح فى فمه بيده اليمنى ، وعلى روح أخرى بيده اليسرى تحت خصره • وفى كل صـــــــباح يقـــوم البرهميون Brahmins وهم بمثـــابة الكهنـــة (أو رجال الدين) بغسل هذا الصنم (الشيطان) من مختلف جوانبـــه بالماء المعطر ثم يسكبون عليه العطر الخالص ثم يتعبدون له (يصلون له worship it) وفى بعض الأحيـــان يقدمـــون له خـــلال الاســـبوع أضحية ، بالطريقة التالية : ان لديهم منضدة صغيرة خاصة ، صنعوها وزخرفوهـــا على شـــاكلة مذبح الكنيسة altar ، يبلغ ارتفاعهـــا عن الأرض ثلاثة أشبار ويبلغ عرضها أربعة أشبار ، ويبلغ طولهـــا خمســـة أشبار ، وهى مزخرفة بالزهور والورود وغير ذلك من الزخارف ، بطريقة جيدة تماما • وفوق هذه المنضدة يضعون دم الديك والفحم المشتعل فى آنية من الفضة ويصبون فوقهما (دم الديك والفحم المشتعل) كثيرا من العطور (والبخور) • ولديهم أيضـــا مبخرة ينشرون البخور بواسطتها حول المذبح (المنضدة) آنف الذكر • ولديهم جرس صغير من الفضـــة يقرع بشكل سريع التتابع ، ولديهـــم سكين فضية يذبحون بهـــا الديك

---

(٧) يعنى رجال الدين الكبار المعابد ، الا أنها ليست ضخمة ولا جميلة وكل صورها سوداء وبشعة وفقا لتخيلهم للآلهة الشيطانيه the infernal gods التى يعتقدون أن لها بعض السلطة فى حكم العالم ، خاصة فى المواسم المعتدلة والمواسم المؤذية مما يؤثر فى مواسم الحصاد ، أو القحط والجفاف ، لذا فهم فى كل موسم من هذه المواسم يوجهون بعباده خاصة لها (أى لهذه الآلهة الشيطانية) •

(انظر : Pinkerton's Voyages, Vol. VIII. p. 376.)

وتدل عبارات Hamilton على أنه ــ مثل فارثيما ــ قد فهم مصطلح devs كمرادف لمصطلح Devils .

ويدهنونها بالدم ، وفى بعض الأحيان يضعونها على النار ، وفى أحيان أخرى يأخذونها ويقومون بحركات شبيهة بتلك الحركات التى يقوم بها شخص يزمع أن يبارز ، وأخيرا يحرقون كل الدم المراق من الديك ، وتظل الشموع موقدة طوال الوقت · ويضع رجل الدين الذى يزمع القيام بطقوس الأضحية حول ذراعيه ويديه وقدميه بعض الحلقات (الأساور) الفضية التى تحدث أصواتا عالية جدا كأنها أجراس ، ويضع حول رقبته حجابا (تعويذة) لا أدرى عنها شيئا ، وعندما ينتهى من طقوس الأضحية يملأ يديه الاثنتين بالحبوب ويتراجع عن المذبح (المنضدة) سالفة الذكر ، ويسير للخلف وهو ينظر دوما للمذبح المشار اليه ، حتى يصل الى شجرة بعينها ، وعندها ينثر الحبوب من فوق رأسه على الشجرة ويجعلها — أى الحبوب — على أعلى الشجرة بقدر ما يستطيع ، ثم يعود بعد ذلك ، وينقل كل ما هو موضوع على المذبح (المنضدة) (٨) ·

كيفية تناول ملك كلكتا لطعامه

عندما يرغب ملك كلكتا فى تناول طعامه ، فانه يتبع العادات التالية : يجب أن تعرف أن على أربعة من البرهميين ذوى المكانة أن يأخذوا الطعام الذى سيأكله الملك ويحملوه للشيطان the devil ثم يتعبدوا له (يصلوا له) فى البداية ، بالطريقة التالية : يضع الواحد منهم يديه متشابكتين فوق رأس الشيطان ثم يقبضها اليه (أى الى شخص البرهمى) وهما متشابكتان ، وقد جعل أصبع الابهام مرتفعا الى أعلى ، ثم يقدمون له (أى للشيطان) الطعام الذى سيقدم للملك ، ثم يجلسون على هذه الحال مدة تكفى ليتناول فيها الشخص طعامه ، وبعد ذلك يذهب البرهميون السالف ذكرهم بهذا الطعام الى الملك ، ويجب أن تعلم أنهم يؤدون هذه الطقوس بهدف توقير الوثن (وثن الشيطان) فحسب ،

---

(٨) لم أكن قادرا على التحقق من هذه الطقوس الخاصة ، الا أنه من المعروف بشكل عام أن الأضحيات الحيوانية Animal Sacrifices تحتمل الى حد كبير أن تكون لارضاء البوتا Bhuta أو الأرواح الشريرة ، وهذه الأضحيات يقدمها البرهميون على اختلاف مذاهبهم · ومن بن الأضحيات التى يقدمها الهندوس فى ميسورى Mysore — بكثرة يذكر أبى دبوا Abbé Dubois الحواميس ، والخنازير والكباش والديوك ، وما الى ذلك ومن المحتمل أن يكون المقصود بالحجاب (التعويذة) الذى أسماه فارتيما باسم بنتاكولا Penta Cola — هو الأساور البرهمية المسماه بونوب poonoeb ·

باظهـــار أن الملك لن يأكل طعـــامه الا اذا قدموه لديمـــو Deumo أولا (٩) ٠

ويوضع الطعام فى آنية خشبية بها ورقة شجر كبيرة حيث يكون الطعام المسوى من الارز وغيره فوق ورقة الشجر هـذه ٠ ويتناول الملك طعـــامه على الارض دون مائدة أو غيرهـا ، ويكون البرهميون واقفين حوله على بعد ثلاث خطوات أو أربع ، وقد أبدوا له كل مظاهر التبجيل والاحترام ، ويظلون منحنين عاقدين أيديهـم أمام أفواههـم ، ومن غـير المسموح لأى واحد منهم بالكلام أثناء تحدث الملك وانمـا يقفون مصغين لكلماته بتوقير شديد ٠ وعندما ينتهى الملك من تنـــاول وجبتـه يأخذ البرهميون سالفو الذكر ما تبقى من طعام الملك ويحملونه الى ساحة القصر ويضعونه على الأرض ، ثم يقوم البرهميون بالتصفيق بأيديهم ثلاث مرات فيتجمع عدد كبير من الغربان السـود فيلتهمون هذا الطعام ٠ وقد درب البرهميون هذه الغربان لهـذا الغرض ، وهى غربان حرة تطير حيثمـا يحلو لها ، ولا تتعرض للأذى من أحد ٠

---

(٩) هذا يؤكد بوضوح قول القديس بولس فى الاصحاح الأول آية ٨ ، فيما يتعلق باللحوم التى تقدم للأوثان ٠

ولا يأكل البرهمى الا الطعام الذى أعده أفراد طائفته البرهمية ٠ وقد ذكر بوشانان Buchanan أن الكوروم Kurum وهو النظام الأعلى عند النير Nairs فى مالابار Malabar ــ يتم بطهى الطعام ــ فى كل المناسبات العامة ، ومن الدلالات الأكيدة عند الهندوس على السمو الروحى أو الارتفاع الى مستوى طبقة ذات أبعاد روحية تجعلها فوق الوجود المادى أن يأكل أى شخص طعاما أعده شخص أو أشخاص أرقى منه بالميلاد ٠ وقد لاحظ ماركو بولو العادة الشائعة بين البرهميين وهى أنهم يأكلون على أوراق الأشجار ، فبدلا عن الصحون فانهم يضعون طعامهم على الأوراق الجافة لنبات تفاح الجنة ، وقد يقصد ماركو بولو بذلك أوراق نبات لسان الحمل أو أذن الجدى Plantain ٠ انظر : Pinkerton's Voyages (Green's Collection, Vol IV,, p. 616) Vol. VIII, pp. 735-6.

وقد وصف Forbes التفاصيل الكاملة لوجبات الطعام عند البرهميين كالتالى : « يقوم البرهمى ــ عندما يكون طعـامه جاهزا ــ وقبل تناول طعـامه بشعائر الترربون Turpun وذلك بأن يملأ وعاء نحاسيا بالماء ، ويضع فيه قليلا من حبات الشعير والسمسم وأوراق شجرة الريحان المقدسة basil والصندل وغير ذلك ٠ ثم يقوم بذكر الأسماء التى يستطيع تذكرهـا سـواء أسماء آبائه وأجداده لأبيه وأجداده لأمه ، وأصـدقائه الذين وافتهم منيتهم ٠ ثم بعد ذلك يمارس شعائر الهوم hom ويقصد بها عبادة النار ، وذلك بنثر بعض الأرز والزبد النقى فى اناء نحاسى صغيرا أو وعاء فخارى به نار مشتعلة وهو يتمتم أثناء ذلك بأسماء الشياطين Devils ٠ ويقوم البرهمى بحجز خمسة مقادير من الطعام للبقر والمعدمين والكلاب والنمل والغربان ٠ ثم يأخذ قليلا من كل صحن ويقدمه للشيطان فى وعاء مقسم الى خمسة أقسام ٠ وبعد ذلك يجلس ــ أى البرهمى ــ لتناول افطاره » ٠

انظر Bas Mala, Vol. II, p. 257.

البرهميون ، كهنة كلكتـــا

ومن المناسب أن تعرف من هم هؤلاء البراهمة ، بالاضـــــافة الى الطرائة المتمثلة فى أمرهم ، يجب أن تعلم أنهم رؤساء أو زعمـاء العقيدة البرهمية ، وهم يشبهون الكهنة فى العقيدة المسيحية ٠ وعندما يريد الملك أن يتزوج فانه ـ أى الملك ـ يختار أكثر هؤلاء البراهمة ثراء وكرم محتد ، ليضاجع زوجته ـ أى زوجة الملك ـ فى الليلة الأولى من عقـــد قرانه ، أى الملك ـ عليها ، ليفض بكارتها (١٠) ٠ ولا تظن أن البرهمى يقوم بهذه المهمة راغبا فرحا ، وانما يتعين على الملك أن يدفع له لقاء ذلك أربعمــائة دوكات أو خمسمائة ٠ ولا يمارس هذا العمـــل (تكليف البرهمى بفض بكارة زوجته) فى كلكتا ـ ســـوى الملك ٠ وســوف نصف الآن أديان الوثنيين فى كلكتـــا ٠

وثنيو كلكتـا ـ وطبقـاتهم

أولى طبقات الوثنيين فى كلكتا هى طبقة البراهمة ، والطبقة الثانية تتمثل فى النيرى Naeri ، وهم مثل النبلاء أو الأشراف فى مجتمعنا الأوروبى ويتحتم عليـهم أن يتمنطقـوا بالســيوف ، أو أن يحملـوا الرمـــاح والأقـواس ٠ وعندما يسيرون فى الشـوارع بدون ســلاح فانهم فى هذه الحال لايزيدون عن كونهم أناسا عاديين ٠ أما الطبقة الثالثة من هؤلاء الوثنيين فتسمى التيفا Tiva وهم حرفيون artizans ، والطبقة الرابعة تسمى المشوا Mechua وهم صائدو الأسماك ، والطبقة الخامسة تسمى البوليار Poliar وهم يجمعون الفلفـــل والبندق والجوز ويعصرون الخمر Wine ٠ والطبقة الســـادسة تسـمى هيرافـا Hirava وهم الذين يزرعون الأرز ويجمعونه ٠ والطبقتـان الأخرتان وهما البوليار والهيرافا لايقترب أفرادهما من أفراد طبقة النيرى Naeri أو البراهمة وانما يبقون على بعد خمسين خطوة من أى واحد من

---

(١٠) يذكر هاملتون ما يلى ٠ « عندما يتزوج الساموري Samorin فانه يجب الا يضاجع زوجته الا بعد أن يقوم النامبورى Nambourie وهو رئيس الكهنة ـ بمضاجعتها ، واذا سر من مضاجعتها فانه يقضى معها ثلاث ليال لأن أول ثمار زواجها يجب أن يكون قربانا مقدسا للاله الذى تعبده العروس » وقد أكد بوشانان Buchanan ذلك بقوله : وهؤلاء السيدات (من أسرة تامورى Tamuri يلقحهن ـ عموما ـ النامبورى "Namuris انظر : Pinkerton's voyages. Vol. III, pp. 374, 834.

الطبقتين المذكورتين الا اذا تلقوا دعوة بالاقتراب • وهم (أفراد طبقتى البوليار والهيرافا) لا يسيرون الا خــلال طرق خاصــة عبر المستنقعات Marshes ، وهم فى سيرهم عبر هذه الطرق يصيحون بأصوات عالية حتى لا يلتقون بالنيرى أو البراهمة • واذا حدث أن توقف أفراد هاتين الطبقتين (البوليار والهيرافا) عن الصياح بأصوات عالية وكان أى من أفراد النيرى يسير فى الطريق ذاته ورأى ثمارهم أو التقى بأحد منهم ، فان النيرى يقتله دون أن يتحمل أى عقــاب • لذلك نجــد أفراد هاتين الطبقتين (البوليار والهيرافا) يصيحون دائما • والآن ، فقــد قصصنا عليك خبر هذه الطبقات الوثنية الست (١١) •

لباس الملك والملكة وسائر الناس فى كلكتا وكذلك طعامهم

انهم جميعا يســيرون عراة حفــاة الا من قطعــة من نسيج قطنى أو حريرى حول الوسط ولا يضعون فوق رؤوسهم غطــاء (١٢) وبعض

---

(١١) نقرأ فى كتابات هاملتون Hamilton تصنيفا مشابها لما رواه فارتيما ، نورده كالتالى : هناك درجات عديدة فى المؤسسة الدينية the Church وكذلك فى الدولة ، فالنامبورى هم الطبقة الأولى فى المجالين الدينى والدنيوى (على صعيد الدين وعلى صعيد الدولة) والبراهمة هم الطبقة الثانية فى المؤسسة الدينية the Church فقط • أما البت Buts أو السحرة فهم الطبقة التى تلى البراهمة مباشرة • أما النيرى Nayers فعددهم كبير جدا وهم الطبقة التى تلى الطبقة الســابقة • أما التايفى Tayvees فهم زراع أشجار الكاكاو وهم يلون الطبقة السالفة فى شرف المحتد next to the gentry أما البوليا poulias فهى الطبقة التى تقدم العمال والحرفيين Mechanics أما المكوا (المشوا) Muckwas أو الصيادون فهم أعلى محتدا (طبقة) ـ فيما أعلم ـ من البوليا Poulias الا أنهم ـ أى أفراد طبقة البوليا ـ هم أدنى المخلوقات وهم مستثنون من التمتع بأية قداسة ولا يسرى عليهم أى قانون انسانى • فاذا تقابل أحد أفراد البوليا أو التايفى مع أحد أفراد النير Nair فى الطريق ، فيجب عليه (فرد البوليا أو التايفى) أن يتنحى جانبا ليخلى الطريق لصاحب المقام الرفيع ـ ليمر،وذلك حتى لا يلوث الهواء ، حتى لا يتعرض للعقاب الشديد أو حتى القتل ، وأفراد البوليا هم الأسوأ حالا بكثير من غيرهم ، فاذا رأى الواحد منهم شخصا يقترب فان عليه (أى الفرد من البوليا) أن يعوى كالكلب ويجرى بعيدا حتى يتيح لهذا الشخص المقترب الا يتنفس من الهواء نفسه » والبوليا يبدون كأولئك الذين وصفهم بوشانان Buchanan تحت اسم النيادى Niadis فهم يشبهون فى صفاتهم ما ذكره فارتيما رغم أنه ذكر أنهم زراع أرز ، بينما البوليا لا يسمح لهم بحرث الأرض وانما يقطنون الغابات والمستنقعات Wood & Marshes ويعيشون بشكل أساسى على الصيد والتسول • انظر :
Pinkerton's Voyages. Vol. VIII. pp. 375, 738-9.

(١٢) كما قال Ralph Fitch باسلوب ساخر : « أما الملك فيسير عاريا كسائر الناس » •

التجار المسلمين Moors يرتدون قمصانا Shirt تمتد حتى الخصر waist أما الوثنيون فلا يرتدون القمصان • والنسوة يسرن عراة ويتركن شعورهن طويلة ، أما فيما يتعلق بطعام الملك والأشراف فهم لا يأكلون اللحوم الا باذن البراهمة ، أما الطبقات الأخرى فيأكل أفرادها مختلف أنواع اللحوم باستثناء لحم البقر (١٣) ويأكل أفراد الهيرافا والبوليار الفئران والأسماك بعد تجفيفها فى الشمس •

الطقوس التى يمارسونها بعد موت الملك

اذا مات الملك وكان له أبناء ذكور أو اخوة أو أبناء أخ فان أيا منهم لا يخلفه فى الملك وانما يخلفه أحد أبناء أخته (١٤) واذا لم يكن للأخت ابن ، خلفه أقرب أقربائه • وقد سادت هذه العادة لأن البراهمة لهم حق فض بكارة الملكة ، وعندما يسافر الملك ، يقوم أحد البراهمة حتى ولو لم يتجاوز عمره العشرين بالبقاء مع الملكة فى المنزل ، ويشعر الملك بامتنان شديد اذا ضاجع هذا البرهمى زوجته (الملكة) ولذا فمن المؤكد أن أخته وهو قد ولدا من شخص واحد (من صلب واحد) لذا فهى ـ أى أخته ـ أكثر قرابة مؤكدة له من أبنائه (أبناء الملك) •

ولذا فوراثة الملك تكون لأبنائها (أبناء أخته) • ويحلق كل الناس فى المملكة لحاهم ورؤوسهم عند موت الملك ، ولا يتركون من شعور رؤوسهم ولحاهم الا جزءا وفقا لما يراه كل شخص • ويحظر على صائدى الأسماك الصيد لثمانية أيام ، ويمارس الناس هذه العادات ذاتها اذا مات أحد أقرباء الملك • وكنوع من الوفاء لقريبه الميت ، فان الملك لايضاجع زوجته مدة عام ولا يأكل التنبول betel مدة عام أيضا • ويشبه التنبول أوراق البرتقال الحامض Sour orange (قد يقصد الليمون)، وهو ـ أى التنبول ـ طعام شائع بينهم • والتنبول بالنسبة لهم ،

---

(١٣) لا يستطيع أحد من البراهمة الجنوبيين تذوق أى طعام حيوانى دون أن يفقد الانتماء لطبقته ••• أما النير Nair فمسموح لهم أن يتناولوا لحوم الغزلان والماعز والدجاج والأسماك » بوشانان •

(١٤) يؤكد بوشانان ذلك بقوله : « الوراثة تتم من خلال الانتماء الأمومى ، ويضيف بصدد حديثه عن حالة خاصة يرث فيها ابن الأخت منصب الراجا Rajaship « ان ابنه لا يدعى وراثة منصب الراجا (الامارة) وانما سيخلفه ابن أخته "niece انظر Pinkerton's Voyage, Vol VIII, p. 745 وكان هذا الأمر موجودا على أيام ابن بطوطة •

كالحلوى بالنسبة لنا نحن الأوربيين ، وان كان هدفهم الأساسى من تناوله هو تحقيق اللذة الحسية ، ويتناولون معه فاكهة الكوفولو Cofroio التى تثمرها شجرة الأريشا Arecha (١٥) وساقها تشبه ساق النحله وطريقة اثمارها لا تختلف عن النخلة أيضا ، وكذلك نوعا من الكلس Lime مصنوع من أصداف المحار يسمونه سيوناما Cionama (١٦) ·

كيف يتبادل الوثنيون أحيانا زوجاتهم

توجد عادة تبادل الزوجات بين الوثنيين · ففى بعض الأحيان يحدث أن يكون تاجران تربط بينهما صداقة عميقة ، فيقول أحدهما للآخر : « لقد دامت صداقتنا طويلا » فيجيبه : « نعم اننى صديقك منذ أمد طويل» فيقول له : « أتقول الحق ؟ » فيجيبه : « نعم » ، فيقول له : «بالله عليك!» فيكون الجواب : « بالله » عندئذ يقول له : « اذن دعنا نتبادل زوجتينا ، خذ زوجتى وأعطنى زوجتك » فيقول له : « أمن قلبك هذا الطلب ؟ » فيرد عليه : « اى وربى ! » عندئذ يأخذه الى البيت ويقول لزوجته : « تعالى أيتها الزوجة ! اذهبى مع هذا الرجل فهو زوجك ، فتقول الزوجة : « أحقا تقول بالله » فيرد عليها : « أقول الحق » فتجيب الزوجة « هذا يسعدنى ! » وتذهب معه الى بيته وعندما يقابل زوجته الأولى يطلب منها أن ترافق صديقه ، وبهذه الطريقة يتبادلان زوجتيهما ، الا أن أبناء كل واحد منهما يبقون معه · وبين طبقات الوثنيين الذين أشرنا اليهم فيما سبق يكون للمرأة خمسة أزواج أو ستة أو سبعة ، بل وأحيانا ثمانية (١٧) وينام كل واحد منهم معها ليلة ، وعندما تنجب فانها هى التى تحدد والد الطفل ، وهكذا يتحدد النسب بكلمة منها ·

---

(١٥) نخلة الأريكا The Areca palm .

(١٦) شونام Chunam هى الكلمة الهندوستانية الشائعة للكلس Lime .

(١٧) تعدد الأزواج Poliandria الذى شاع فى كلكتا ، تناوله أيضا نيكولو دى كونتى Nicolo de Conti وعبد الرزاق ، وهم (دى كونتى وعبد الرزاق وفارتيما) يختلفون فى التفاصيل ، كما هو متوقع خاصة فى موضوع كهذا مرتبط بصميم الحياة المنزلية لأهل البلاد ، مما يجعله عرضة لاقحام أفكار خاطئة فيه ، وقد كان الدكتور بوشانان أكثر دقة فى عرضه لهذا الموضوع وفيما يلى نورد بعض ما ذكره : « يتزوج النير Nair قبل بلوغ الواحد منهم سن العاشرة ··· الا أن الزوج لا يضاجع زوجته · ويمكننا ان نعد هذه الامور شيئا بذيئا وفاحشا · والزوج فى هذه الحالة ينفق على زوجته فهو يتكفل بما تحتاجه من دهان وملابس وزينة وطعام ، الا أنها مع ذلك تعيش فى بيت أمها ، =

أسلوب الحياة وضبط العدالة بين الوثنيين

يجلس هؤلاء الوثنيون على الأرض لتناول طعامهم في أوان معدنية ويستخدمون ملعقة من أوراق الاشجار ، وهم دائما يأكلون الأرز والسمك والبهارات والفاكهة . أما الزراع بطبقتيهم فيأكلون من القدر مباشرة ، وعندما يتناولون الأرز بأيديهم من القدر فانهم يجعلونه كالكرة بالضغط عليه ثم يضعونه في أفواههم . وفيما يتعلق بالقوانين السائدة بينهم فانه اذا قتـــل أحدهم شـــخصا فان الملك يأمر باعداد وتد (خازوق) طوله أربع خطوات ، ويدبب جيدا من أحد طرفيه ، ثم يؤتى بعصاتين وتثبتان في الخازوق المشار اليه على بعـد شبرين من الطرف المدبب ثم يدق هذا الوتد (الخازوق) في منتصف ظهر المذنب حتى يخرج من الناحية الأخرى، وبذلك يلاقي المذنب حتفه . وتسمى هذه الطريقة في التعذيب باســـم الأنكالفت Uncalvet ، واذا أقدم شخص على جرح آخر أو ضربه بالعصا ، أمره الملك بدفع تعويض مالي ، فاذا دفعه سقط ذنبه ، واذا كان لأحد مال عند الآخر ، وأظهـر صاحب الدين الايصـــال الدال على ذلك شريطة الا يقل المبلغ عن مائة من وحدات العملة في هذا البلد ، ففي هذه الحال يتم الآتي ، دعنـــا نفترض أن أحدهم يتحتم عليـــه أن يدفع لي خمسا وعشرين دوكات ، وأن المدين وعدني بالدفع عدة مرات ولم يدفع ولم أكن راغبا في امهاله أكثر من ذلك ولم أكن كذلك راغبا في التنازل عن هذا الدين ، ففي هذه الحال على أن آخذ غصنا أخضر في يدي وأن أسير بهدوء ورقة خلف المدين وأن أرسم بهذا الغصن الأخضر دائرة حوله (أي حول المدين) فاذا أحكمت الدائرة حوله قلت له هذه الكلمات ثلاث مرات: « انني أطالبك بحق رؤوس البراهمة ورأس الملك الا تغادر هذه الدائرة حتى تدفع لي كل حقي » وفي هذه الحال ، فانه سيرضيني ، أو أن عليه أن يبقى داخل هذه الدائرة حتى يموت ، دون أي حراسة تجبره على ذلك ؟ واذا حدث وهرب من هذه الدائرة ولم يدفع لي ، فان الملك يقتله (١٨) .

= واذا مات والداها فانها تعيش مع أخيها ، ويضاجعها في هذه الأثناء أي شخص يقع عليه اختيارها سواء من طبقتها أو من طبقة أعلى من طبقتها . ولا يعيب المرأة الوثنية بأية حال أن تقول انها أقامت علاقات جنسية مع أشخاص عديدين ، بل العكس هو الصحيح فالمرأة من النير Nair تفخر بكثرة عشاقها من البراهمة والرجاوات (الامراء الهنود) وغيرهم من ذوي المحتد الكريم ... ونتيجة هذه الأوضاع الغريبة فلا أحد من النير Nair يعرف أباه وينظر كل فرد منهم الى أولاد أخته باعتبارهم ورثته .

(١٨) من الملاحظ أن مسألة العدالة في الهند كانت محل اعجاب منذ زمن طويل ، فالكتاب الاغريق والرومان بدءا من ديودور الصقلي Diodorus-siculus قد أثنوا عليها ، كما شهد ماركو بولو الى جانبها . وأخيرا فان الكتاب العرب قد شهدوا شهادة في صالحها . =

طريقة العبادة عند الوثنيين

فى الصباح الباكر ، يذهب هؤلاء الوثنيون للاغتســال عند البركة a tank المليئة بالماء الراكد ، وبعــد اغتســـالهم يتحتم عليهــم ألا يلمسوا أى شخص حتى يؤدوا صلواتهم فى منازلهــم (١٩) ويقولون انهم يؤدون صلواتهم على هذا النحو : انهم يتمددون على الأرض بطريقة سرية جــدا ويقومون بحركة شيطانيــة معينة diabolical action بعيونهم ، ويؤدون حركات أخرى مرعبة بأفواههم ، ويستمرون فى أداء هذه الحركات لمدة ربع ساعة ، ثم تأتى ساعة الأكل ، وهم لايستطيعون الأكل الا اذا كان الطعام من اعداد رجل ، فالنسوة لايطبخن الا لأنفسهن ٠

وهذه هى العادة الشائعة بين الرجال ٠ أما النسوة فينتظرن حتى يغتسلن ويتعطرن ، وفى كل مرة يرغب فيها الرجل فى مضاجعة زوجته

= فالادريسى يذكر لنا أن العدالة شىء غريزى أو فطرة عند سكان الهند وليس لديهم ما يوازيها أهمية ٠ ويقال ان عددهم الكبير والرخاء الذى يعيشون فيه يرجع الى سلامة طويتهم واخلاصهم فى تنفيذ العهود والمواثيق واستقامة سلوكهم بشكل عام ٠ وأكثر من هذا فالزائرون لبلادهم يزداد عددهم فبلادهم مزدهرة والناس يتمتعون بالوفرة والسلام ، وكدليل على موالاتهم للحق وكراهيتهم للباطل ، نضرب مثلا : اذا كان لدى رجل مال عند رجل آخر ، والتقى به الدائن فى أى مكان رسم حوله دائرة ودخل معه فيها ، فلا يستطيع المدين أن يخرج من الدائرة الا اذا أرضى الدائن (المدعى) لكن اذا فشل الدائن فى اجباره على الدفع أو قرر أن يسامحه فانه أى الدائن يخطو خارج الدائرة » ويذكر لنا عبد الرزاق عند حديثه عن كلكتا أن « الأمن والعدالة مؤثلان وراسخان فى هذه المدينة لدرجة أن أكثر التجار ثراء يجلبون عبر البحار الى كلكتا بضائع هائلة يفرغونها ويرسلونها الى أسواق دون أن يجدوا حاجة الى مراجعتها أو عدهـــا ودون أن يجدوا حاجــة الى حراستهــا » انظر : Indio in the fifeteenth Centur, I, p. 14.

والاجراءات المتخذة ضد المدين كما وصفها الادريسى وفارتيما ، والتى قرر ماركو بولو من قبلهما أنه رآها تنفذ ضد شخص ملك المالابار ، أكدهـــا هاملتون Hamilton مع اختلاف طفيف ٠ يقول هاملتون : « ان لديهم طريقة جيدة للقبض على المدنيين ، اذ يوجد شخص معين يحمل عصا صغيرة يرسله القاضى الذى يكون برهميا ، وعندما يعثر هذا الشخص على المدين يقوم برسم دائرة حوله بالعصا ويأمره باسم الملك والقاضى الا يغادر الدائرة الا بعد استرضاء الدائن اما بالدفع أو بطلب السماح ، وليس من عقوبة أقل من الموت تنتظر المدين اذا غادر سجنه هذا بالخروج من الدائرة المرسومة » انظر : Pinkerton's Voyages, Vol. III, p. 377.

وقد ذكر ديودور الصقلى طريقة الاعدام بالخازوق impaling فى الهند Liib. II, 18.

(١٩) البراهمة ملزمون بالاستحمام الكامل (غسل كل أبدانهم) قبل تناول الطعام ٠ وبعضهم ينذر أن يستحم قبل شروق الشمس سواء كان ذلك بالماء الدافىء فى المنازل أم فى البركة أو النهر ٠ وبعد ارتداء ملابسهم ، يجلس هؤلاء البراهمة لتناول الطعام شريطة أن يبتعدوا عن كل ما ينجسهم أو يوسخهم مما يضطر الواحد منهم للتوقف عن تناول طعامه ٠

انظر Forbes's Ras Mala, Vol. II, pp. 255-58. (بادجر)

فانها تغتسل وتتعطر بطريقة رائعة والنسوة بشكل عام وفى كل الأحوال يرحن ويجئن معطرات وقد تحلين بالمجوهرات فى أيديهن وآذانهن وأقدامهن وأذرعهن ٠

الطريقة التى يحارب بها هؤلاء الوثنيون

يتدرب هؤلاء الوثنيون ـ بشكل عام ـ يوميا ، بالسيوف والتروس والرماح ٠ وعندما يذهبون للقتال يحتفظ ملك كلكتا دائما بمائة ألف من المشاة لأنهم لايستطيعون استخدام الخيول ، ويصحب بعض الفيلة لاستخدامه الشخصى فقط ٠ ويلف كل فرد من أفراد الجيش قطعة قماش حريرية قرمزية اللون حول رأسه ، ويحملون السيوف والتروس والرماح والأقواس ، ويحمل الملك مظلة ، بدلا من العلم (أو اللواء) ، وهذه المظلة تأخذ شكل مقدمة الحذاء (*) وهى مكونة من أوراق الشجر ومثبتة على طرف خيزرانة Cane وقد صممت لتحمى الملك من الشمس ٠ وعندما يكون هؤلاء الناس فى ميدان القتال ، ويكون الجيشان المقتتلان على بعد مرمى قوسين ، فان الملك يقول للبراهمة : « اذهبوا الى معسكر الأعداء وقولوا لملكهم أن يدع مائة من النيرى Naeri الذين لديه يأتون ، وأننى سوف ألقاهم بمائة من النيرى التابعين لى » وبهذه الطريقة يلتقون فى منتصف المسافة ، ويشرعون فى الاقتتال بهذه الطريقة ٠ ورغم أنهم قد يقتتلون مدة ثلاثة أيام ، فان الواحد منهم يوجه دائما لخصمه ضربتين مباشرتين ، احداهما فى الرأس والأخرى فى الساق، وعندما يقتل من أى من الطرفين أربعة أو ستة يتدخل البراهمة بين المقتتلين ، فيعود كل فريق الى معسكره ٠ وسرعان ما يعود البراهمة آنفو الذكر الى جيش كل طرف ٠ قائلين : « ألا ترغبون فى المزيد ؟! » فيجيب الملك : « لا » ٠

وهذه هى طريقة اقتتالهم ، مائة مقابل مائة ٠ وفى بعض الأحيان يركب الملك فيلا ، وفى أحيان أخرى يحمله النيرى Naeri الذين يجرون دائما ، ودائما ما تصاحب الملك الآلات الموسيقية المتعددة ٠ ويدفع الملك لكل واحد من النيرى أربعة كارلينات Carlini فى الشهر ، أما فى أثناء الحرب فيدفع لكل واحد نصف دوكات ، وهم

(*) النص : Like the stem of a boot وقد يكون هناك خطا مطبعى وربما كان المقصود مقدمة السفينة ـ (المترجم) ٠

يعيشون من هذه الرواتب • وهؤلاء الناس لهم أسـنان سـوداء بسبب الأوراق التى ذكرت لك لتوى أنهم يأكلونها • وعندما يموت واحد من النيرى فانه يحرق فى حفل مهيب للغاية ، ويحفظ بعض الناس رماد جثته • أما الناس العاديون ، فان الواحد منهم اذا مات دفنوه فى منزله ، وبعضهم يدفنونه فى حديقة بيته (٢٠) •

وتسك عملة هذا البلد هنا ، على النحو الذى أخبرتك به عند الحديث عن نارسنجا Narsinga • وعندما كنت فى كلكتا وجدت عددا كبيرا جدا من البشر الذين ينتمون الى أجناس مختلفة وبلاد مختلفة ، وقد كنت شغوفا لمعرفة المناطق والبلاد التى قدم منها هؤلاء البشر المختلفون فسألت وعرفت أنه وجد هنا عدد كبير جدا من التجار المسلمين ، كثيرون منهـم قدموا من مكة ، وجانب منهـم قدم من البنغـال Banghella ، وبعضهم قدم من Ternasseri وبعضهم من Pego ، وكثيرون جدا قدموا من Ciormandel وعـدد كبير من Zaicolon ، ومن سـومطرة ، وعدد ليس بالقليـل من Colon و Caicolon ، وعدد كبير جـدا من Bathcala ومن Dabuli ومن Chievuli Combeia ومن Guzerati ومن هرمز Ormus • وكان هناك أيضا عدد من فارس وبلا العرب السعيدة ، وثم عدد من سوريا وتركيا ، وعدد من أثيوبيـا ونارسنجا Narsinga • لقد كان هناك تجار من كل هذه الآفاق فى الوقت الذى كنت فيه فى كلكتا • ويجب أن يكون معلوما أن الوثنيين من أهل البلاد لا يبحرون كثيرا ، لذا فالمسلمون هم الذين يجلبون البضائع اذ يوجد فى كلكتا ١٥٫٠٠٠ مسلم على الأقل مما يجعلهم يشكلون أكثرية أهل البلد (٢١) •

---

(٢٠) أكد ذلك بوشانان Buchanan اذ ذكر ان النير يحرقون موتاهم ، اما الطبقات الدنيا فيدفنونهم •

(٢١) ذلك أنه لم يكن لدى الهندوس Hindoos بحارة أبدا ، ولكون الهندوس لم يكن لديهم أبدا بحارة ، فان هذا يفسر • الصمت العالمى ــ فى الغالب ــ من قبل الكتاب القدماء ــ ازاء الشئون البحرية للهند ، بينما وصف أكثرهم تكوين الجيش الهندى بالتفصيل • ويبدو أن هناك احتمالا كبيرا أن ما ذكر فى شرائع مانو Manu عن العقود التى يرهن بموجبها البحارة سفنهم مقابل مال يقترضونه للقيـام برحلاتهم bottomry مما دفع سير وليم جونز Sir William Jones الى القول بان الهنود لابد أن يكون لديهم بحارة فى هذا العهد ، الا ان الاشارة الى ذلك فى شرائع مانو Manu يقصد بها فى الأساس ، الملاحة النهرية • river navigation ، فالاشراف على هذه الملاحة يقتضى تدوين حركتها لدى مسئول (مأمور تنفيذ) water bailiffs الذى كان من بين واجباته أيضا الحفاظ على الحدود بين الحقول للتأكد من ان كل زارع يأخذ حقه من ماء القنوات والترع ••• الخ • (See Manu, VIII, 408-409) •

طريقة الابحـــار في كلكتـــا

يبدو لي ملائما ومحققا للغرض ، أن أشرح لك كيف يبحـــر هؤلاء الناس على طول ساحل كلكتا والأوقات التي يبحرون فيها وكيف يبنون سفنهم • فبادىء ذي بدء نجدهم يصنعون سفنهم كما لو كانت مكشوفة open ، وتتكون كل سفينة من ثلاثمائة أو أربعمائة جزع شـــــجرة butts • وعند بنائهـم لهذه السفن لايستخدمون أية حبـــال Oakun بين كل لوح خشب ولوح آخر ، بأي شكل من الأشكال ، وانما يصلون كل لوح بالآخر بطريقة محكمة تمنع تسرب الماء ، ثم يطلونها من الخارج بالقار (الزفت) ، ويدقون فيها مسامير حديدية ضخمة جدا • ولا تتخيل ــ على أية حال ــ أنهم لا يمتلكون حبالا فهي تأتيهم بكميات كبيرة من بلدان أخرى ، لكن عادتهم لم تجر على استخدامها في صناعة سفنهم (٢٢) ولديهم أخشاب ممتازة كتلك التي في بلادنا ، وان كان ما لديهم (٢٣) منها أكثر بكثير مما عندنا • وأشرعة سفنهم مصنوعة من القطن ، ويحملون معهم أسفل الشراع الأصلي شراعا اضافيا ينشرونه عندما يبحرون لتستوعب مزيدا من الهواء ، وبهذا تراهم يستخدمون للسفينة شراعين ، بينما نحن في أوروبا نستخدم شراعا واحدا • ويحمـــل البحارة معهم أيضــــا مراسي Anchors من الرخـــام طـــول الواحـــدة منهـــا ثمانيـــة بالميـــات palmi وعرضها اثنـــان من البالميات ، ويربطون في هذه القطعـــة حبلين • فتلك

= ويقرر آريان Arrian ــ بشكل واضح ــ أن الرحلات البحرية كانت ممنوعة ، ويذكر بلني Pling أن الهنود لا يهاجرون أبدا (vi, 20) ورغم أنه يمكننا التجاوز في القول بأن ملاحتهم كانت مقصورة على الأنهار ، الا أن الأدلة تؤكد أنهم لم يكونوا بحارة بالمعنى المعتاد الذي نقصده بقولنا (بحارة) •

. ومما لا شك فيه كراهية الهندوس للبحر لاعتبارات دينية أو لفطرتهم التي جبلوا عليها ، أو لمزاج من هذه المشاعر معا ــ هذه الكراهية ــ أيا كان سببها ــ جعلت الملاحة في المحيط الهندي منذ عهود قديمة في أيدي العرب الأكثر مهارة في هذا المضمار مما جعلهم يسودون ويحرزون قصب السبق في الساحل الغربي • وقد لاحظ ماركو بولو كراهية الهندوس ذات الطابع الديني للبحر الذي ذكر عند حديثه عن عادات أهل مالابار أن شهادة الشخص الذي يركب البحر غير مقبولة باعتباره شخصا متهورا يائسا •
(See Pinkerton's Voyages, Vol. VII, p. 163.

(٢٢) يتفق هذا الوصف بشكل عام مع الطريقة المتبعة في بناء السفن في ساحل المالابار • الا أن ماركو بولو ــ على أية حال ــ يقرر أن السفن التي يتم انشاؤها هناك ــ على أيامه ــ كانت تشد جيدا بالحبال Well chaulked with Oakum وربما كان هذا خطأ من جانبه أو خطأ في الترجمة الانجليزية •.

(٢٣) في تقرير نشرته الجمعية الملكية الآسيوية Royal asiatic Society (No. VI, 350-369) تم حصر ١٢٠ نوعا لها قيمة عالية من الأخشاب يتم انتاجها في المالايار •

اذن هي هيئة مراسيهم • أما عن الزمن الذى تستغرقه رحلاتهــم فهــو كالتالى : من فارس الى رأس كوميرن Cumerin الذى يبعد عن كلكتا مسافة ثمانية أيام ابحارا الى الجنوب • ويمكنك الابحار خلال ثمانيـة أشهر فى السنة او بمعنى آخر من ديسمبر الى ابريل ، أما فى الفترة من أول مايو الى منتصف اغسطس فمن الضرورى تجنب هذا الســاحل ففى هذه الفترة يكون البحر عنيفا وعاصفا • ويجب أن تعرف أنه خلال شهور مايو ويونية ويولية واغسطس يهطل المطر بشكل مستمر ليلا ونهـــارا ولا تظهر الشمس الا قليلا ، أما فى الشهور الأخرى فلا يهطـــل المطـــر أبدا (٢٤) • وفى نهاية شهر ابريل يبحرون من ساحل كلكتا ويعبرون عند رأس كوميرن Cumerin ثم يدخلون مرحلة آمنة من الابحار خلال هذه الشهور الأربعة يتاجرون خلالها فى كميات صغيرة من التوابل (٢٥) •
أما عن مسميات سفنهم فهناك السمبوك Sambuchi وقاعه مسطح flat bottomer ، أما السفن المصنوعة على شــاكلة ســفننا فيسمونها كابل Capel • وهنـــاك ســـفن صغيرة يسمون الواحد منها باراو parao وهى سفن مصنوعة من قطعـــة واحدة ويبلغ طولها عشر خطوات ، ويجدفون لها بمجاديف من الخيزران وساريتها من خيزران أيضا • وهناك نوع آخر من المراكب الصغيرة يسمى المادبا Olmadia وهو من قطعة خشب واحدة وهنـــاك نوع من السفن يبحر بالشراع والمجاديف • وهذه الأنواع الأخيرة من السفن ، تصنع من قطعة واحـدة ويبلغ طول السفينة منها اثنتى عشرة خطوة أو ثلاث عشرة خطوة • وفتحات هذه السفن الصغيرة ضيقة جدا لدرجة أن أحـدا لايستطيع الجلوس الى جانب الآخر ، وانما لابد من الجلوس خلفه ، وهى ســـفن مدببة عند مقدماتها وعند مؤخراتها ، وتسمى الواحدة منها كاتورى Chaturi (٢٦)،

---

(٢٤) هذا كلام صحيح بشكل عام عن انتشار الرياح خلال موسمى الرياح الموسمية monsoons (بادجر) •

(٢٥) كثير من السفن تغادر ساحل المالابار فى هذا الموسم من السنة قاصدة الأرخبيل الهندى وتعود ، أو تتخذ طريقها الى الخليج الفارسى أو البحر الأحمر فى بداية موسم الرياح الموسمية الشمالية الشرقية north-east mansoon « لأن الرياح الجنوبية الغربية التى تسود خارج رأس أشن Achin-head من شهر ابريل الى شهر اكتوبر ، نادرا ما تهب بعيدا فى المضيق (أو البوغاز) خاصة بالقرب من جانب سومطرة ، وبسبب أن قوة الرياح الموسمية تقاومها الجبال والأراضى المرتفعة التى تمتد من أشن Achin وعلى طول ساحل بدرى Pedri ، فان هذه الرياح تنجح فى التسلل خفيفة وهادئة أو على هيئة نسيم أو بشكل عاصف من سومطرة أثناء الليل » (Horsburg's Directory. Part II). (بادجر) •

(٢٦) هذه الأسماء الدالة على السفن والقوارب تقدم لنا دليلا آخر غير مباشر على خطأ المقولة القائلة بأن الهندوس الأوائل كانوا بحارة فكل الأسماء ـ فيما عدا الكابل Capel =

وتبحر بالأشرعة أو المجاديف ، بطريقة أيسر وأفضل من أى سفينة شراعية ذات مجاديف galley أو أى سفينة من نـوع فوسـتا fusta أو أى سـفينة بصـاريتين brigantine ، تلك هى مراكب البحر ، وتصنع سـفن (٢٧) الكاتورى آنفـة الذكر فى جزيرة قريبة تسـمى بوركى porcai ٠

قصر ملك كلكتا

يبلغ محيط قصر الملك ، ميلا٠وجدرانه منخفضة الارتفاع ــ كما ذكرت آنفا ــ وبها تقسيمات جميلة من الخشب حفرت عليها صور الشياطـين حفرا بارزا ، وأرضية القصر مزينة كلها بروث البقر (٢٨) وهذا المنزل (القصر) يستأهل مائتى دوكات أو نحو ذلك ٠ ولقد عرفت الآن السبب فى أنهم لا يستطيعون الحفر لوضع أساسات لمبانيهم ، فالمياه قريبة جدا من السطح ٠ ومن المحال أن نقدر المجوهرات التى يتحلى بها الملك ــ رغم أنه على أيامى لم تكن أحوالـه على ما يرام لأنـه كان فى حـرب مع ملك البرتغال ، بالاضافة الى أنه كان مريضا بمرض الفرنجة فى حنجرته ٠ ومع هذا فقد كانت الجواهر تتدلى من أذنيـه ، وتطوق معصميـه وذراعيـه وساقيه ، وتغطى قدميه ، بشكل يثير دهشة الناظر ٠ أما خزائنه فتحوى قوالب ذهب ، ونقودا ذهبية مختومة ، يقول البراهمة عنها ان العصبـة البالغة مائة رجل تنوء بحملها ٠ ويقول ان هذا الكنز متوارث عن عشرة

= أو Kapal التى ذكر كروفورد Crawfurd انها ترجع فى الأصل الى لغة التيلوجو Telugu أو التيلنجا Telinga ــ مشتقة من لغات أجنبية غير هندية فالبراو Parao أصلها جاوى أو مالاوى والسمبوك كلمة عربية والموديا Almadia من الكلمة العربية المدية Muadiah والكاتورى أو الشاتورى أرى أنها من الكلمة شختور Shakhtur وهى الكلمة الدالة على القارب فى سواحل سوريا كما أنها كلمة غير مجهولة فى البحر الأحمر والخليج الفارسى ٠ أما فاستا Fusta فكلمة ايطالية تدل على نوع من القوارب الخفيفة ٠

(٢٧) ما دمنا لا نعرف اسما لجزيرة بهذا الاسم بالقرب من كلكتا فاننى أظن أن فارتيما يشير الى مدينة بهذا الاسم تقع على الساحل ، الى الجنوب بدرجتين من كلكتا « فليس هناك مرفأ أو ميناء من أى نوع اذ تتوقف السفن المحملة بالبضائع فى عرض البحر فى مياه يبلغ عمقها قامتين fathoms على بعد ميل ونصف أو ميلين من الشاطىء ٠ وقد كانت فى وقت مضى موضعا ذا أهمية فائقة أكثر مما هى عليه الآن وكانت حاضرة دولة صغيرة (راج raj) » .

(٢٨) يستخدم الهنود مذاب روث البقر (ويسمونه الجوبار) فى طلاء جدران وأرضيات أكواخهم الطينية ــ (عن بادجر) ٠

ملوك أو اثنى عشر ملكا سابقين ، ليكون تحت طلب الشعب • ويمتلك ملك كلكتا أيضا صندوق جواهر يبلغ ارتفاعه ثلاثة أشبار ونصف ، مملوءا بمختلف أنواع الجواهر •

بهارات منطقة كلكتا

توجد أشجار الفلفل بكثرة فى منطقة كلكتا ، بل وتوجد بعض أشجاره داخل مدينة كلكتا ذاتها • وسيقان أشجار الفلفل كسيقان أشجار العنب ، ويزرعونها بالقرب من بعض الأشجار الأخرى ، لأن شجرة الفلفل ـ كشجرة العنب ـ لا تنتصب بمفردهـا • وتنمو ـ كشجرة اللبلاب فهى تنتشر وتتسلق بقدر ارتفاع الأخشاب أو الشجرة التى تتسلق عليها • ولها فروع كثيرة يبلغ طول الواحد منها ما بين الميين Palmi وثلاثة ، أما أوراقها فتشبه أوراق أشجار البرتقال البلدى (الحامض) وان كانت أكثر منه جفافا ، والجزء التحتى من سطح الورقة مباشرة يمتلىء بالعروق الدقيقة • وفى كل فرع من فروع الشجرة نجد خمسة عناقيد أو ستة أو ثمانية ، الواحد منها أطول من اصبع الانسان قليلا ، وتشبه حبات الزبيب وان كانت أكثر انتظاما ، كما أنها خضراء كالحصرم (العنب غير الناضج) •

وأهل البلاد يحصدونه فى حالته الخضراء ويتركونـه فى الشمس لثلاثة أيام أو أربعـة حتى يصبح أسود بالشكل الذى نراه فى أوروبـا ـ وذلك دون أن يقوموا ازاءه بأى عمل سـوى تركه فى الشمس للمدة المذكورة آنفا • ويجب أن تعلموا أنهم لا يشذبون (يقلمون) هذه الأشجار ولا هم يعزقون حولها •

ويزرع فى منطقة كلكتا أيضا ـ الزنجبيل ، وهو نبات جـذرى ، وتوجد بعض الجذور التى يبلغ وزن الواحد منها أربع أونصات أو ثمانى أو اثنتى عشرة • وعندما يحفرون لجمعه يكون ساق النبات قد وصل طوله الى ثلاثة أشبار أو أربعة ، ويشبه شكله بعض أنواع الغاب البلدى ، وأثناء جمعهم لجذور الزنجبيـل ينزعون البراعم (العيون) الشبيهة ببراعـم (عيون) قصب السكر ، وذلك ليزرعوها فى وقت الجمع ، فيضعونها فى الحفرة ذاتها ، ويغطونها بالتراب نفسه ، وفى نهاية العام يعودون لجمعه ، ويعودون لزراعته بالطريقة ذاتها • وتنمو جذور الزنجبيل فى تربة حمراء أو على الجبـال ، وفى السـهول • وتزرع هنا كل أنـواع الأملـح

Myrobalans (٢٩) ، (٣٠) وساق هذه الشجرة كساق شجرة الكمثرى متوسطة الحجم ، وهى تثمر على شاكلة شجرة الفلفل ٠

بعض فواكه كلكتا

وجدت فى كلكتا نوعا من الفاكهة يسمونه سيكارا Ciccara (٣١) وساق شجرتها كساق شجرة الكمثرى ، ويبلغ طول الثمرة بالمبين أو بالمبين ونصف البالم ، أما سماكتها ففى حجم سماكة فخذ الرجل وتنمو هذه الفاكهة على جذع الشجرة ، تحت الفروع ، أقرب ما تكون الى منتصف السباق ٠ ولونها أخضر وتبدو كأكواز (جمع كوز) الصنوبر ، وان كانت خطوطها أدق ، وعندما تبدأ فى النضوج يصبح جلدها أسود وتبدو نتنة ٠ وتجمع هذه الفاكهة فى شهر ديسمبر ، وعند أكلها تبدو كالشمام ، أو السفرجل العجمى عندما يكون ناضجا جدا ، وتبدو أحيانا كمستحضر من عسل النحل ، وتعطى أيضا طعم البرتقال السكرى ، وبداخل هذه الفاكهة بعض القشور الرقيقة كما فى الرمان ، وداخل هذه القشور توجد ثمرة أخرى اذا وضعت على جمرة نار ، ثم أكلت ، لكان طعمها ألذ من الكستناء الممتازة ، لقد كانت ألذ وأمتع فاكهة أكلتها على الاطلاق ٠

وتوجد هنا فاكهة أخرى يسمونها امبا Amba ، (ثمرة المانجو) وشجرتها كشجرة الكمثرى ، وهى (الثمرة) كالجوزة عندنا فى شهر أغسطس ، وعندما تنضج يصبح لونها أصفر لامعا ، وبداخلها بذرة كاللوزة الجافة ، والمانجو أفضل من البرقوق الدمشقى : والمخللات المعمولة من هذه الفاكهة بالطريقة نفسها التى نخلل بها الزيتون ، الا أن مخلل المانجو يفوقه بكثير ٠

---

(٢٩) نبات يستعمل ثمره للأغراض الطبية ويسمى أيضا emblic واسمه العلمى Phyllonthus emblica ٠ عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ــ (المترجم) ٠

(٣٠) الاهليلج Terminalia (بكسر اللام الثانية) وهو جنس شجر هندى ٠ من أنواعه ما يسمى الاهليلج الهندى فى مصر ، والهندى الشعيرى فى الشام ، وتستعمل ثماره لتنظيف جهاز الهضم ٠ والأملج ــ فيما يقول بادجر ــ أحد أنواعه ٠
عن معجم الشهابى للعلوم الزراعية ، وتعليق بادجر ٠

(٣١) من الواضح أن المقصود بهذه الفاكهة ما يسمى جاكيه Jack التى تثمرها شجرة الخبز Jack tree التى لها ثمار كبيرة بقدر لب الانسان ، فيها لب نشوى يستعمل كالخبز وهناك نوع له لب سكرى يؤكل ، والاسم العلمى لهذه الشجرة هو : Artoearpus inteyrifolia
(عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية وتعليق بادجر) ٠

وثمة فاكهة أخرى هنا تشبه البطيخ ، ولها نفس تقسيماته ، واذا قطعت وجدنا بداخلها ثلاث بذور أو أربع تبدو كحبات العنب ، أو الكرز الحامضى • وشجرة هذه الفاكهة فى ارتفاع شجرة السفرجل ، وأوراقهما متشابهة • وهذه الفاكهة تسمى كوركوبال Corcopal (٣٢) ، وطعمها ممتاز ، وتستخدم كعلاج •

وقد وجدت أيضا ثلاث فواكه أخرى تشبه المشملة أو الزعرور medlar الا أنها فاتحة اللون كالتفاح ولا أتذكر أسماءها • ومرة أخرى رأيت فاكهة تشبه اليقطين فى لونها ، وطولها شبران ، ولها أكثر من ثلاث زوائد (أصابع) من اللباب ، وهى أفضل من الدباء (اليقطين) فى صنع المربات والمعجنات • انها فاكهة تثير الدهشة ، ويسمونها كومولانجا Comolanga ، وتمتد ثمارها على الأرض كالبطيخ • وفى هذه البلاد شجرة متفردة جدا هى شجرة الموز الهندى ، ويسمونها مالابولاندا Malapolanda وهى فى طول قامة الانسان أو أطول قليلا ، وأوراقها هى فروعها ، فلكل شجرة أربعة فروع أو خمسة ، وأوراقها ضخمة ، فالورقة الواحدة كافية ليستظل بها الانسان من الشمس ، ويحتمى من المطر • ومن وسط الشجرة يخرج فرع خاص يحمل أزهارا ، كساق نبات الفول ، وبعد تساقط الأزهار يظهر الموز ، والموزة الواحدة فى سماكة ساق الرمح • وهم يجمعون الموز قبل أن ينضج ، ويتركونه فى بيوتهم حتى يتم نضجه • والفرع الواحد يؤتى مائتى موزة أو نحو ذلك • وهناك ثلاثة أنواع من الموز : النوع الأول يسمونه كيانشابالون Cianchapalon وهو منشط لمن يأكله • ولونه أصفر على نحو ما ، وقشرته رقيقة جدا • والنوع الثانى يسمونه كاديلابلون Cadelaplon وهو أفضل من النوعين الآخرين • أما النوع الثالث فلاذع • والنوعان الأولان طيبان كالذى عندنا ، الا انهما أفضل • ولا تثمر شجرة الموز الا مرة واحدة • ودائما يكون على ساق هذه الشجرة خمسون أو ستون فرخا (برعما) ، ويقوم المالك بنزعها ، ويزرعها مرة أخرى ، وفى نهاية العام تنتج ثمرا •

واذا كان الموز المجموع أخضر ولم يقترب من مرحلة النضج ، وضعوا عليه قليلا من الجير (٣٣) للتعجيل بنضجه • ويجب أن تعلموا أن كميات كبيرة من هذه الفاكهة متوفرة طوال العام ، وتباع العشرون موزة بكاترينو a quattrion • وتتوافر الورود والزهور هنا طوال العام •

---

(٣٢) لا يستخدم هذا الاسم الآن ، وقد خمن العالم بنت أنها ربما كانت الباباو Papau وهى الدباء الهندى ، الا أن صفة الأوراق وعدد البذور لا يؤيدان هذا الرأى • (عن بادجر) •

(٣٣) الكلمة الانجليزية Lime ولا ندرى هل المقصود هو الليمون أم الجير أم دبق الطيور •

أكثر الأشجار فائدة فى العالم

سأصف لك شجرة أخرى هى أفضل أشجار العالم واسمها تنجا Tenga (شجرة الكاكاو) وساقها كساق نخلة البلح • ومن هذه الشجرة يستفيدون بعشر فوائد ، فأخشابها وقود ، وجوزها طعـام ، وأليافها تستخدم فى الملاحة البحريـة ، ومنها يصنعون أنسجة تبـدو كالحرير ، يكفنون بها موتاهم ، وفحما ممتازا ، ومنها يستخرجون نبيـذا ، وماء ، وزيتا ، وسكرا ، ويغطون مساكنهم بأوراقهـا التى تتساقط عند سقوط الفروع ، فيتفادون بذلك أضرار ميـاه الأمطار المتساقطـة لنصف عام • وتثمر هذه الشجرة حبات الكاكاو ، بالكيفية نفسها التى تثمر بها النخلة بلحا ، وتنتج كل شجرة ما بين مائة الى مائتين من هذه الحبات •

وتستخدم قشور هذه الحبات كوقود ، وثمة قشر ثان (تحت القشر الأول) من مـادة كالقطن أو الكتان ينزع ويترك للعمـال يضربون عليـه (ينجدونه) ، ومن الزهرة يصنعون نسيجا يبدو كالحرير • والجزء الخشن الذى يغزلونه يصنعون منه حبالا قصيرة ، ويفتلون هذه الحبال الصغيرة فيجعلون منها حبالا طويلة وسميكة يستخدمهـا البحارة • ومن القشرة الأخرى يصنعون أجود أنواع الفحم النباتى •

وبعد نزع القشرة الثانية تصبح الثمرة صالحة للأكل ، وحجمها فى بداية الأمر كحجم اصبع اليد الصغير ، وعندما تبدأ الثمرة فى النمو يظهر الماء خلالها ، وعندما يكتمل نموها تصبح مليئة بالماء ، حتى ان هناك بعض الثمرات التى تشتمل على كأسين من الماء ، وهو أفضل ما يشرب فهو كماء الزهر وحلو تماما • وأفضل أنواع الزيوت يصنع من هذه الثمرة وله ثمانى فوائد • وثمة فروع أخرى فى شجرة الكاكاو لا يدعونها تنتج ثمرا ، وانما يشقونها من الوسط ويحنونها بشكل خاص ، ويفتحونها بالسكين صباحا ومساء ويضعون فيها (أى فى هذه الأفرع) سائلا خاصا ثم يتركون الفرع المائل يساقطه فيكون عصيرا له مذاق خاص ، يجمعونه فى قارورة ، وتنتج الشجرة من هذا العصير ما مقداره سعة ابريق فى اليوم والليلة ، ويغلونه ثلاث مرات فيبدو كالبرانـدى ويؤثر فى رأس الانسان (عقله) بمجرد شمه ، وهذا هو النبيذ الشائع بين أهل هذه البلاد • ومن فرع آخر من فروع هذه الشجرة يستخرجون عصيرا بالطريقة ذاتها التى شرحتها آنفا ويحولونـه بالغـلى الى سكر ، ولكنه ليس طيبـا جدا • وشجرة الكاكاو لا تخلو أبدا من ثمار اما خضراء واما جافة ، وتؤتى محصولها بعد خمس سنوات ، وتنتشر أشجار الكاكاو على مساحة مائتى ميل من البلاد ، وليست مشاعا وانما لها ملاكها •

ونظرا لفائدة هذه الشجرة ، فان السلام يمكن أن يسود بين ملكين

تحاربا وقتل كل منهما أبناء الآخر ، لكنه لا يمكن أن يسود اذا قطع أحدهما أشجار الكاكاو التى يمتلكها الآخر • وتعيش شجرة الكاكاو ما بين عشرين سنة وخمس وعشرين سنة ، وتنمو فى التربة الرملية • وعند زراعة البذور (التى هى نفسها الثمار) فلابد من موالاتها حتى تنبت كالتالى : يذهب الزارع كل مساء لكشف التربة عنها حتى تتعرض لهواء الليـل البارد ، وفى الصباح الباكر يعود ليغطيها حتى لا تلفحهـا الشمس وهكذا حتى تنبت وتنمو •

وفى كلكتا كميات كبيرة من السمسم ، يستخرجون منه زيتا رائعا•

طريقـة بذرهم الأرز

عندما يرغب أهل كلكتا فى بذر الأرز ، يقومون بما هو آت :

فى البداية يحرثون الأرض مستخدمين الثيران كما نفعل فى بلادنا ، وأثناء بذرهم البذور تعزف كل الآلات الموسيقية فى المدينة بشكل مستمر محدثة بهجة ، كما يقوم عشرة أشـخاص أو اثنـا عشر شخصا بارتداء ملابس الشياطين ، ويشتركون مع العازفين فى احداث صخب ، حتى يبارك الشيطان فى محصول الأرز فيجعله وفيرا •

الأطباء الذين يعودون المريض
فى كلـكتا

عندما يمرض تاجر وثنى وتصبح حالته خطرة ، يذهب العازفون والرجال اللابسون كالشياطـين ــ الآنف ذكرهم فى الفصـل السابق ــ لزيارته فى الساعة الثانية أو الثالثة صباحا ، ويحمل الرجال الشياطين شعلات النار فى أفواههم ، ويلبس كل واحد منهم فى يديه ورجليه سنادات خشبية Crutches ، يبلغ ارتفاع السنادة منها مقدار خطوة ، ويصرخون ويصيحون بينما تعزف الآلات • والحق أقول لكم انه اذا لم يكن الشخص مريضا ، فانه سيقع على الأرض من فرط الرعب عند رؤية هؤلاء الحقراء بشعى المنظر • وهؤلاء هم الأطباء الذين يذهبون لعيادة المريض • ورغم أنهم قـد يملأون معدتهم ويتخمون أنفسهم جـدا ، فان ثـلاثة جـذور زنجبيل تسحق ويصنع منها حساء ، ثم يشرب ، كافية أن تشفى الواحد منهم فى غضون ثلاثة أيام ليقوم وكأنه لم يعان مرضا قط فهم يعيشون كالسوائم تماما •

الصرافون في كلكتــا

للصرافين والوزانين في كلكتا بعض الموازين الدقيقة للغاية • حتى ان الصـندوق بما فيــه من موازين لا يزيد عن أقل من نصف أونصـة وهم دقيقون جدا لدرجة تمييز شـعرة في الرأس عن شـعرة أخرى • وعندما يرغبون في اختبار أى قطعة ذهب يأخذون قيراطا من الذهب ، كما نفعل نحن في أوروبا ، ويأخذون منه بمحك الذهب ـ كما نفعل ـ ويقومون بتفحصه ـ كما نفعل ـ فبعد أن يمتلىء المحك بالذهب يأخذون كرة من مخلوط يشبه الشمع ، وبهذه الكرة يضغطون على محك الذهب ، ليعرفوا به ان كان هذا ذهبا جيدا أم من نوعية غير جيدة • وعندما تتشبع الكرة بالذهب يخرجون الذهب الذى اختبره المحك • وهؤلاء الصرافون في الغاية من الدقة في عملهم •

وعندما يرغب أحد التجار في بيع البضائع أو شرائها ، فان ذلك يكون دائما عن طريق الوسيط (السمسار أو الدلال) • وعندمـا يرغب البائع والمشترى في عقد صفقة فان التجار يقفون على هيئة حلقة ، ويمسك السمسار بقطعة قماش مبسوطة في احدى يديه ، ثم يمسك يد البائـع اليمنى من الاصبعين الذين يليان الابهام ، ثم يغطى اليدين (يد البائع ويد السمسار) بقطعة القماش آنفة الذكر • وتتلامس يداهما تحت القماش بهذين الاصبعين ، ثم يشرعون في العد من دوكات واحد الى مائـة الف دوكات ، سرا (دون أن يسمعهما أحد) ، ودون أن يقولوا هذا كثير ، وانما بمجرد لمس عقد (مفاصل) الأصابع ، يفهمون السعر ، ويقول الواحد منهما : « نعم » أو « لا » ، وتكون اجابة السمسار : « نعم » أو « لا » • وعندما يتحقق السمسار من رغبة البائع يذهب للمشترى ومعه قطعـة القماش نفسها ، ويخبره بطريقة اللمس ذاتها والآنف ذكرها ، بالمبلغ المطلوب ، فيخبره المشترى بطريقة اللمس ذاتها « اننى سأدفع له كثيرا » • وبهذه الطريقة يحددون السعر • واذا كانت البضاعـة التى يتفاوضون بشأنها بهارات spices ، فانهم يقدرونها بالبهار (وحدة وزن) وهو يزن ثلاثة قناطير من قناطيرنا (الأوربية) واذا كانوا يتعاملون في أثواب القماش تعاملوا بالعـد بالعشرين ، والشيء نفسه ان كانوا يتعاملون في الجواهر والكوريا تعنى الرقم ٢٠ ، وقد يتعاملون بالفاراسولا Farasola وهى تزن خمسا وعشرين ليرا Lire ايطالية (٥٤) •

---

(٣٤) أسماء هذه المكاييل والموازين ليست مالاوية ـ كما أخبرت ـ رغم أننى أظن انها ما زالت تستخدم بين العرب الذين يترددون على ساحل المالابار وكلمة بهار عربية تشير عادة الى ما وزنه ثلاثمائة رطل ، ويذكر بعض المعجميين العرب أن الكلمة قد تكون من أصل قبطى ، بينما يرى برنسيب Prinsep انها قد تكون هندية مشتقة من بهارا bhara =

كيفية اطعام البوليارى ، والهيرافا ، أطفالهم

نساء طبقتى البوليـارى والهيرافا ، يرضعن أطفالهن حـوالى ثلاثة أشـهر من أثدائهن ، ثم يطعمنهم ألبـان الأبقـار والماعز • وفى الصباح يطعمنهم بشراهة (يحشينهم حشـوا) دون غسل وجوههم أو أبدانهم ثم يضعنهم فوق الرمال ويغطينهم بها ، ويظلون كذلك حتى المســاء • لذا فالسواد شائع بينهم ، ولا يمكن تمييزهم عن عجول الجاموس الصغيرة أو الدببة ، فهؤلاء الأطفال يبـدون كائنات مشوهـة ، وكأنما أطعمهـم الشيطان • وتقدم أمهاتهم لهم الطعام مرة ثانية فى المساء • وهؤلاء الناس هم أمهر شعوب العالم فى القفز والجرى •

ويتحتم على ألا أهمل ذكر أنواع الحيوانات والطيور المختلفة فى كلكتـا ، خاصـــة الأســود والخنـازير البرية والذئاب والجاموس والماعز والأفيال (التى يجلبونها من أماكن أخرى لأنها غير متوفرة هنا) وأعداد كبيرة من الطواويس البرية ، وأعداد غفيرة من الببغاوات الخضر ، وبعض أنواع الببغاوات الحمر • ونظرا لكثرة الببغاوات كثرة هائلة فمن الضرورى حراسة الأرز حتى لا تلتهمه • والواحـد من هذه الببغـاوات يساوى أربعة كاترينات ، وشدوها رائع • وقد رأيت هنا أيضا نوعا آخر من الطيور يسمى سارو Saru (٣٥) ، وشدو هذه الطيور أفضل من أصوات الببغاوات الا أنها أصغر منها حجما • وثمة أنواع أخرى كثيرة من الطيور هنا ، تختلف عن الطيور التى نعرفها فى أوروبا • وعليكم أن تعلموا أنه خلال ساعة الصباح وساعة المساء ، ليس هناك ما هو أكثر

Lane's Arabic English Lexicon, Sub voce Bahâr, and: انظر) baha او =
Prinesep's Useful ıables part 1, p. 76 Calcutta 1834).

ويذكر كروفورد Crawfurd انهـا (بهارا) وهى وحدة الوزن الوحيدة التى دخلت منطقة الأرخبيل عن طريق العرب ، وكانت لا تزال مستخدمة بين أهل ملقى عندما وصلها البرتغاليون

(Descriptive Dictionary of the indian Islands sub voce : Weights.).

ويذكر هاملتون أن الباهار كوحدة وزن استخدم فى أنحاء مختلفة من جزر الهند الشرقية على ايامه
(Pinkerton Voyages Vol. VIII, p. 518.)

أما الكوريا Curia فهى بلا شك تقابل الكوراجا Koraja ، أما الفوراسولا Forasola فهى جمع فارسالا Farsala وكلاهما يستخدمه العرب على سواحل البحر الأحمر والخليج الفارسى ، لكننى لا اعرف أصلهما ، وان كان الاسم الأخير يبدو أنه مطابق لكلمة Forasola التى هى تحريف لكلمة Parah وهذه الأخيرة وحدة وزن هندية قديمة كانت شائعة فى مختلف أنحاء الهند كما كانت مكيالا للحبر وغيره • أما الكوراجا فتعنى الرقم ٢٠ وتستخدم فى عد بالات جلود الحيوان والاقمشة •••• الخ • فكل لفة قماش او بالة جلد تحوى الواحدة منها عشرين قطعة • وكانت تكتب جورج (جمع : جورجات) فى قوائم البضائع المشتراة فى المخا (باليمن) سنة ١٦١٢ •• •• (بادجر) •

(٣٥) يقول بادجر : ربما كانت الكلمة من الفارسية Sar وهو طائر الزرزور •

بهجة فى هذا العالم من اصاخة السمع لشدو هذه الطيور ، فكأنكم فى الفردوس فالأشجار كثيرة ، والخضرة دائمة ، ولا برودة قارسة ولا حرارة لافحة .

ويوجد هنا أعداد هائلة من القرود ويساوى الواحد منها أربعة كاسات Casse والكاس الواحد يعادل كاترينو واحد Quattrino . وتلحق هذه القرود أضرارا كبيرة بالفقراء الذين يشتغلون بصناعة النبيذ (٣٦) لأنها تتسلق أشجار الكاكاو وتشرب ما بها من سائل ، وتلقى بالقوارير التى لا تستطيع شرب ما بها .

الحيات (٣٧) فى كلكتا

فى كلكتا نوع من الحيات أضخم من الخنزير الكبير ورأسها أكبر من رأسه بكثير ، ولها أقدام أربع وطولها أربع برازات (٣٨) braza . وهو يوجد فى مستنقعات معينة . ويقول أهل كلكتا انه لا اسم لها ، الا أنها حيوانات شريرة تلحق بأسنانها الضرر بالناس . وثمة ثلاثة أنواع أخرى من الكائنات اذا عضت شخصا عضة بسيطة ، سحبت دمه وسقط على الأرض مفارقا الحياة . وغالبا ما كان يحدث هنا ، أثناء وجودى بهذه البلاد ، أن لدغت هذه الكائنات أشخاصا عديدين . والنوع الأول من هذه الكائنات يشبه الأفعى الأصم ، والنوع الثانى هو العقارب والنوع الثالث هو الشريس thrice ، وحجمه كحجم العقرب . ويجب أن تعلم أنه اذا علم ملك كلكتا بمكان احدى مستعمرات (أعشاش) هذه الكائنات المؤذية ، أقام فوقها منزلا صغيرا خوفا من تلويثها الماء واذا قتل أحد الأشخاص احدى هذه الكائنات أعدمه الملك فى الحال ، ويسرى الحكم نفسه على كل من قتل بقسرة . فهم يقولون أن هذه الحيات (المقصود الكائنات المؤذية : حيات ، عقارب ... الخ) هى أرواح الله ، والا لما أعطاها الله مثل هذه القوة التى تمكنها بعضة بسيطة أن تورد الشخص موارد التهلكة فى الحال . لذا فهناك عدد معين من هذه الكائنات يعرفها الوثنيون ولا يتحاشونها . وفى الفترة التى كنت فيها فى كلكتا دخلت احدى هذه الكائنات منزلا بالليل ولدغت تسعة أشخاص ، وفى الصباح

---

(٣٦) المقصود نبيذ شجرة الكاكاو (التودى Toddy) وقد اشار فارتيما اليه فى فصل سابق .

(٣٧) أدرج فارتيما فى هذا الفصل : العقارب ، والتماسيح ، وغيرها من الحيوانات والحشرات السامة ، وفارتيما يطلق على كل هذا اسما شاملا هو Serpents . لذلك لزم تنبيه القارىء — (المترجم) .

(٣٨) المقصود هنا هو التمساح — (بادجر) .

وجدوا جميعا أمواتا ومتورمين · وعندما يصادف أحد الوثنيين أيا من هذه الكائنات المؤذية ، أثناء قيامه برحلة ، اعتبر ذلك فألا حسنا ·

الاضاءة فى منزل ملك كلكتا

بمنزل ملك كلكتا ، غرف عديدة تضاء حالما يحل المساء بمصابيح أنبوبية كالمزهريات على هيئة نافورات ، يبلغ تعدادها عشرا أو اثنتى عشرة ، من سبائك معدنية ، وارتفاع المصباح (النافورة) منها ارتفاع قامة رجل · ولكل من هذه المزهريات النافورية ثلاثة تجويفات لوضع الزيت على ارتفاع شبرين من الأرض · والطبقة الأولى من هذا المصباح (النافورة) بها زيت وفتائل قطن مضاءة ، دائرية تماما ، وفوق هذه الطبقة يوجد طبقة أخرى أكثر ضيقا من مصباح الطبقة الأولى (الأقرب للأرض) ومضاءة بالطريقة ذاتها ، وفى قمة المصباح (النافورة) توجد طبقة أخرى أصغر من الثانية يشتعل فيها الزيت · وقاعدة هذه النافورة ذات المصابيح الثلاثة مثلثة الشكل ، وعلى وجه من وجوهها ، ثلاثة شياطين بالنحت البارز ، ذوو منظر مرعب · هذه هى الحوامل التى تضيء أمام الملك · ولهذا الملك عادة أخرى، فعندما يموت واحد من ذوى قرباه ـ ينتظر حتى تنتهى سنة الحداد ، ثم يدعو كل رؤساء البراهمة فى مملكته ، وبعض البراهمة من خارج مملكته ليقيموا حفلا كبيرا لثلاثة أيام · ويتكون طعامهم من الأرز ـ الذى يطبخونه بطرق مختلفة ـ ولحوم الخنازير البرية ، وقدر كبير من لحم الغزال ، فهم صيادون مهرة · وبعد انقضاء الأيام الثلاثة يقدم الملك لكل رئيس برهمى ثلاثة بارادیات Paradai وأربعة وخمسة ، ثم يعود كل الى منزله ، ويقوم كل فرد من أفراد المملكة بحلق ذقنه ابتهاجا ·

كيف اتى عدد كبير الى كلكتا فى ٢٥ ديسمبر لتلقى الغفران ؟

ثمة معبد فى وسط بركة بالقرب من كلكتا ، على طراز معمارى قديم ، به صفان من الأعمدة ، ويشبه كنيسة القديس جيوفانى فى فونت بروما (٣٩) · وفى وسط هذا المعبد ، مذبح حجرى تقدم فيه الأضحيات ·

---

(٣٩) ربما كان هو المعبد الذى زاره جاما فى طريقه من باداران Padarane الى كلكتا بست سنوات ··· (بادجر) ·

وبين كل عمودين من أعمدة الحلقة الدنيا تنتصب بعض تماثيل حجرية لسفن ، وطول كل سفينة حجرية خطوتان • وهى مملوءة بزيت خاص يقال له انا Enna (٤٠) وحول حواف البركة أعداد كبيرة من الأشجار من نوع واحد ، عليها مصابيح زيتية كثيرة جدا بحيث يصعب احصاؤها ، وحول المعبد نفسه توجد مصابيح زيتية كثيرة كثرة هائلة كتلك المعلقة على الأشجار • ولما حل اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر أتي الى هنا النيرى Naeri والبرهميون ـ بعد أن يكونوا قد قطعوا رحلة مدتها خمسة عشر يوما ، كما يقال ـ لتقديم أضحياتهم (فى هذا المعبد) • ويقومون جميعا بالاغتسال فى هذه البركة قبل تقديم الأضحيات • ثم يعتلى كبير براهمة الملك احدى السفن الحجرية الصغيرة وهو منفرج الساقين ، حيث يوجد الزيت ، ويتقدم كل هؤلاء الى البرهمى ليمسح رءوسهم جميعا بهذا الزيت ، ثم يقدمون أضحياتهم على المذبح اذ يوجد عند أحد طرفيه شيطان كبير جدا يتوجهون اليه جميعا بالعبادة ثم يعودون من حيث أتوا • وفى هذا الموسم تباح الأرض لثلاثة أيام فهم لا يستطيعون الانتقام من بعضهم (لا يستطيعون الأخذ بالثار) والحق أقول ، اننى لم أر مثل هذا الجمع العظيم من الناس فى وقت واحد ، باستثناء ما رأيته فى مكة المكرمة • يبدو لى أننى شرحت لكم بما فيه الكفاية عادات أهل كلكتا وطرائق معيشتهم وعقائدهم وأضحياتهم • ولأنى بصدد مغادرتها ، فسأقص لكم خطوة خطوة بقية رحلتى وكل ما حدث لى خلالها •

---

(٤٠) ربما كانت من كلمة نه Neh وهى احدى الألفاظ السنسكريتية التى تطلق على الزيت مضافا اليها أداة التعريف العربية (ال) التى تنطق أحيانا (ان) فى حالة الادغام ـ (بادجر) •

السِّفْرُ السَّابِعُ

وهو السفر الثالث عن الهند

كان من رأى رفيقى خوجة ذو النور Cogiazenor (١) أنه لن يستطيع بيع بضائعه لأن الملك البرتغالى خرب كلكتا Calicut ، فالتجار الذين كانوا قد تعودوا التردد عليها ، لم يعودوا يفعلون ذلك ، وليس من المتوقع أن يأتوا مرة أخرى ، لأن ملك كلكتا وافق على رأى المسلمين باعدام أربعة وثمانين برتغاليا ، رأيتهم بعينى وهم يعدمون . فالملك البرتغالى فى حالة حرب دائمة ، انه كل يوم يقتل ويقتل أعدادا كبيرة . ولذلك فالمدينة آنفة الذكر قد خربت لأنها فى حالة حرب دائمة (٢) . ولهذا فقد غادرناها ، بالطريق النهرى . وحقا انه لنهر جميل ، بل أكثر الأنهار التى رأيتها جمالا ، ووصلت لمدينة يقال لها كاكولون Cacolon (٣) تبعد عن

---

(١) يبدو أنه الشخص نفسه الذى تعرف عليه فارتميا فى مدينة شيراز ، واتخذه رفيقا — (بادجر) .

(٢) رغم أن زامورين Zamorin قد استقبل لأول مرة فاسكو دى جاما بترحاب الا أن المسلمين من أهل البلاد عامة — والعرب الوافدين خاصة ، الذين كان لهم تاثير كبير على بلاط الملك ، والذين كانوا يخشون على تجارتهم من المنافسة البرتغالية — بذلوا قصارى جهدهم لتغيير وجهة نظر الملك . ونتيجة هذا فقد غادر فاسكو دى جاما دون وضع أسس علاقات تجارية مع كلكتا . وبعد ذلك بعامين ، نجح بدرو كابرال Cabral فى تأسيس محطة تجارية هناك لكن ... التجار المكيين رفضوا تقديم أى بضائع لها ، وحرضوا على الهجوم على المحطة ، فتم تدميرها تماما ، وقتل عدد كبير من البرتغاليين . وكرد فعل ضد هذا الهجوم ، قصف كابرال المدينة بالمدافع ، كما الحق البرتغاليون بقيادة جوان دى نيفا Juan ée Nueva الهزيمة باسطول زامورين . وظهر فاسكو دى جاما فيما بين ١٥٠٢ و ١٥٠٣ مرة أخرى أمام كلكتا وحاصر خمسين من المالاباريين Malabarians فى البحر وشنقهم على سفنه . ثم أمر بارسال أيديهم واقدامهم المبتورة الى البر ، وبعد ذلك قصف كلكتا بمدافعه لعدة ساعات فحطم عددا من المبانى من بينها قصر زامورين . وفى سنة ١٥٠٥ قدم الى كلكتا لوب سوورز Lope Soarez باسطول من ثلاثين سفينة ، وبهذه المناسبة سلم له الملك زامورين بعض الأسرى الذين وقعوا فى الأسر فى الحروب السابقة لهذا القائد البرتغالى ، الا انه قصف المدينة طوال يومين ، لأن بقية الأسرى لم يسلموا له ، ودمر جانب كبير من المدينة من جراء هذا القصف ، كما قتل ثلاثمائة من سكانها . واذا وضعنا فى الاعتبار ان فارتيما يجب ان يكون فى كلكتا فى ذلك الوقت ، فانني اظن أن هناك احتمالا كبيرا أن يكون البرتغاليون الثمانية والأربعون الذين رآهم قتلى ، كانوا هم بأعينهم الأسرى الذين لم يسلموا الى لوب سوارز Soarez . (أنظر : (Greene's Collection of Voyage, Vol. 1, pp. 29-57.

(٣) لم تمكنى الخرائط لسوء الحظ من أن أقرر ما اذا كان الابحار داخل البر ممكنا عمليا فى اتجاه الجنوب بدءا من كلكتا ، أم لا ، ولم يحدثنا هورسبرج Horsburgh عن هذه المسألة بالذات ، الا أنه اذا كان أطلس كيث جونستون الهيدروجرافى Keith Johnston's Atlas صحيحا ، فان هناك اتصالا مائيا مستمرا ، تكونه الأنهار المختلفة =

كلكتا خمسين فرسخا (٤) ٠

وملك كاكولون وثنى ولا يتمتع بثراء كبير ٠ أما عن أسلوب الحياة فيها ، وطريقة اللباس ، والعادات والتقاليد ، فجميعها على غرار ما فى كلكتا ٠

ويصل الى هنا تجار كثيرون لأن مساحات هائلة تزرع بالفلفل ، وهو من نوع جيد ٠ وفى هذه المدينة وجدنا بعض المسيحيين التابعين للقديس توما St Thomas ، وبعضهم تجار ، وعقيدتهم فى السيد المسيح (عليه السلام) كعقيدتنا ٠ وهم يقولون انه كل ثلاث سنوات يأتيهم من بابيلون Babylon قس (كاهن) لتعميدهم ٠ وهؤلاء المسيحيون يصومون الصيام الكبير Lent مدة أطول من المدة التى نصومها ، الا أنهم يحتفلون بعيد الفصح Easter مثلنا ، ويحتفظون له جميعا بالقدر نفسه من الاجلال والتقديس ، الذى نحتفظ نحن به لهذا العيد ، غير أنهم يرتلون التراتيل الدينية بشكل جماعى كما يفعل اليونانيون ٠ وأسماؤهم أربعة هى جون وجيمس وماثو Matthew وتوماس Thomas (٥) ٠ ولا تختلف هذه

= والمصبات التى تجرى بمحاذاة الساحل ، ممتدة من بانان Panane لمسافة ثمانية وعشرين ميلا الى الجنوب من كلكتا وحتى كويلون Quilon التى تقع على بعد درجتين تقريبا من بانان Panane ٠ وهذه الحقيقة تؤيد الى حد ما قول فارتيما أنه قد سلك فى رحلته الى هذه المنطقة نهرا ، الا أننى أميل الى الظن أنه ربما سلك مجرى موسميا مختصرا جدا الى البحر من مصب نهر الى مصب نهر آخر ٠٠٠٠ (بادجر) ٠

(٤) لقد بحثت عبثا عن هذا الموضع فى Thornton's Gazetteer ٠ ووجدت الاسم مكتوبا هكذا Kayan Kulam فى أطلس Keith Johnston ، الا أن Quilon أيضا كانت دلالتها (تحديدها) خاطئا ٠ فالموضعان محددان ، ويبدوان دائما ، ولكل واحد منهما اسم مميز عن اسم الموضع الآخر ٠ وقد قال باربوسا Barbosa (بعد فارتيما بسنوات قلائل) : « بعد تجاوز الموضع المشار اليه (يقصد بورصا Porca) تبدأ مملكة كولان Coulan وأول موضع يواجه المسافر هو كانكولان Caincoulan الذى يسكنه كثيرون من الوثنيين Gentiles والمسلمين والمسيحيين المؤمنين بمذهب القديس توما Saint Thomas ويعيش عدد كبير منهم (أى من المسيحيين) بين الوثنيين فى المناطق الداخلية ، وينمو الفلفل الأسود بوفرة فى هذا الموضع وتشحنه أعداد كبيرة من السفن » ٠ أما بالدوز Baldaeus فيصف كانكولام Kayan Kulam بعد ذلك بحوالى قرن ونصف ، على هذا النحو : « والمملكة التالية المجاورة لبورسا porca ليست مترامية الأطراف ، وللهولنديين مركز تجارى بها ، أما هاملتون الذى كتبها على هذا النحو Coilcoloan فيقول « انها امارة صغيرة تشترك فى الحدود مع بوركة Porkah' ٠ وهذان المؤلفان الأخيران ذكرا كولون Quilon أيضا ، والأول منهما كتبها هكذا Coulany ، أما الآخر فكتبها هكذا Coilan ـ (بادجر) ٠

(٥) لو أن فارتيما ذكر هذه الأسماء كأمثلة لما يسمى به هؤلاء المسيحيون مواليدهم ، لكان أكثر دقة ، وربما كان هذا (أى ضرب الأمثلة) هو ما يقصده ٠ ومن الصعب أن نقرر من خلال الروايات الناقصة والأحكام المسبقة مذهب هؤلاء المسيحيين أو أن نقرر ما اذا كانوا يتبعون مذهبا واحدا أو مذاهب مختلفة ٠ فملاحظات فارتيما عنهم موجزة جدا ، =

المنطقة فى طبيعتها وهوائها وموقعها عما هو فى كلكتا • وفى نهاية اليوم الثالث غادرنا هذه البلدة وذهبنا الى مدينة أخرى يقـال لها كولون (٦) Colon تبعد عن كالكون عشرين ميلا • وملكها وثنى ، وهو قوى جدا ، فلديه ٢٠٫٠٠٠ فارس وعدد كبير من رماة السهام ، ولا يكف عن خوض غمار الحـرب مع غيره من الملوك • ولهذه المنطقة ميناء جيـد • ولا تنمو الغلال هنا ، الا أن الفاكهة والفلفل الأسود يزرعان بمساحات شاسعة كما هو الحال فى كلكتا • أما عن ألوان سحن هؤلاء الناس وطريقة لباسهم وأسلوب حياتهم وعاداتهم ، فهى جميعا كما فى كلكتا • وفى الوقت الذى زرت فيه هذه المدينة ، كان ملكها صديقا لملك البرتغال فى الوقت الذى كان فيه يخوض الحروب مع الملوك الآخرين ، فكان من الخير مغادرة هذا المكان ، فاتخذنا سبيلنا بحرا لمدينة يقال لها شايل Chayl (٧) تابعـة لملك كولون Colon نفسه وتبعد عنها خمسين ميلا • وقد رأينا الناس يصطادون اللؤلؤ هنا ، بالطريقة ذاتها التى وصفتها لك عند حديثى عن هرمز •

= وما قاله ينطبق بدرجة واحدة على اليعاقبة السوريين أو النساطرة ، باستثناء ملاحظته عن بابليون ، فاذا ما ذكره صحيحا (أو كان خطؤه فى اسم الموضع أقل من خطئه فى تعريف المذهب) فلاشك أن ذلك يوجد علاقة بين هؤلاء المســيحيين الذين قابلهم فى كاكولون Cacolon بمدينة بابيلون • فالكاثوليك أو بطراركية بابيلون هما مسميان غامضان لأسقفية النساطرة أثناء وجودها فى المراكز الملكية (المقار الملكية) فى Seleucia و Ctesiphon وبغداد (على التوالى) ، وفى وقت يرجع الى انشاء البطرياركية النسطورية فى بغداد ، التى كانت مقرا للبطريارك اليعقوبى فى ذلك الوقت ، ولا يزال هذا البطريارك يتخذ من ماردين Mardin فى العراق مقرا له • وفى أيامنا هذه فان مسيحيى الملابار ــ كما يسمون عادة ــ منقسمون الى قسمين متميزين عن بعضهما البعض ، أحدهما تابع الأسقفية البطرياركية الكلدانية Chaldean Patriarch فى الموصل (الكلدانيون اسم يطلق على النساطرة فى تركيا وفارس ، الذين أعلنوا تبعيتهم لكنيسة روما) ، والأخرى تقر بالبطرياركية السورية اليعقوبية فى ماردين ••• الخ ــ (بادجر) •

(٦) وهى مدينة كويلون Quilon المعاصرة وتقع فى ولاية ترافانكور Travancore الوطنية ، على ساحل البحر ، فى منعطف يمكن السفن من الرسو فى حماية طبيعية تمتد حوالى ميلين ونصف أو ثلاثة أميال من الحصن •••• الخ ــ (بادجر) •

(٧) لا يظهر هذا الاسم على الخرائط ، لكن بمقارنة ما كتبه فارتيما بما كتبه باربوسا Barbosa نستنتج أنها هى نفسها المدينة التى أشار لها هاملتون باسم كويل Coil والتى حددها ــ أى هاملتون ــ الى الشمال الشرقى من توتيكارين Tutecareen ••• التى كانت مشهورة بصيد اللؤلؤ •

كيورماندل Ciormandel

المدينـة الهندية

ثم تقدمنا حتى وصلنا لمدينة كيورماندل (٨) وهى منطقة بحرية ، تبعد عن كولون سبعة أيام بالطريق البحرى ، وقد يزيد طول الرحلة اليها قليلا أو ينقص قليلا وفقا لمدى مواءمة الرياح • وكيورماندل مدينة كبيرة جدا ، ولا يحيطها سور ، وهى خاضعة للملك نارسنجا Narsinga ، وتقع كيورماندل قبـالة جزيرة زيلون Zeilon بعد تجاوزك رأس كيوميرين Gumerin • وفى هذه الولاية يحصـدون كميات كبيرة من الأرز ، وهى طريق (معبر) لبلاد ومناطق واسعة عظيمة • ويوجد هنا عدد كبير من التجار المسلمين يترددون عليها لجلب بضائعها • وليس ثمة بهارات من أى نوع تنمو هنا ، وان كانت غاصة بالفاكهة ، كما هو الحال فى كلكتا • وقد وجـدت بعض المسيحيين فى هذه الولاية ، وقد أخبرونى أن رفات القديس توماس Thomas موجود على بعد اثنى عشر ميلا من هذه المدينة ، وأنه تحت حراسة بعض المسيحيين ، كما أخبرونى أن المسيحيين فى هذه المنطقة سوف لا يستطيعون الحياة فيها بعد أن قدم ملك البرتغال بقواته اليها ، لأنه أعدم عددا كبيرا من المسلمين الذين ترتعد فرائصهم منذ ذلك الوقت خوفا من البرتغاليين، لذلك فهؤلاء المسيحيون البؤساء لن يستطيعوا البقاء هنا بعد ذلك ، لأن المسلمين يستدرجونهم بعيدا ويقتلونهم سرا حتى لا تصل أنبـاء قتلهم للملك نارسنجا Narsinga باعتباره صديقـا حميما للمسيحيين عامة ، والبرتغاليين منهم على نحو خاص • وقد أخبرنى واحد من هؤلاء المسيحيين أيضا بمعجزة مبهرة جدا أخبره بها قسيسه ومؤدى هذه المعجزة أنه منذ خمسة وأربعين عاما اشتبك المسلمون مع المسيحيين ، وكان هناك جرحى من الطرفين ، ولكن أحد المسيحيين كان مضابا فى ذراعه بجرح بليغ أخطر من جروح الآخرين ، فذهب الى قبر القـديس توماس ولمسه بذراعه الجريحة فشفى فى الحال (٩) ، ومنذ ذلك الوقت تعاطف

---

(٨) لا أعلم أن مدينة بهذا الاسم قد وجدت فى أى وقت على الساحل المشار اليه ، وعلى هذا فقد انتهيت الى الاستنتاج بأن فارتيما يعطى اسم الولاية للمدينة الواقعة بهـا كما فى هذا المثال وكما فى حالة بيجابور Bijapur التى أسماها الدكن Decan (بادجر) •

(٩) انها معجزة بسيطة اذا قورنت بمعجزات أخرى كثيرة منسوبة لضريح القديس توماس • فقد ذكر باربوسا Barbosa روايات كاذبة عن أن الذراع اليمنى لهذا القديس (النبى) تخرج من قبره فى ماليابور Maliapur وظلت لفترة طويلة تستعصى على كل محاولة لدفنها ــ (بادجر) •

ملك نارسنجا مع المسيحيين • وقد باع رفيقي في الرحلة بعضا من بضائعه هنا ، ولأن الحرب كانت مستعرة مع ملك تارناساري Tarnasari فلم نمكث هنا سوى أيام قلائل ثم استقللنا سفينة مع بعض التجار الآخرين ، وكانت سفينتنا من النوع المسمى سمبان Sampan (١٠) لأن قيعانها مسطحة (مستوية) ، وأخذنا معنا قليلا من المياه وكثيرا من البضائع •وعبرنا خليجا يبلغ اثنى عشر أو خمسة عشر فرسخا حيث عانينا ولحقت بنا أضرار كثيرة لوجود كثير من المياه الضحلة والصخور ، وعلى أية حال ، فقد وصلنا لجزيرة اسمها سيلان (١١) ، محيطها حوالى ألف ميل ، وفقا لتقديرات سكانها •

جزيرة سيلان
حيث يستخرجون الجواهر

في جزيرة سيلان Zailon هذه ، أربعة ملوك (١٢) ، كلهم وثنيون• ولا أصف لك كل ما في هذه الجزيرة ، لأن ملوكها كانوا يحارب بعضهم • بعضهم الآخر ، لذلك لم نستطع الاقامة طويلا ، وبالتالى لم نستطع أن نرى أو نسمع بشكل كاف ، الا أنه في الأيام القلائل التى مكثناها رأينا ما نقصه عليك • وفي البداية نقول لك ان الأفيال توجد هنا بأعداد هائلة (١٣) • وقد رأينا أيضا الياقوت الأحمر rubies ، على بعد ميلين من ساحل البحر ، حيث يوجد جبل شاهق ، ممتد امتدادا كبيرا ، وعند سفحه يوجد الياقوت الأحمر ، الآنف ذكره • وعندما يرغب أحد التجار في البحث عن هذه الجواهر (الياقوت الأحمر) فلابد له أن يطلب ذلك من

---

(١٠) اسم شائع لنوع من الزوارق فى الملايو وجاوا (بادجر) • أقول : وهناك نوع من هذه الزوارق فى الخليج العربى وعمان وسواحل البحر الأحمر الشرقية يقال له (سنبوك) وتبدل النون ميما هكذا (سمبوك) عند النطق ، وربما كان هو المقصود هنا — (المترجم) •

(١١) كتبها فارتيما هكذا : Zailon — (المترجم)

(١٢) ذكر ماركو بولو أن عدد ملوك سيلان على أيامه كانوا — أيضا — أربعة ، وقد كتب السير ج ١٠ • تينلت سنة ١٥٠٥ ما يؤكد ذلك فقد ذكر أن كل السواحل فى أيدى المسلمين ، أما الجزء الشمالى ففى أيدى الملاباريين وعاصمة دولتهم جافنا باتان ، أما المنطقة الوسطى فمقسمة الى كيانات قبلية ويوجد كيان سياسى آخر فى الجنوب عاصمته كوتا ••• (مختصر عن بادجر) •

(١٣) بدأت الأفيال تتناقص بعد ذلك — (عن بادجر) •

الملك قبل أن يشرع فى البحث ، وأن يشترى برازا braza مربعة من أرض سفح الجبل (البرازا تسمى مولان Molan) (١٤) مقابل خمس دوكات • ويتعين على التاجر أن يبقى فى بلاط الملك ، عندما يشرع رجاله فى حفر الأرض بحثا عن الياقوت الأحمر ، فاذا تم العثور على جوهرة تزيد على عشرة قراريط كانت من حق الملك ، أما باقى الجواهر التى تقل الواحدة منها عن القراريط العشرة ، فمن نصيب التاجر • ويستخرج أيضا بالقرب من الجبل آنف الذكر حيث يوجد نهر كبير للغاية (١٥) — كميات كبيرة من العقيق الأحمر garnets والياقوت الأزرق Sapphires والياقوت الوردى Jacinths والياقوت الأصفر ropazas (١٦) • وفى هذه الجزيرة تنمو أفضل فاكهة ، فلم يسبق لى أن رأيت أفضل منها ، خاصة بعض الحرشف artichokes (١٧) فهو أفضل مما فى بلادنا •

والبرتقال السكرى هنا هو أفضل أنواع البرتقال فى العالم ، كما أعتقد ، وهنا فواكه أخرى كثيرة كالتى فى كلكتا ، الا أنها هنا أفضل •

شجرة القرفة
Canella

شجرة القرفة تشبه شجرة الغار (١٨) خاصة فى أوراقها ، وتثمر بعض الثمرات العنبية كالغار ، الا أن ثمراتها هذه أقل حجما من الرند (الغار) وأكثر شحوبا منه • والقرفة آنفة الذكر (Canella or Cinnamon) هى لحاء هذه الشجرة • وهم يقطعون فروع أشجار القرفة هذه كل ثلاث سنوات ، وينزعون لحاءاتها عقب ذلك ،

---

(١٤) البرازا تساوى فدانين انجليزيين ، أو أربعة رودات roods مربعة ، والرود كما فى معجم المورد مقياس لمساحة الأرض يساوى ربع أكر (فدان انجليزى) ، ومقياس للطول يساوى ٧ أو ٨ ياردات أو ٣٧٪ بوصة مربعة — (عن بادجر ، ومعجم المورد) •

(١٥) ربما كان هو نهر كالينيجوجا Kalané-gauga الذى وصفه بردهام Pridham « انه النهر الرئيسى فى الجزيرة •• ويتكون مجراه من سيول عديدة تشكل منبعه فى القسم الغربى من سلسلة جبال سفراجام Saffragam عند لقائها مع قمة آدم ••• (بادجر) •

(١٦) هذه الأنواع ، بالاضافة لأنواع أخرى ، عددها ووصفها تيننت فى مرجعه عن سيلان Vol. 1. pp. 33-38.

(١٧) بقل معروف من المركبات الأنبوبية الزهر ، وأسموه الخرشوف حديثا ، ويسمى فى الشام أنكنار ، وأرضى شوكي وهما عاميتان •

عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية — (المترجم) •

(١٨) الغار أو الرند ينبت بريا ويصلح للتزيين ، ومن أنواعه Lourel oak أى البلوط غارى الورق ، وقد يكون هو المقصود هنا • عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية — (المترجم) •

الا أنهم لا يقطعون سوق هذه الأشجار بأية حال • وتنمو أشجار القرفة هنا بأعداد كبيرة • ولا تصبح القرفة من النوع الممتاز بعد مرور شهر على جمعها ، وقد أخبرني تاجر مسلم أنه فوق قمه هذا الجبل الشاهق كهف ، يذهب اليه أهل البلاد (من غير المسلمين) مرة كل عام للصلاة فيه لأن آدم (عليه السلام) — كما يقولون — كان يصلي ويكفر عن خطيئته فيه ، ولا زالت آثار قدميه ترى حتى أيامنا هذه ، ونشير آثار قدميه الى أن قدمه كانت تبلغ شبرين طولا (١٩) •

والأرز لا ينمو في هذه المنطقة وانما يستوردونه من بر الهند • وملوك هذه الجزيرة تابعون للملك نارسنجا • وهواء الجزيرة طيب ، وأهلها ذوو بشرة سمراء مصفرة • والمناخ هنا معتدل فلا هو ممعن في الحرارة ولا هو ممعن في البرودة • وملابسهم فضفاضة على النسق الروماني ، فهم يلبسون قطعا من النسيج القطني أو الحريري ، وهم حفاة • وتقع هذه الجزيرة تحت خط الاعتدال equinoctial Line ، وأهلها ليسوا مولعين بالحروب ، ولا تستخدم المدفعية هنا ، الا أن لديهم بعض الرماح الخيزرانية والسيوف ، وبهذه الأسلحة يقاتل بعضهم بعضا ، الا أنهم لا يقتلون بعضهم كثيرا ، فهم أنداد جبناء (٢٠) • ويوجد هنا ورود وزهور من كل نوع ، وأعمار الناس هنا ، أطول من أعمارنا ، وقد قدم الى سفينتنا ذات مساء ، رجل من بلاط الملك ، مرسلا لرفيقي ، وأخبره أن الملك يطلب منه احضار ما معه من مرجان وزعفران ، وكان مع رفيقي كميات كبيرة منهما • لكن تاجرا مسلما من هذه الجزيرة سمع هذا العرض ، فهمس في أذن رفيقي (٢١) ، وأسر اليه قائلا : لا تذهب للملك لأنه سيبادل بضاعتك الجيدة ببضاعته القديمة » وكان هذا مكرا من التاجر المسلم حتى يذهب رفيقي ببضاعته بعيدا ، فيتمكن هو من تصريف بضاعته ، فقد كان لديه النوع نفسه من البضاعة • وعلى أية حال فان رفيقي أخبر رسول الملك بأنه سيمر على بلاط سموه في اليوم التالي ، وعندما أشرق الصبح استقل سفينة أوصلته الى البر الرئيسي (البر الهندي) •

---

(١٩) قمة آدم يبلغ ارتفاعها ٧٫٤٢٠ قدما فوق مستوى سطح البحر ••• وعلى القمة توجد خطوه القدم المقدسة (سرى باندا) ، ويعتقد البوذيون أن آثار الأقدام هذه لجواتاما بوذا Buddha أما المسلمون فيقولون انها لآدم عليه السلام ويطلقون عليها (بابا آداماليى) أى (أبونا آدم) أما الهندوس المالاباريون فيقولون انها للاله شيفا Siva (مختصر عن بادجر) •

(٢٠) يبدو أن الأسلحة النارية لم تكن معروفة في سيلان زمن رحلة فارتيما وقد وصفهم ماركوبولو بأن أهل البلاد لا يصلحون أن يكونوا جنودا • (مختصر عن بادجر) •

(٢١) أى رفيقه الفارسي خوجه ذو النور الذى تعرف عليه في مكة المكرمة ، وقابله في فارس ، وصحبه الى الهند — (المترجم) •

باليكت

احدى مناطق الهند

وصلنا فى غضون أيام ثلاثة لمنطقة باليكت Paleachet (٢٢) التابعة لملك نارسنجا • وهذه المقاطعة احدى المناطق التى تمر بها كميات هائلة من البضائع خاصة الجواهر التى تصل الى هنا من سيلان وبيجو pego ويوجد هنا أيضا أعداد كبيرة من التجار المسلمين يتاجرون فى كل أنواع البهارات • وقد أقمنا فى بيت تاجر مسلم وأخبرناه بالموضع الذى قدمنا منه ، كما أخبرناه بأن معنا كميات كبيرة من المرجان نبغى بيعها ، وكميات كبيرة من الزعفران والمخمل المشجر ، وكثير من السكاكين • فلما علم بأن معنا كل ذلك غمرته السعادة • وتزخر هذه المقاطعة بكل ما تنتجه الهند ، الا أن الغلال لا تزرع هنا ، فلديهم وفرة كبيرة فى الأرز • أما عن قوانينهم وأساليبهم فى الحياة وعاداتهم فهى كالموجودة فى كلكتا • والناس هنا مقاتلون أولو بأس رغم أنهم لا يمتلكون المدافع • ولأن هذه المقاطعة كانت فى حالة حرب مع ملك تارناسارى ، فاننا لم نتمكن من البقاء لمدة طويلة ، فقد اتخذنا طريقنا ـ بعد أن مكثنا بضعة أيام ـ الى مدينة تارناسارى التى تبعد ألف ميل ، ووصلنا هنا بعد رحلة بحرية استغرقت أربعة عشر يوما •

تارناسارى Tarnasari

المدينة الهندية

تقع مدينة تارناسارى بالقرب من البحر ، وأرضها مستوية ، يمكن ريها بسهولة ، ولها ميناء جيد ، وملكها وثنى ، وهو ملك قوى للغاية فهو دائم الحرب مع ملك نارسنجا وملك البنغال • ولديه مائة فيل مدرع (مسلح) وهى أفيال ضخام لم أر أبدا أضخم منها • وهو يحتفظ بشكل دائم بمائة ألف مقاتل استعدادا للحرب ، بعضهم مشاة وبعضهم خيالة • وتتكون أسلحتهم من السيوف الصغيرة وبعض أنواع التروس ، جانب

---

(٢٢) مدينة فى ولاية شنجلبوت Chingleput الى الشمال من مدراس بحوالى ٢٢ ميلا ، وتقع على بحيرة ماء مالحة متصلة بالبحر ••• (عن بادجر) •

(★) لم يهتد د• فسكنت الى موضعها على الخرائط المتاحة له ، ولكنه استنتج أنها بين باليكت والبنغال ، وهو تحديد غير مجد لأن المسافة بين الموضعين أكثر من ألف ميل •• ولم يهتد بادجر اليها عند فحصه لخرائط الساحل الهندى الجنوبى •• (عن بادجر) ••

منها مصنوع من ظهور السلاحف كالتى رأيتها فى كلكتا • ولديهم كميات كبيرة من السهام والرماح والخيزرانية وبعضها من الخشب • وعندما يخرج هؤلاء المقاتلون للقتال فانهم يرتدون ملابس محشوة بالقطن • وبيوت هذه المدينة حسنة البناء ومسورة ، وموقعهـا ممتاز يلائم المسيحيين ، وتنمو الغلال الجيدة هنا وكذلك القطن ويتم تصنيـع الحرير بكميات كبيرة ، وتوجد هنا كميات كبيرة من الخشب البرازيلى ، أما الفاكهة فهى متوفرة وفرة هائلة ، وبعض هذه الفواكه تشبه تفاحنا ، ويوجد أيضا الكمثرى ، وبعض البرتقـال ، والليمون ، والأترجـة Citrons واليقطـين بكميات وافرة • ويرى المرء هنا بساتين جميلة جدا بها ما لذ وطاب •

الحيوانات المستأنسة والمتوحشة

فى تارناسارى

نجد فى تارناسارى الثيران والأبقار والضأن والماعز بأعداد كبيرة • كمـا توجد الخنـازير الوحشـية والأيائـل واليحامر (جمـع يحمـور roebucks) (٢٣) والذئاب وسنانير الزباد ، والأسود والطواويس بأعداد هائلة والصقور والبيزان (جمع باز) والببغاوات البيض ، وطيور أخرى ذوات ألوان سبعة فى الغاية من الجمال • أما الأرانب والحجـل (أو القبج) (٢٤) ، فلا تشبه ما عندنا • ويوجد أيضـا نوع من الطيور المفترسة ، أكبر من النسر بكثير ، والواحد منها له منقار (٢٥) ، جانبه العلوى كمقبض السيف ، ولونه أصفر وأحمر • ان له منظرا رائعا يسعد الانسان رؤيته •

أما عن لون الطائر ذاته فهو أسود وأحمر مع وجود بعض الريش الأبيض •

---

(٢٣) اليحمور ، ويقال له أيضا اليامور ، حيوان لبون من فصيلة الأيايل • عن معجم الشهابى — (المترجم) •

(٢٤) Partridges هو الحجل أو القبج وهى كلمة معربة عن اللغة الفارسية • والمفرد حجلة وقبجة ، والحجل على أنواع منها الدراج والأشهب والرومى • يتم صيده عن الشهابى — (المترجم) •

(٢٥) زودنى البروفيسور أوين الخبير بالمتحف البريطانى بأن المنقار الملون ينطبق على طائر اسمه العلمى Buceros gareatus وله اناء (سلطانية) كمغرفة (كبشة) من الجواهر كالتى كانت ترسل من استانبول وكانت جزءا من جواهر تاج السلطان • وعلى أية حال فهذا الطائر لم يعد موجودا الآن — كطائر متوطن — خارج جزر الأرخبيل الهندى • (ملخص تعليق بادجر) •

ويفرخون هنا الدجاج والديكة ، وهى كبيرة الحجم فلم أر دجاجا وديكة أكبر منها أبدا ، فالدجاجة أو الديك هنا أكبر من ثلاثه من الانواع التى نعرفها فى بلادنا • وفى هذه البلاد ، استمتعنا كثيرا خلال أيام قليلة ، بسبب بعض الأمور التى رأيناها ، خاصة أنه فى كل يوم يقوم التجار المسلمون باجراء مباريات لعراك الديكة حيث يراهن أصحاب هذه الديوك على مبالغ تصل الى مائة دوكات يحصل عليها صاحب الديك الأكثر براعة فى القتال • ولقد رأينا ديكين يقتتلان طوال خمس ساعات متصلة ، ومات كلاهما فى خاتمة المباراة • ويوجد هنا أيضا نوع من الماعز أكبر كثيرا من الماعز فى بلادنا (أوربا) وهى أكثر عطاء ، فالواحدة منها تلد دائما أربعا •

ويباع هنا عشرة أو اثنا عشر من الخراف الطيبة بدوكات واحد • ويوجد هنا نوع آخر من الخراف تشبه قرونها قرون الايل deer وهى أكبر من خرافنا ، وتتعارك بشراسة • ويوجد الجاموس هنا ، وهى أكثر تشوها مما عندنا • والمنطقة غنية بالأسماك الشبيهة بالتى عندنا • وقد رأيت هنا – على أية حال – عظمة سمكة تزن أكثر من عشرة قناطير(٢٦) وبالنظر لأسلوب الحياة فى هذه المدينة ، فان الوثنيين يأكلون كل أنواع اللحوم خلا لحوم الثيران • وهم يأكلون – وهم جالسون على الأرض مباشرة دون فراش – فى أوان خشبية جميلة للغاية • أما شرابهم فهو الماء ، ويحلونه اذا أتيح ذلك ، وينامون على أسرة عالية عليها حشيات قطنية ، ومغطاة بالحرير أو القطن •

وبالنسبة لملابسهم فهم يلفون حول أجسامهم أثوابا قطنية أو حريرية ، ويضعون جانبا منها على أكتافهم alla apostalica • وبعض التجار يلبسون قمصانا قطنية أو حريرية جميلة جدا • وبشكل عام يمشون حفاة ماعدا البرهميين الذين يضعون على رءوسهم أيضا طواقى من الحرير أو الوبر (؟) يبلغ طول الواحدة منها شبرين • وفى ذؤابة هذه الطاقية شيء كالبندقة ، مشغولة من مختلف جوانبها بالذهب •

وهم أيضا يضعون حول رقابهم شريطين من الحرير ، عرض الواحد منهما أكثر من عرض اصبعين • وهم يعلقون فى آذانهم أقراطا من جواهر ، ولا يزينون أصابعهم بشيء • وهم نصف بيض لأن الهواء هنا أبرد منه فى كلكتا ، أما عن الفصول والمحاصيل ، فكما هو الحال عندنا فى أوروبا (*) •

---

(٢٦) أنهار وبحار هذه المملكة (سيام) أكثر غنى بالسمك من أى نهر أو بحر آخر لأن الأنهار تفيض لستة أشهر مما يتيح غذاء للأسماك ، وربما كانت العظمة التى أشار لها فارتيما لسمك من نوع الحيتان Siray Whale (بادجر) •

ويختلف تقدير القنطار من مكان لآخر • وبشكل عام ١١٢ رطلا •

وهو الهندردويت الانجليزى hundred weight – (بادجر) •

(*) يقسم أهل البلاد السنة الى ثلاثة فصول : الحار والممطر والبارد وعلى أية حال فان درجة الحرارة تتفاوت تفاوتا شديدا ••• (عن بادجر) •

فض بكارة زوجة الملك
وسائر زوجات الوثنيين

ملك المدينة التي ذكرتهـــا آنفـــا لا يسمح للبرهميين Brahmins بفض بكارة عروسه ، وهو في هذا عكس ملك كلكتيا ؛ ولكنه ـ أي ملك تارناساري ـ يسمح للرجال البيض بذلك ، ســواء كانوا مسيحيين أو مسلمين • وهؤلاء الوثنيون ، يبحث الواحد منهم عن رجل أبيض من أي بلد كان ، ويصحبه الى بيته ، ليفض له بكارة عروسه قبل أن يبنى بها • ولقد حدث هذا لنا عند وصولنا لهذه المدينة ، فقد قابلنا بالصدفة ثلاثة تجار أو أربعة بدءوا يتحدثون مع رفيقي بهذا الشأن •

أحد التجار : ياصديق ، هل أنتم غرباء ؟

رفيقي : نعم

أحد التجار : كم يوما قضيتموها هنا ؟

رفيقي : وصلنا هنا منذ أربعة أيام •

تاجر آخر : حسنا ، تعالوا الى منزلي ، ، فنحن أصدقـاء مخلصون للغرباء •

فلما سمعنا ذلك آنسنا اليه وذهبنا لمنزله فقدم لنا وجبـة طعام خفيفة ، ثم قال لنا : « يا أصدقائي ، سأحضر زوجتي لمنزلي هذا فهي على بعد خمسة عشر يوما من الآن ، وان أحدكم سينام معها أول ليلة وسيفض لي بكارتها » واعترانا الوجوم وأحسسنا بالخجـل من قولـه هذا • لكن مترجمنا قال : « لا تخجلوا ، فتلك هي العادات في هذه المنطقة » فقال له رفيقي : « لا تدعهم يسببون لنا ازعاجا أكثر من ذلك ، وسيكون لك مكافأة على ذلك » • فقد كنا نظن أنهم يمكرون بنا • ووجد التاجر أننا لم نقرر الموافقة على عرضه وبقينا مترددين فقال : « هونوا عليكم ، ولا تقلقوا ، فتلك عاداتنا في هذه البلاد » • فلما تأكدنا ـ أخيرا ـ أن هذه فعلا هي العادات المتبعة في المنطقة كلها بعد أن أكد لنا واحد من جماعتنا ذلك ، قائلا انه مبرر للخوف ـ عندئذ قال رفيقي للتاجر انه على استعداد للقيام بهذه المهمة الشاقة • فقال له التاجر : « أرجوك أن تمكث في منزلي أنت ورفاقك وبضائعك حتى أحضر زوجتي » وقد كنا مضطرين بعد أن أبدينا الرفض لمرافقته خاصة وقد ترجانا وتلطف معنا ، فمكثنا جميعا ـ وكنا خمسة أشخاص ـ ومعنا بضائعنا في منزله • وبعد خمسة عشر يوما أحضر التاجر زوجته (عروسه) ونام معها رفيقي أول ليلة • لقد كانت فتاة في الخامســـة عشرة من عمرها ، وقام رفيقي بمهمته خير قيام • الا أنه بعد

الليلة الأولى لا يحق لرفيقى أن يفعل مع زوجة التاجر شيئا ، وان فعل فانه يعرض حياته لخطر فلا حق له فى اتيانهـا مرة أخرى ، أما العروس (الزوجة) فقد كانت ـ حقيقة ـ تتمنى أن تستمر الليلة الأولى شهرا ٠
ولما ادى واحد منا هذه الخدمة للبحار ، كانوا على استعداد لاستضافتنا وهم سعداء ، لأربعة أشهر أو خمسة ، على نفقتهم ، فكل ما يتطلبه الانسان لايكلف كثيرا بالاضافة لأنهم قوم متحررون وظرفاء (٢٧) ٠

كيفية حفظ أجساد الموتى في هذه المدينة

كل البرهميين والملك ، تحرق أجسادهم بعد مماتهم ، بينمـا تقدم الأضحيات المقدسة للشيطان ٠ ويحفظون الرماد المتبقى من الجثة المحترقة فى أوان فخارية كالقنينة لها فم ضيق ، ويدفنون هذه القنينة الفخارية فى منازلهم٠أما بالنسبة للأضحيات المقدسة فلا تكون الا تحت بعض الأشجار، وفقا للعادات المتبعة فى كلكتا ٠ ولاحراق جثة المتوفى يستخدمون لاشعال النار مواد ذات رائحة ذكية كخشب الصبار واللبـــان الجاوى وخشب الصندل والخشب البرازيلى (٢٨) والميعة (٢٩) والعنبر والبخور storax وبعض فروع المرجان الجميلة ٠وتكوم هذه الأخشاب والعطور على جثة المتوفى وتحرق ، وفى هذه الأثناء تدق كل الآلات الموسيقية فى المدينة ٠ ويقوم خمسة عشر رجلا أو عشرون بارتداء ملابس تجعلهم كالشـــياطين ويقفون هناك ، محدثين جلبة وابتهاجا كبيرين٠ وتحضر زوجته دائما عملية الاحراق

---

(٢٧) لم أجد ما يؤكد هذا الفعل الفاضح ، الموصـــوف بتبذل فى هذا الفصل ، بالنسبة لمنطقة Jennaserim أو سيام ، والعكس هو القائم ، فان توربين Turpin يقرر ان « مخادع الزوجية فى سيام ، قلما يلوثها الزنا وعلى أية حال فان هذه العادة الغريبة التى تلوث كل الروابط الزوجية قد توجد ٠ وفى بعض الأحيـان يهب الملك احدى زوجاته المشاغبات لأحد المقربين اليه ، وهو نوع من التملق ٠٠٠ الا أننى لا أجد أى سبب للتشكيك فى رواية فارتيما لأن روايات وردت عن شىء مشابه شائع فى منطقة مجاورة من اراكان Aracan ، فالعذرية ليست أمرا ذا بال ، والأزواج يفضلون أن يكونوا آباء لأولاد الآخرين اكثر من تفضيلهم للبكر أو الفاضلة ٠ ان الحوار بين فارتيما ورفاقه من ناحية ، وتجار ترناسارى تم من خلال مترجم ، وكانوا يتحدثون بلغـــة اقرب ما تكون الى لغة كلكتا والمناطق المحيطة بها مما تناوله فارتيما فى الفصـــول السابقة ـ (ملخص عن تعليق بادجر) ٠

(٢٨) فى الأصل (Verzino) وقد رجح المستشرق بادجر انها تعنى برازيل Brazil واخذنا بذلك ـ (المترجم) ٠

(٢٩) Storax هو الميعة واسمه العلمى Liquidambar ويستخرج من شجر طبى ، ويستخرج منه الرائنج ٠ عن معجم الشهابى ـ (المترجم) ٠

وهي تولول وتبكي بشكل فظيع ، ولا تحضر مع الزوجة نسوة أخريات • ويتم كل هذا في الساعة الواحدة ، أو الثانية ليلا •

احراق الزوجة حية بعد موت زوجها

وفي مدينة تارناساري هذه ، تقيم الزوجة مأدبة لكل أقاربها وأقارب زوجها بعد موت زوجها بخمسة عشر يوما • ثم يذهبون جميعا الى موضع احراق جثة الزوج وفي نفس ساعة احراقها (أي الجثة) وتتزين الزوجة بكل جواهرها وكل ما لديهـا من أدوات ذهبية ، ثم يقوم أقاربها بحفر حفرة بارتفاع قامة الانسان ، ويضعون حول الحفرة أربع غابات (بوصات) أو خمسا ويحيطونها بأقمشـة حريرية ، ويشعلون في الحفرة نارا بالمواد العطرية والأخشاب الآنف ذكرها ، وتأكل الزوجة قدرا كبيرا من نبات التنبول المخدر betel حتى تغيب عن الوعي ، وتدق الآلات الموسيقية في كل أنحاء المدينة ، ويلبس بعض الرجال كالشياطين ، ويحملون في أفواههم شعلات النار ، ويقدمون الأضحيات للاله ديمو (٣٠) • أما الزوجة التي ستحرق فترقص غدوا ورواحا في المكان (الذي ستحرق فيه) وتشترك معها نسوة أخريات في الرقص ، وتتردد الزوجة أثناء رقصها مرات عدة على أولئك الرجال الذين يلبسون كالشياطين طالبة أن يدعو الشيطان أن يقبلها كتابعة له • ويحضر في هذا المكان ـ دائما ـ عدد كبير من النسوة القريبات لها • وعلى أية حال ، فلا ينبغي لك أن تتخيل أن الزوجة مكرهة على هذا • أبدا ، انها ترغب في ذلك لأنها تظن أنها ـ بعد احراقها ـ ستحمل الى السماء • فتجري بسرعة بكامل رغبتها وتقذف بنفسها وسط النيران ، وسرعان ما يقترب أقرباؤها ومعارفهـا واضعين العصي وكرات القار وغير ذلك ، ليزيدوا من اشتعال النار فيعجلوا بموتها • واذا لم تفعل الزوجة ذلك عاملوها كما نعامل نحن (في أوروبا) المومسات ، وسرعان ما يقتلها أقاربها • ويحضر الملك ـ دائما ـ هذه الاجراءات • وعلى أية حال ، فان الذين يجرون شعائر حرق الزوجة حية بعد موت زوجها ، هم أكثر الطبقات نبلا ، أما العامة فهم لا يفعلون ذلك •

وقـد رأيت في مدينـة تارناساري هذه عادة أخـرى أقـل قسوة مما سبق ، فاذا كان هناك شاب يرغب في الحديث مع فتاة يحبها ويريد أن يفهمها أنه مغرم بها حقا ، وأنه مستعد لعمل أي شيء من أجلها ، فانه

---

(٣٠) حاشية سابقة ، الكتاب الثاني عن الهند (الكتاب السادس) ـ (المترجم) •

يتحدث معها ويبثها شوقه ، وبينما هو يفعل ذلك ، يتناول خرقة قد نقعت جيدا فى الزيت ويشعلها ويضعها مشتعلة على ذراعه العارية ، وبينما النار تحرق لحم ذراعه ، يظل فى الحديث مع الفتاة يبثها الشوق غير عابىء بالنار · كل ذلك ليريها أنه في سبيل حبها ، على استعداد للقيام بأى شيء مهما كان خطيرا ·

تطبيق العدالة فى تارناسارى

من قتل يقتل ، كما هو الحال فى كلكتا (٣١) · وفيما يتعلق بنقل الملكية ، والحيازة فلا تثبت الا بمستند كتابى أو بشهادة الشهود : وهم يكتبون على أوراق كالتى نكتب عليها فى أوروبا ، وليس على أوراق الأشجار كما فى كلكتا · وهم يذهبون للحاكم الذى يفرض العدالة بينهم بسرعة · وعلى أية حال ، فعندما يموت أى تاجر أجنبى ولا يكون له زوجة أو ولد ، يرثه الملك ، فليس لثروته أن تنقل الى أى مكان آخر ، ولا عبرة لوصية الميت · وفى هذه البلاد يعين أهل البلاد ابن الملك المتوفى ملكا مكان أبيه · وعندما يموت أى تاجر مسلم ، ينفق أهله مبالغ طائلة على الأخشاب العطرية والبخور لحفظ رفاته التى يضعونها فى صندوق خشبى ، ثم يدفنونه (وهو داخل الصندوق) جاعلين رأسه فى اتجاه مكة (المكرمة) أى فى اتجاه الشمال (٣٢) فاذا كان له ذرية ورثته ·

السفن المستخدمة فى تارناسارى

يستخدم أهل تارناسارى سفنا كبيرة جدا ، وعلى أنواع مختلفة ، فبعضها ذوات قيعان مستوية لتتمكن من الدخول في المياه غير العميقة ، ومعظمها لها قيدومان (مقدمتها كمؤخرتها) ودفتان ، وصاريان ، وهذا النوع من السفن غير مغطى · وثمة نوع ثالث من السفن الكبيرة يسمونه

---

(٣١) فى كتاب تاريخ سيام History of Siam لمؤلفه تربن Turpin ان المجرم يطرح على بطنه ، وبعد ربطه باحكام ، ثم يدق خازوق خشبى فى دبره (شرجه) حتى يخرج من بطنه أو كتفيه ، ثم يخرجون الخازوق ، ويثبتونه (أى الخازوق) قائما فى الأرض ، وأحيانا لا يموت المجرم مباشرة وانما يظل يحتضر لعدة أيام ··· (مختصر تعليق بادجر) ·

(٣٢) هذا دليل آخر يدل على أن تارناسارى التى يشير اليها فارتيما ليست على ساحل البنغال لأنها – أى البنغال تقع تقريبا على خط العرض الذى تقع عليه مكة (المكرمة) (بادجر) ·

جيونشى Giunchi (٣٣) وتحمل السفينة من هذا النوع ألف برميل ، كما تحمل بعض السفن الصغيرة الى مدينة ملقى (٣٤) حيث يستخدمون السفن الصغيرة (المحمولة على الجيونشى) فى الوصول الى موضع سأحدثك عنه فى الوقت المناسب ٠

مدينة بنجالا
والمسافة بينها وبين ترناسارى

دعنا نعد الى رفيقى (الفارسى) (٣٥) فقد كان لكلينا رغبة لمشاهدة مزيد من البلاد ٠ فبعد أن مكثنا فى ترناسارى بضعة أيام ، تعبنا خلالها حقا ــ من هذه الطقوس التى رويتها لك ، وبعد أن بعنا بعضا من بضاعتنا اتخذنا طريقنا الى مدينة بنجالا (٣٦) ، التى تبعد عن ترناسارى سبعمائة ميل ، وقد وصلناها بحرا فى أحد عشر يوما ٠ وهى احدى أفضل المدن التى رأيتها،وهى مركز مملكة عظيمة ٠ وسلطانها مسلم ولديه جيش من مائتى ألف مقاتل بين راجل وفارس ، وجميعهم مسلمون ٠ وهذا الملك فى حرب دائمة مع ملك نارسنجا Narsingha (٣٧) ٠ والمنطقة تزخر بالغلال ، واللحوم من مختلف الأنواع ، وبكميات كبيرة من السكر والزنجبيل وكميات هائلة من القطن ، أكثر مما هو موجود فى أى منطقة بالعالم ٠ ويتم تحميل خمسين سفينة كل عام من هذا الميناء بالقطن والأثواب الحريرية التى لها عدة اسماء تدل على أنواعها هى : البيرام bairam والنامون Namone والليزاتى Lizati والسيانتار Ciantar والدوزار doazar والسينا باف Sinabaff ، وتنتشر هذه الأثواب الحريرية فى كل بلاد الأتراك وسوريا وفارس وبلاد العرب السعيدة وسواحل شرق أفريقيا والهند (٣٨) ٠ وتوجد هنا تجارة مزدهرة فى الجواهر التى ترد هنا من بلاد أخرى ٠

---

(٣٣) اسم الواحدة من السفن التجارية الضخمة فى الملايو وجاوه هو جونج Jung التى نطقها البرتغاليون جونكو Junco
Dictionary of the Indian Islande by Crawfurd. (بادجر) ٠

(٣٤) فى المتن Melacha ، واوردها بادجر فى الحاشية Malacca ــ (المترجم) ٠

(٣٥) خوجه ذو النور ، المشار اليه فى الفصول السابقة ــ (المترجم) ٠

(٣٦) كانت جور Gour هى بلاشك عاصمة البنغال فى هذه الفترة الا أن الأجانب ــ فيما يبدو ــ كانوا يطلقون اسم البنغال على المدينة ٠ وملك البنغال مسلم ، أما الشعب فغالبه مسلم وبعضه وثنى Gentiles (مقتبس من تعليق بادجر) ٠

(٣٧) فى الفترة التى زار فيها فارتيما البنغال ، كان سلطانها الباتانى هو علاء الدين حسين شاه ، ابن سيد أشرف ــ (بادجر) ٠

(٣٨) هذه الكلمات فى غالبها من أصول عربية أو فارسية ــ (بادجر) ٠

بعض التجار المسيحيين
في بنجـالا

وقد وجدنا هنا أيضا بعض التجار المسيحيين الذين أخبرونا أنهم من مدينة سارناو sarnau ، وأنهم جلبوا معهم أثوابا حريرية وأخشاب الصبار ، واللبان والمسك : وأخبرنا هؤلاء المسيحيون أن في بلادهم كثيرا من الحكام والأمراء المسيحيين الا أنهم تابعون للخان الكبير في كاثاي (٣٩) Cathai • أما بالنسبة للباس المسيحيين فالواحد منهم يرتدى سترة بدون كمين Xebec لها طيات ، ويضع على ذراعيه أكماما محشوة بالقطن ، ويغطى رأسه بطاقية يبلغ ارتفاعها قبضة ونصف القبضة ، ومصنوعة من القماش الأحمر • وهم بيض البشرة مثلنا ويعتقدون أنهم مسيحيون ، فهم يؤمنون بالتثليث ، ويعتقدون مثلنا في الحواريين الاثنى عشر وفي مؤلفي الأناجيل الأربعة ، كما أنهم تلقوا التعميـد في الماء • الا أنهم يكتبون في اتجـاه معاكس لطريقتنا في الكتابة • فكتابتهم ككتابة أهل أرمينيـا • وهم يقولون انهم يحتفلون بميلاد المسيح ، وبآلام المسيح بعد العشـاء الأخير ، ويراعون الصوم الكبير وعشية العيد وصلوات المساء خلال العام • ولا يلبس هؤلاء المسيحيون أحذيـة ، وانما يلبسون نوعـا من السراويل الحريرية ، تشبه ما يلبسه البحارة ، وهذه السراويل مزينة عن آخرها بالجواهر ، كما أن رءوسهم مغطاة كذلك بالجواهر • وهم يأكلون على مائدة كما نفعـل ، ويتناولون كل أنواع اللحوم • وأخبرنا هؤلاء النـاس أنهم يعرفون أن في حدود بلاد الروم ويقصدون بذلك بلاد الترك — يوجد ملوك مسيحيون عظماء • وبعد حوار طويل مع هؤلاء الناس أراهم رفيقى — أخيراً — بضائعه ، وكان من بينها عقود (فروع) من المرجان الكبير ، ذوات جمال مبهر • وعندما رأوها قالوا اننا لو رغبنا في الذهاب الى احدى المدن حيث يمكنهم تدبير الأمر لنا ، فقد كانوا مستعدين لتقديم عشرة آلاف دوكات لشراء عقود (فروع) المرجان آنفة الذكر ، أو يعطوننا كثيرا من الياقوت الذى يساوى سعره في تركيا حوالى مائة ألف • وقد أجاب رفيقى بسروره وبأن عليهم أن يرحلوا الى حيث يريدون ، فقال المسيحيون : « انه في غضون يومين ستبحر سفينة الى مدينة بيجو Pego وعليكم ان رغبتم أن تركبوا

---

(٣٩) من وصف أحوال هؤلاء المسيحيين يمكننى الاستنتاج أنهم كانوا من الأرمن ، ونظرا لقول فارتيما انهم يكتبون بطريقة معاكسة لطريقتنا (من اليمين الى اليسار) فان الأرجح أنهم نساطرة Nestorians (الواقع أن فارتيما مخطىء فالأرمن يكتبون مثلنا من اليسار الى اليمين) ، وقد ذكر أسيمانى Assemani ان كل المسيحيين في تتاريا والصين فيما مضى كانو نساطرة معتمدا في ذلك على ملاحظات الرحالة ماركو بولو • (مختصر عن بادجر) •

فيها معنا » وحالما سمعنا ذلك جعلنا أنفسنا تحت امرتهم وركبنا السفينة مع هؤلاء المسيحيين وصاحبنا فى السفينة ذاتهـا بعض التجار الفرس ، ولأن الناس أخبرونا أن هؤلاء المسيحيين صادقون وأمناء ، فقد وثقنا أواصر الصداقة معهم • ولكننا قبل مغادرة بنجالا بعنا كل مابقى معنا من البضائع ما عدا المرجان والزعفران وقطعتين من القماش الفلورنسى الزهرى اللون • وغادرنا مدينة بنغالا التى أعتقد أنها أفضل مدينة فى العالم يمكن للمرء أن يعيش فيها •

وفى هذه المدينة فان كل أنواع الأقمشة التى سمعت عنها ينسجها الرجال وليس النساء • على أيـة حال ، لقد غادرنا بنجالا مع المسيحيين آنفى الذكر ، واتخذنا سبيلنا الى مدينة بيجو Pego التى تبعد عن بنجالا حوالى ألف ميل •

وفى هذه الرحلة مررنا بخليج نحو الجنوب ، وسرعان ما وصلنا الى بيجو •

بيجو Pego ، المدينة الهندية

تقع مدينة بيجو فى البر الداخلى الا أنها قريبة من البحر • وتجد فى اتجاه يدك اليمنى (الشرق) نهرا جميلا للغاية تغدو فيه السفن وتروح (٤٠) • وملك هذه المدينة وثنى • والعادات والعقائد وأسـلوب الحياة وطريقة اللباس ، كلها تماثل ما هو موجود فى ترناسارى ، الا أن ألوان بشراتهم ـــ الى حد ما ـــ أكثر بياضا (أقل دكانة) ، كما أن الهواء هنا أكثر برودة الى حد ما • أما عن فصول السنة فهى كما عندنا • وهذه المدينة مسورة وبها منازل وقصور جيدة مبنية بالحجر ، ومطلية بالجير • وملك المدينة قوى تماما بما لديه من مقاتلين مشــاة وفرسان ، ومن بين هؤلاء أكثر من ألف مسيحى سبق أن حدثناك عنهم • وهو يعطى كل واحـد منهم ست باراديات ذهبيات Pardai كل شهر بالاضافة لنفقاته واعاشته • والمنطقة غنية بغلالها وباللحوم من مختلف الأنواع ، وبالفاكهة التى تماثل فاكهة كلكتا ، وليس لدى هؤلاء القوم كثير من الفيلة ، وان كان لديهم أعـداد كبيرة من كل أنواع الحيوانات الأخرى ، بل وكل أنواع الطيور كالتى فى كلكتا ، الا أنه يوجد هنا أفضل أنواع الببغاوات وأجملها ، فهى من أجمل ما رأيت فى حياتى على الاطلاق • وأشجار الأخشاب تنمو هنا بوفرة ، وهى

---

(٤٠) يسميه أهل البلاد نهير باجوو كيوب Pagoo kioup وتعنى نهير باجوو للتمييز بينه وبين النهر أو الميوب Mioup بلغتهم ••• (عن بادجر) •

فارعة الطول ، وأظن أن سوقها أسمك (أغلظ) سوق يمكن أن تكون لأشجار ، وعلى النحو نفسه ، فانني لا أدرى اذا كان يوجد فى العالم غاب يمثل هذه السماكة التى عليها الغاب هنا ، فقد رأيت بعضه هنا — بلا مبالغة — فى سماكة البرميل • وفى هذه المنطقة يوجد سنور الزباد بأعداد كبيرة وتباع السنانير الثلاثة أو الأربعة بدوكات • والجواهر هى بضاعة هؤلاء الناس الوحيدة ، كالياقوت الذى يجلبونه من مدينة أخرى هى كابيلان Capellan التى تستغرق الرحلة اليها من هنا ، ثلاثين يوما ، ولم أر هذه المدينة ، لكننى أقص عليك من أمرها من خلال ما سمعته من التجار • فهى مدينة لآلىء ضخمة ، والألماس فيها أكثر قيمة مما معنا ، ويوجد بها أيضا الزمرد •

وعندما وصلنا الى منطقة بيجو ، كان ملكها بعيدا عنها اذ كان الوصول اليه يتطلب رحلة تستغرق خمسة عشر يوما حيث كان يخوض حربا مع ملك آفا Ava ، ورأينا أن نذهب للملك حيثما كان لنقدم له هذه المرجانات • لذا فقد استقللنا سفينة مصنوعة من قطعة خشب واحدة ويبلغ طولها أكثر من خمس عشرة خطوة ، أما مجاديفها فمن الغاب • افهم جيدا كيف تؤدى هذه المجاديف عملها : فحيث يزيح المجداف الماء ، فانه يزاح فهم يثبتون قطعة مسطحة من الغاب بالحبال (فى نهاية المجداف) ، وعندما يجدفون تنطلق السفينة بسرعة تفوق سرعة المركب ذى الصاريين• أما صارى السفينة فمن غابة (الجمع : غابات) كانت فى سماكة البرميل قبل اعدادها لتكون صارى السفينة •

وفى غضون ثلاثة أيام كنا قد وصلنا لاحدى القرى حيث وجدنا بعض التجار الذين لم يستطيعوا دخول مدينة آفا Ava بسبب الحرب ، وحالما سمعنا ذلك ، عدنا أدراجنا الى بيجو ، وبعد عودتنا بخمسة أيام وصل الملك الذى كان قد حقق نصرا مؤزرا على عدوه ، وفى اليوم التالى لوصوله ، اصطحبنا رفاقنا المسيحيون للتحدث معه •

لباس ملك بيجو

لا يخطر بذهنك أن ملك بيجو يحظى بشهرة كبيرة كتلك الشهرة التى يحظى بها ملك كلكتا ، رغم أنه — أى ملك بيجو — يقسم بالروح الانسانية، كما أنه وديع وأليف حتى ان الطفل يمكنه التحدث معه ، وهذا الملك يتزين بيواقيت تزيد قيمتها عن قيمة مدينة كبيرة ، وهو يضع هذه اليواقيت فى أصابع قدميه • أما حول ساقيه فهو يتزين بحلقات ذهبية غليظة مطعمة جميعا بأجمل ما يكون من اليواقيت ، أما ذراعاه وأصابع يديه ، فكلها ملأى

باليواقيت والذهب ، ويتدلى من كل أذن من أذنيه نصف قبضة من الجواهر • لكل هذا ، فانك لو رأيت شخص الملك في الضوء بالليل ، لرأيته يلمع ويشع كأنه الشمس • لقد تحدث اليه المسيحيون الذين حدثتك عنهم وأخبروه ببضاعتنا ، فأجاب الملك « ان علينا أن نعود بعد غد ، لأنه سيكون مشغولا في غده بتقديم الأضحيات للشيطان امتنانا لما حققه — أى الملك — من نصر على أعدائه » • وعندما حل الميعاد أرسل الملك — بمجرد انتهائه من تناول طعامه — للمسيحيين آنفي الذكر ، كما أرسل أيضا لرفيقى ، ليحضر له بضاعته • وعندما رأى الملك هذه المرجانات الرائعة بدا عليه الاندهاش الشديد ، والسعادة الغامرة ، لأنه كان من بينها عقدان (فرعان) لم يدخل مثلهما الهند أبدا • وقد سألنا الملك عن أصلنا ، فأجاب المسيحيون : « انهم فرس يا سيدنا » فقال الملك للمترجم : « اسألهم عما اذا كانوا يريدون بيع هذه الأشياء » فأجاب رفاقي : « ان بضاعتنا تحت أمر عظمته » فبدأ الملك يتحدث قائلا انه كان يخوض الحرب ضد ملك آفا ، طوال عامين ، لذلك فهو لا يمتلك نقودا ، لكن اذا رغبنا أن نقايض ما لدينا بكثير من اليواقيت ، فانه سيقدم لنا كمية كبيرة ترضينا » فأوعزنا للمسيحيين أن يقولوا له اننا لا نبغى شيئا الا صداقته فله أن يأخذ البضاعة وأن يفعل ما يحلو له ، وأعاد المسيحيون على مسمعه ما أوحى به اليهم رفيقى ، اذ قالوا للملك ان له أخذ المرجان دون أن يقدم بدلا عنه أموالا أو جواهر • ولما سمع بهذا السخاء ، أجاب قائلا : « اننى أعلم أن الفرس قوم كرماء للغاية ، لم أر أبدا رجلا يضارع هذا الرجل كرما وسخاء » وأقسم بالله وبالشيطان أنه سيثبت لنا أيهما أكثر كرما وسخاء ، هو أم هذا الرجل الفارسى ، فرغب الى أحد خدمه الشخصيين ليحضر له صندوقا صغيرا عينه له • ويبلغ طول هذا الصندوق قبضتين ، وهو مشغول بالذهب من مختلف نواحيه ، وكان مملوءا باليواقيت فى باطنه وظاهره • ولما فتح الصندوق وجدنا به ستة أقسام منفصلة ، كلها مليئة بمختلف اليواقيت • وقام الملك بوضع الصندوق مفتوحا أمامنا ، وقال لنا خذوا ما شئتم ، فأجاب رفيقى : « آه يا سيدى ، لقد تعطفت على كثيرا ، فوحق حبى لمحمد (صلى الله عليه وسلم) واخلاصى له ، ما أتيت بهذه الجواهر الا هدية لك • ولتعلم ياسيدى أننى لا أسافر حول العالم لجمع الثروة ، وانما لأرى مختلف الشعوب ، ومختلف العادات والتقاليد • هذا فحسب كل ما أبغيه » • فأجاب الملك : « لا أستطيع أن أهزمك فى ميدان الكرم ، لكن خذ ما أعطيه لك » ثم أخذ الملك حفنة طيبة من اليواقيت من كل قسم من أقسام الصندوق وأعطاها له • لقد بلغ عدد حفنات اليواقيت حوالى مائتى ياقوتة ، أعطاها له الملك وهو يقول : « خذ هذه اليواقيت لقاء كرمك الذى أبديته نحوى » وبالطريقة ذاتها قدم الملك لكل واحد من المسيحيين آنفى الذكر ياقوتتين تبلغ قيمتهما حوالى ألف دوكات ، أما اليواقيت التى أهداها

لرفاقى الآخرين افيقدر ثمنها بمائة ألف دوكات • وبهذا قد يمكن اعتباره أكرم ملك فى العالم ، فدخله كل عام يبلغ حوالى مليون ذهبا ، لأن بلاده عامرة بالك (مواد الطلاء) Lacca (٤١) وقدر كبير من أخشاب الصندل ، وكثير من الأخشاب البرازيلية ، والقطن والحرير بكميات عظيمة ، وهو – أى الملك – ينفق كل دخله على جيشه • والناس فى هذه المنطقة شهوانيون فاسقون •

وبعد بضعة أيام استأذن المسيحيون آنفو الذكر من الملك ، ليرحلوا ، ولنرحل معهم ، الا أن الملك قد أمر باعداد غرفة لنا مؤثثة بكل ما تتطلبه الاقامة الطويلة اذا رغبنا فى مد اقامتنا ، وقد مكثنا فى هذه الغرفة خمسة أيام ، وأثناء اقامتنا وصلت الأخبار بأن ملك آفا قادم بجيش عرمرم لشن الحرب على ملك بيجو Pego الذى قرر أن يعجل ، بالاسراع بمقابلة عدوه فى منتصف الطريق ، فقاد جيشه الكثيف من المشاة والفرسان وتوجه لملاقاة عدوه •

وفى اليوم التالى رأينا امرأتين تحرقان وهما على قيد الحياة ، وكان ذلك برغبتهما وبكامل ارادتهما • وتم ذلك بالطريقة ذاتها التى وصفتها فى ترناسارى •

مدينة ملقى Melacha
ونهر جازا Gaza (أو نهر الجانج كما أظن) ، وقسوة أهل هذه المنطقة

وفى اليوم التالى ركبنا سفينة أوصلتنا لمدينة يقال لها ملقى وتقع تجاه الغرب ، وقد وصلنا فى ثمانية أيام ، وقد وجدنا بالقرب منها بوغازا عظيما للغاية ، فهو أكبر من أى بوغاز سبق أن رأيناه ، فعرضه – كما هو واضح – أكثر من خمسة وعشرين ميلا ، وفى مواجهة هذا البوغاز (٤٢) توجد جزيرة كبيرة تسمى سومطرة ، يقول سكانها ان محيطها يبلغ أربعة آلاف وخمسمائة ميل ، وسأخبرك عن هذه الجزيرة فى الوقت الملائم • وعندما وصلنا الى مدينة ملقى مثلنا مباشرة لحضرة السلطان ، وكان مسلما ،

---

(٤١) يميل بادجر الى أن الك مادة ملونة يتم انتاجها من حشرة الك أو من بعض الأشجار المنتشرة – (مختصر عن بادجر) •

(٤٢) ذكر فارتيما فى السطر السابق أنه بوغاز Fiumara وهى كلمة تعنى كما يقول بادجر Strait ، لكنه عاد فى هذا السطر فاستخدم كلمة river وهو مالا يتفق مع السياق ، ومن الغريب أن فارتيما استخدم كلمة river فى عنوان الفصل – (المترجم) •

وكذلك كل رعايا مملكته • وملقى تقع على البر الرئيسى (وليس فى جزيرة) وتدفع اتاوة لملك سيام (٤٣) الذى أمر بانشاء ملقى منذ ثمانين عاما خلت، لوجود ميناء عظيم مما يجعلها الميناء الرئيسى للمحيط • وانى أعتقد حقيقة أن هذا الميناء غاص بالسفن أكثر من أى ميناء آخر فى العالم ، خاصة انه يجلب هنا كل أنواع البهارات وكميات هائلة من البضائع الأخرى • وهذه المنطقة ليست خصبة جدا ، ومع هذا فان الغلال تنمو هنا ، كما ينمو قليل من الأعشاب التى تستخدم كغذاء للحيوانات ، وأشجار الأخشاب ، أما عن طيورها فهى كطيور كلكتا ، غير أن الببغاوات هنا أفضل منها فى كلكتا • وتوجد هنا كميات كبيرة من خشب الصندل ومن القصدير • ويوجد هنا أيضا أعداد كبيرة من الأفيال والخيول والضأن والأبقار والجواميس والنمور والطواويس ، أما الفاكهة فكمياتها قليلة وهى تشبه فاكهة سيلان • وليس هناك مبرر للاتجار هنا فى أى نوع من البضاعة خلا البهارات والأثواب الحريرية • والسكان هنا ذوو لون زيتونى ، وشعورهم طويلة • أما لباسهم فكلباس أهل القاهرة • وملامحهم عريضة • وعيونهم مستديرة وأنوفهم مسطحة • وليس من الممكن أن يتجول الانسان فى المكان اذا حل الظلام فالناس هنا يقتلون كما تقتل الكلاب ، وكل التجار الذين يصلون هنا ينامون فى سفنهم • وسكان هذه المدينة من الأمة الجاوية Giavai ، وقد خصص الملك حاكما ليقضى بين الأجانب لكن أهل هذه المنطقة سيطروا على القوانين وجعلوا الحاكم رهن مصالحهم • انهم أسوأ جنس وجد على ظهر البسيطة فعندما يرغب الملك فى التدخل فى شئونهم قالوا انهم ليسوا من سكان البر فهم رجال بحر • والهواء هنا معتدل للغاية ، وقد أفهمنا المسيحيون الذين كانوا بصحبتنا أنه يتعين علينا ألا نمكث طويلا هنا ، لأنهم ــ أى أهل البلاد ــ جنس شرير • لهذا ركبنا سفينة شراعية من الطراز الصينى أوصلتنا الى سومطرة ، حيث ذهبنا لمدينة بيدر Pider التى تبعد عن البر ثمانين فرسخا ، أو حوالى ذلك •

جزيرة سومطرة (٤٤)
وبيدر احدى مدنها

يقولون ان فى هذه المقاطعة أفضل ميناء فى الجزيرة كلها التى سبق أن أخبرتك لتوى أن محيطها ٤٥٠٠ ميل • وفى رأيى الذى يشاركنى فيه أيضا كثيرون ، فاننى أظن أنها تابروبانا Taprobana التى فيها ثلاثة

---

(٤٣) فى المتن Cici وقد رجح المستشرق بادجر أنها سيام ، وأورد ما يفيد تبعية ملقى اليها •

(٤٤) نفى المستشرق بادجر أن يكون فارتيما هو أول من سمى هذه الجزيرة بهذا الاسم ــ (خلاصة تعليق طويل لبادجر) •

ملوك متوجون ، كلهم وثنيون ، وعقائدهم وأسلوبهم فى الحياة وملابسهم وعاداتهم كمثيلاتها فى تارناسارى ، والزوجات تحرقن أحياء هنا ايضا • وألوان السكان هنا يغلب عليها البياض ولهم وجوه عريضة وعيون مستديرة وخضراء • وشعورهم طويلة وأنوفهم عريضة ومسطحة ، وأحجامهم صغيرة • وتطبق العدالة بصرامة كما فى كلكتا • ونقودهم ذهب وفضة وقصدير ، وكلها مدموغة • وفيما يتعلق بنقودهم الذهبية فعلى أحد وجهى العملة صورة للشيطان وعلى الوجه الآخر شىء أشبه بالعجلة الحربية التى تجرها الأفيال ، والشىء نفسه على العملة الذهبية والقصديرية • وبالنسبة للعملة الفضية فان العشرة منها تساوى دوكات واحدا ، أما العملة القصديرية فان خمسا وعشرين قطعة تساوى دوكات واحدا ، والأفيال هنا كثيرة العدد جدا وهى أضخم فيلة رأيتهـا • والنـاس هنا ليسوا محاربـين فهم مهتمون ببضائعهم ويميلون لمصادقة الأجانب •

نوع آخر من الفلفل
وعن الحرير واللبان الجاوى
فى مدينة بيدر

فى مقاطعة بيدر (٤٥) تنمو ــ بوفرة كبيرة ــ شجيرات الفلفل ، كما ينمو الفلفل الطويل الذى يسمونه مولايا Molaya ، وهذا النوع من الفلفل أكبر من الفلفل الذى يصل لبلادنا فى أوروبا • وهو أبيض جدا ومجوف، وطعمه غير لاسع بعكس الفلفل الذى نعرفه (٤٦) ، وهو خفيف فى الميزان، ويباع هنا بالطريقة نفسها التى يباع بها عندنا ، أى كحبات ، ويجب أن تعلم أنه يتم شحن ثمانى عشرة سفينة أو عشرين بالفلفل كل عام ، تتخذ سبيلها جميعا الى كاثاى Cathai فهم يقولون ان موسم البرودة الشديدة يبدأ هناك • وشجرة الفلفل التى تثمر الفلفل الطويل ساقهـا أكبر ، وأوراقها أعرض وأنعم من الشجرة ذاتها التى تنمو فى كلتكا •

وفى هذه المقاطعة يتم انتاج كميات كبيرة مـن الحرير ، وجزء غير قليل منه يجمع من الغابات دون أن يزرعه (كذا) أحد • وهو حرير غير جيد فى الحقيقة •

---

(٤٥) بيدر ، وتكتب بالانجليزية Pidor أو Pedir اسم لدولة الملايو شرق سومطرة ••• والمدينة الرئيسية فيها تحمل الاسم نفسه (بيدر) ـ (مختصر عن بادجر) •

(٤٦) يقول بادجر : لست متأكدا اذا كان المقصـود هنا ما يسميه علمـاء النبات بالفلفل الطويل piper longum (Long pepper) لذلك فقد استشرت السيد بنت بالمتحف البريطانى •••• فاكد أن النوع الثانى الذى أشار اليه فارثيما هو فعلا الفلفل الطويل ـ (عن بادجر) •

ويوجد هنا كم كبير من اللبان الجاوى benzoin (٤٧) وهو مادة صمغية تجمع من أشجار خاصة • ويقول بعض من قابلتهم انها تنمو على مسافة بعيدة من البحر ، داخل بر الجزيرة ، ولكنني لم أرها بنفسى •

ثلاثة انواع
من خشب النـد
(العود الهندى)

لأن تنوع المشاهدات يبعث على البهجة ، ويدعو الانسان للقراءة والفهم ، فقد بدا لى أمرا طيبا أن أضيف (للقارىء) هذه المعلومات التى حصلتها وتأكدت منها — حقيقة — عن طريق الخبرة والممارسة • فبادىء ذى بدء ، يجب أن تعرف أنه لا اللبان الجاوى ولا العود الهندى (خشب الند يصل بكميات كبيرة الى الموانىء المسيحية (الأوربية) ، فهناك ثلاثة أنواع من العود الهندى ، فأولها وأجودها هو المسمى كلامبات Calampat وهو لا ينمو فى الجزيرة ، وانما يرد اليها من مدينة سارناو Sarnau التى يقول المسيحيون المرافقون لنا انها قريبة من مدينتهم ، ويزرع هناك • والنوع الثانى يسمى لبان Loban ويحصلون عليه من أحد الأنهار ، والنوع الثالث يسمى بوشور Bochor (٤٨) • ويقول المسيحيون آنفو الذكر أيضا ان السبب فى عدم وصول (الكلامبات) الينا فى أوروبا أنه فى Gran Cathai وفى مملكة سيام وفى الصين Macini (٤٩) وسارناو Sarnau وجاوة Giava يتوفر لديهم الذهب آكثر مما هو متوفر لدينا (فى أوروبا) ، وقالوا أيضا انه يوجد هنا عدد من الأمراء والملوك أكثر بكثير مما فى بلادنا ، وهم يحبون الأنس والبهجة أكثر منا (فى أوروبا) بهذه الأنواع الفاخرة من العطور ، وينفقون كميات كبيرة من الذهب لتعطير

---

(٤٧) شجرة اللبان الجاوى متوسطة الحجم ، وتزرع بالبذر ، ويستخرج اللبان منها بجرح لحائلها بعد أن تكون قد بلغت من العمر سبع سنين — (عن بادجر) •

(٤٨) eaglewood هو عود الند ، واسمه العلمى Aquilaria agallocha ويطلق عليه بالعربية أحيانا (العود) أو العود الهندى ، أو عود الطيب أو النجوج أو الوه •

(٤٩) ترجمناها (الصين) اعتمادا على ترجيحات بادجر الذى يقول : « صين ماشين Sinmachin أو الصين وماشين sin wa Machin وأحيانا الصين فقط sin أطلقه العرب على ما نعرفه اليوم بامبراطورية الصين بشكل عام ••• وقد أخبرنى ربابنة السفن العربية أنهم يطلقون كلمة الصين على المناطق شمال سيام ، وقال آخرون انهم يطلقونها على سيام ومناطق الصين ، وحتى تتاريا — (عن بادجر) •

موتاهم بهذه العطور ، ولكل هذه الأسباب فان هذه الأنواع الفاخـرة من العطور لا تصل الينا (فى أوروبا) • وفى سارناو Sarnau يباع الرطل بعشرة دوكات •

تجارب على اللبـان الجاوى والعود الهنـدى

لقد أجرى المسيحيون آنفو الذكر أمامنا تجربة على هذين النوعين من العطور (اللبان الجاوى والعود الهندى) ، فقام واحد منهم بأخذ قليل من كلا النوعين • فبالنسبة للكلامبات أخذ حوالى أونصتين (٥٠) وجعل رفيقى يقبض عليها بيده بشدة مـدة تستغرق تكرار الجملة الآتية أربـع مرات (Meisere mei, Deus) • ثم قال له : افتح كفك • حقيقة لقد شممت رائحة لم أشم أفضل منها ، فرائحته تتفوق على روائح كل عطورنا • ثم أخذ قطعة من اللبان الجاوى فى حجم الجوزة وأخذ من (الكلامبات) الذى ينمو فى Sarnau حوالى نصف رطل ، ووضعهمـا فى أوان (فـازات) وأضاف اليها جمرات نار ، وجعلها فى غرفتين • الحق أقول لكم ان هذه الكمية القليلة أنتجت من الرائحة العطرة والشعور بالارتياح أكثر مما ينتجه رطلان من أى نوع آخر • ويعجز قلمى عن وصف امتياز هذين العطرين (البخور) ، وما يؤديانه من ارتياح • بعد هذا لابد أنك عرفت لماذا لاتصل هذه الأشياء الى بلادنا • وتنمو هنا أيضا كميات هائـلة من أشجار الك Lacca (٥١) التى يستخرجون منها اللون الأحمر ، وهى تشبه أشجار الجوز عندنا •

تنوع التجارة فى جزيرة سومطرة

لم أر فى حياتى أجمل من الأعمال الفنية فى هذه المنطقـة (٥٢) ، فهناك الصناديق المصنوعة من الذهب والتى يبيعون الواحد منها بدوكاتين بينما هى قد تساوى فى بلادنا مائة دوكات • ومرة أخرى ، فقد رأيت هنا فى احدى الطرقات حوالى خمسمائة صراف (٥٣) ، ويرجع ذلك لأن عددا

---

(٥٠) الأونصة وحدة وزن تساوى ٢٨٫٣٥ جراما أو ٣١٫١ جراما ـ (المترجم) •

(٥١) هى أشجار ذوات أخشاب وردية ، متوفرة فى سومطرة ، وتستخدم فى الصباغة وفى العلاج ••• وتصدره بشكل أساسى للصين ـ (عن بادجر) •

(٥٢) يصنع أهل البلاد مشغولات ذهبية للزينة جميلة • وسلاسل الرقبة (الكردان) فى مانيلا مثال على هذه المشغولات الرقيقة ••• (بادجر) •

(٥٣) ربما كان الصرافون هنا من الأجانب ، كالهنود وأهل ملقى ••• (بادجر) •

كبيرا من التجار يأتى لهذه المدينة ، يتعاملون فى تجارة نشطة واسعة ٠
وثمة أسرة عليها مراتب من القطن مغطاة بملاءات حريرية وقطنية ، قد
أعدت لنومهم ٠ وفى هذه الجزيرة وفرة هائلة من الأخشاب ، وأهل الجزيرة
يصنعون سفنا ضخاما يسمونها جونشى Giunchi لها ثلاثة صوار ،
وقيدومان،واحد فى المقدمة والآخر فى المؤخرة ولها دفتان ؟ دفة فى المقدمة،
والثانية فى المؤخرة ، وعندما يبحرون فى الأرخبيل (اذ يوجد هنا بحر
كبير يشبه القناة) ، فان الرياح تأتيهم (تهب) أحيانا من الأمام (من
ناحية وجوههم) فعندئذ يسرعون بخفض الشراع ، وبسرعة أيضا يرفعون
الشراع الآخر الكائن عند الدفة الأخرى ــ دون أن يضطروا للاستدارة ،
وبهذه الطريقة يعودون فى اتجاه الريح ٠ ويجب أن تعلم أنهم أكثر من
رأيت نشاطا ، وهم أيضا سباحون مهرة ، وسادة فى فن الألعاب النارية
fire works (٥٤) ٠

منازل سومطرة
وكيف يكسونها

المنطقة السكنية فى سومطرة تتكون من منازل مسورة بالحجارة ،
وليست شاهقة الارتفاع ، وكثير جدا منها قد كسى بأصداف السلاحف
البحرية لتوفرها بكميات كبيرة ، وأثناء اقامتى رأيت احدى الأصداف تزن
مائة رطل وثلاثة أرطال ، كما رأيت سنى فيل تزنان ثلاثمائة رطل وخمسة
وثلاثين رطلا ، وأكثر من هذا فقد رأيت فى هذه الجزيرة حيات أضخم
بكثير مما فى كلكتا ٠

دعنا نعد الى أصحابنا المسيحيين الذين كانوا راغبين فى العودة
لبلادهم ، فقد سألونا عن وجهتنا وما اذا كنا راغبين فى البقاء هنا ، أو اكمال
الرحلة لبلاد أخرى ، أو العودة لديارنا ٠ فأجابهم رفيقى قائلا : « منذ أن
وصلت للمناطق التى يزرع فيها البهار وأنا أود أن أرى بعض أنواعه قبل
عودتى » فقالوا له : : « ليس هناك أنواع أخرى غير التى رأيتها هنا » ،
فسألهم أين يزرع جوز الطيب nutmeg والقرنفل ، فأجابوه قائلين :
« ان جوز الطيب وتابل جوز الطيب » (٥٥) يوجدان فى جزيرة تبعد
ثلاثمائة ميل » وعندئذ سألناهم عما اذا كان يمكننا الذهاب الى هناك

---

(٥٤) جمع كروفورد الادلة التى تثبت أن الأسلحة النارية كانت معروفة فى الملايو
عند وصول البرتغاليين ، بل لقد عرفوا المدفعية التى نقلها اليهم العرب الذين أخذوها عن
المسيحيين ٠٠٠ (بادجر) ٠

(٥٥) Mace وهو تابل يستخرج من قشور جوز الطيب ٠ عن معجم الشهابى فى
مصطلحات العلوم الزراعية ــ (المترجم) ٠

بأمان ، آمنين من اللصوص القراصنة فقالوا « لا خــوف من اللصــوص فيمكنكم الذهـــاب ، انمـا الخوف من تقلبـــات البحر ، ولا يمكنكم الذهـــاب بسفينتكم الكبيرة هــذه » فقـال رفيقي : « ما المطلوب اذن للذهـــاب لهذه الجزيرة ؟ » فأجـابوا : « من الضروري أن تشـتروا شيامبـانا Chiampana » والشيامبانا نوع من السـفن الصـغيرة ، يوجد منها هنا عدد كبير • فرجاهم رفيقي أن يرسلوا في طلب اثنتين منها لأنه يود شراءهما • وسرعان ما أوجد هؤلاء المسيحيون ما طلبه : سفينتان من الطراز المطلوب ، ومعهما البحارة اللازمون لها ، وكل ما هو ضروري لرحلة كهذه ، بل لقد ساوموا لنا على كل هذا ، وتم الاتفاق على أربعمائة بارادي Paradi فدفعها رفيقي ، ووجه حديثه لهؤلاء المسيحيين قائلا : « آه ، ياأصدقائي الحميمين ، فرغم أننا لسنا من جنسكم ، الا أننا جميعا أبناء آدم وحواء ، أحقا ستفارقونني وتفارقون رفيقي هذا الذي ولد مسيحيا مثلكم is born in your faith • فصاحوا : « كيف يكون على ديننا ؟ انه رفيقك أنت ! أليس فارسيا ؟ » فأجابهم قائـلا : « هو فارسي الآن ، الا أن مشتريه اشتراه من القدس » وعندما سمع المسيحيون اسم مدينة القدس رفعوا رءوسهم للتو للسماء ، ثم خروا ساجدين وقبلوا الأرض ثلاث مرات ، وسألوا متى تم بيعي في القدس ، فأجبنـا « عندمـا كان عمري خمس عشرة سنة تقريبا » وعندئذ قالوا : « انه لابد أن يتذكر بلده » فقال رفيقي : « حقيقة انه لا يزال يذكره ، فلم أسعد بشيء طوال عدة شهور الا بسماع ما أخبرني به عن بلده (القــدس) وقد أعلمني بكل أسماء الأشخاص ، وبأسماء كل الأطعمة » وعندما سمعوا ذلك قالوا« ان رغبتنا كانت في العودة لبلدنا التي تبعد عن هنا ثلاثة آلاف ميل ، لكن من أجل خاطرك ،و خاطر رفيقك هذا ، فاننا نرغب في الذهاب معكم حيثما شئتم، أما اذا رغب رفيقك في البقاء بين ظهرانينا ، فسنجعله غنيا ، وهو حر في أن يتبع شرائع الفرس اذا رغب » فأجاب رفيقي : « انني سعيد برفقتكم للغاية ، لكن ذلك خارج ارادته ، فهو لا يستطيع البقاء هنا لأنني زوجته ابنة أختي لأنني أحبه • لذلك فاذا كنتم راغبين في اصطحابنا فلا بد أن تقبلوا هذه الهدية التي أقدمها لكم ، والا فلن أكون راضيا » • فأجاب المسيحيون الطيبون بأن عليه أن يفعل ما يرضيه ، فكل شيء يرضيهم » وبناء على قولهم ، قدم لهم نصف a Curia من اليواقيت من النوع الذي تساوي العشرة منه خمسمائة دوكات • وبعد ذلك بيومين كانت السفنة (الشبامبان) جاهزة ، فشحناها بكثير من الأطعمة خاصة من أطايب الفاكهة التي طالما تذوقتها ، ومن ثم اتخذنا سبيلنا الى جزيرة يقال لها بانـدان Bandan

جزيرة باندان
حيث يزرع جوز الطيب ، والتابل المستخرج من قشوره

وفى أثناء هذه الرحلة مررنا بحوالى عشرين جزيرة ، بعضها مأهول بالسكان ، وبعضها غير مأهول • وفى غضون خمسة عشر يوما وصلنا للجزيرة آنفة الذكر (باندان) (٥٦) ، وهى جزيرة كريهة جدا ، وكئيبة ، ويبلغ محيطها حوالى مائة ميل ، وهى منخفضة جدا ، ومستوية وليس فى هذه الجزيرة ملك أو حتى حاكم ، وليس بها الا بعض الفلاحين لا فهم لهم ، وكأنهم سوائم • ومنازل هذه الجزيرة من الخشب ، وهى منخفضة وتبعث على الانقباض جدا ، ويلبس هؤلاء الفلاحون قمصانا ويمشون حفاة ولا يغطون رءوسهم ، وشعورهم طويلة ، ووجوههم عريضة ومستديرة ، وألوانهم بيضاء وأجسادهم صغيرة •

وهم وثنيون ، الا أنهم من أحط طبقات الوثنيين ، أولئك الذين يسمون فى كلكتا بوليار Poliar وهيرافا Herava • وهم قوم ضعفاء الأبدان جدا وبطيئو التفكير للغاية ، وليس فيهم حيوية أو نشاط ، وانما يعيشون كالسوائم • ولا يزرع هنا سوى جوز الطيب وبعض الفاكهة • ويشبه جذع شجرة جوز الطيب جذع شجرة الخوخ ، وأوراق الشجرتين متشابهة ، الا أن فروع شجرة جوز الطيب أكثر تقاربا ، وقبل أن تصل الجوزة الى مرحلة الاكتمال تظهر القشرة حولها كالزهرة المتفتحة وعندما تنضج الجوزة تنفض القشرة • وهم يجمعون المحصول فى شهر سبتمبر ، لأن الفصول فى هذه الجزيرة تسير على نسق الفصول عندنا • ويقوم كل رجل بجمع أكبر كمية يستطيع جمعها ، فكل المحصول شائع مباح للجميع ، فليس ثمة جهد يبذله الناس هنا لخدمة هذه الشجرة وانما الأمر موكول للطبيعة لتعمل عملها • وتباع هذه الجوزات بالكيل الذى يساوى ستة وعشرين رطلا ، بمبلغ نصف كارلينو a Carlino والنقود المتداولة هنا هى نفسها المتداولة فى كلكتا • وليس من الضرورى تنظيم أمور العدالة والقضاء هنا ، فالناس فى غاية الغباء لدرجة أن الواحد منهم اذا فكر فى فعل الشر فانه لا يعرف كيف يقترفه ، وبعد انقضاء يومين قال رفيقى للمسيحيين : « أين يزرع القرنفل ؟ » فأجابوه قائلين : « يزرع فى جزيرة Monoch التى يستغرق الوصول اليها ستة أيام ، والناس فى هذه الجزيرة أكثر قذارة وأمعن فى الخسة ، وأسوأ من الناس فى باندان »

(٥٦) اسمها الحالى باندا Banda ، وهى مكونة من عدة جزر ، وسكانها فى هذه الفترة مسلمون ووثنيون ••• (عن بادجر) •

وأخيرا قررنا الابحار الى هذه الجزيرة فوصلناها فى غضون اثنى عشر يوما .

جزيرة مونوش Monoch (*)
حيث يزرع القرنفل

غادرنا سفينتنا فى جزيرة Monoch وهى أصغر من جزيرة باندان ، والناس فيها أسوأ ، وان كانوا يعيشون بالأسلوب نفسه ، وهم صغار الحجم ، وأكثر بياضا من سكان باندان ، والهواء أبرد قليلا . وهنا يزرع القرنفل ، كما يزرع فى كثير من الجزر المجاورة الصغيرة مساحتها وغير المأهولة . وشجرة القرنفل تشبه شجرة البقس (٥٧) فهى سميكة ، وأوراقها تشبه أوراق شجرة القرفة غير أنها أصغر ، وتميل للاستدارة ، ولونها هو اللون نفسه الذى ذكرته لكم لتوى عند حديثى عن سيلان ، وأعنى به ورق شجرة الغار أو الرند (٥٨) . وعندما ينضج القرنفل يضرب الرجال فروع الشجرة بالغاب ويضعون حصرا تحتها لتتلقى القرنفل المتساقط . وتنمو هذه الأشجار فى تربة تشبه التربة الرملية نظرا للونها ، وان كانت فى الحقيقة ليست رملية . وهذه المنطقة منخفضة جدا ولا يمكن رؤية نجم الشمال فيها . وبعد أن رأينا هذه الجزيرة وما بها من بشر ، سألنا المسيحيين (رفاقنا) عما اذا كان هنا شىء آخر يمكن أن نراه . فأجابوا : « دعونا نرى كيف يبيعون هذا القرنفل » وقد وجدنا أنهم يبيعونه ــ كما يباع جوز الطيب ــ بالمكيال ، فهؤلاء الناس لا يفهمون فكرة الوزن .

---

(٥٧) box tree : شجرة البقس أو الشمشاد ، وهو نوع من الشجر معروف منه أنواع كثيرة منها القزم والآسى الورق . عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ــ (المترجم) .

(٥٨) laurel . شجرة من الفصيلة الغارية تنبت بريا ، وهى على أنواع . عن معجم الشهابى ــ (المترجم) .

(*) يطلق فارتيما هنا اسما شاملا على واحدة من جزر خمس تكون ملقى Moluccas لكنه ــ أى فارتيما ــ لم يقدم لنا ما يعيننا على تحديد الجزيرة التى رسا عليها ، الا أنها قد تكون جزيرة ترنيت Ternate او تيدر Tider ... ويذكر كروفورد Crawfurd أن الاسم الشامل (ملقى) كما أطلقه البرتغاليون ليس معروفا أيضا ما يندرج تحته .... (عن بادجر) .

جزيرة بورنيو Bornei

لقد كنا الآن راغبين فى تغيير هذه المناطق ، حتى نتعلم أشياء جديدة، فقال المسيحيون : « آه يا رفاقنا الأعزاء ، مادام الله (سبحانه) قد أوصلنا لهذه المناطق النائية بأمان ، فان كان يسعدكم فاننا سنذهب لنرى أكبر الجزر فى العالم (٥٩) وأكثرها غنى ، وسترون ما لم تره عيونكم من قبل ، وان كان علينا أن نذهب أولا لجزيرة أخرى هى Bornei ومنها يمكننا استقلال سفينة كبيرة ، فالبحر أكثر قسوة وأشد عتوا » فأجاب رفيقى : « انه ليسعدنى أن أفعل ما ترغبون فيه » فتوجهنا لهذه الجزيرة نحو الجنوب ، وأثناء سفرنا لم يكن لدى هؤلاء المسيحيين مسرة سوى الحديث معى فى موضوعات عن المسيحيين وعن عقيدتنا ٠ وعندما أخبرتهم عن فولتوسانتو Volto Santo وعن رأس القديس بطرس Peter والقديس بول Paul وعن كثير من القديسين الآخرين ، فأسروا الى أننى اذا رغبت فى الذهاب معهم ، فسأكون أميرا Lord كبيرا جدا ، وقد امتنعت عن الذهاب معهم مخافة ألا أتمكن من العودة لوطنى أبدا ٠

ولما وصلنا لجزيرة بورنيو Bornei التى تبعد عن مونوش Monoch حوالى مائتى ميل وجدتها أكبر شيئا ما من الجزيرة آنفة الذكر ، وأكثر انخفاضـــا ، وسكانهـا وثنيون وهم طيبون ، وهم أكثر بياضـــا من سكان الجزر الأخرى ، ويلبسون القمصان القطنية وبعضهم يلبس الأثواب Camelots ، وبعضهم يرتدى غطاء رأس أحمر ٠ وتنفذ العدالة هنـا بصرامـة ٠

ويتم شحن كميات كبيرة من الكافور Camphor كل عام ، ويقولون ان الكافور مادة صمغية لنوع من الشجر ، ينمو فى جزيرتهم ٠ ولم أر هذا الشجر ، ولا أستطيع بالتالى أن أؤكد ذلك ٠ وقد استأجر رفيقى هنا سفينة بمائة دوكات ٠

الملاحة الى جـزيرة جاوا Giava

عندما جهزنا السفينة المستأجرة بالمؤن اللازمة اتخذنا سبيلنا الى جزيرة جاوا Giava الجميلة ، فوصلناها فى غضون خمسة أيام ، كنا خلالها نبحر صوب الجنوب ٠ وكان قبطان السـفينة يحمل بوصـلة مغناطيسية كالتى نعرفها فى بلادنا ، ومعه خريطة بها خطوط طولية وأخرى

---

(٥٩) كان الأوربيون يعتبرون جاوة هى أكبر جزيرة فى العالم وليس بورنيو Borneo ولكن فارتيما صحح هذا المفهوم ... بادجر ٠

عرضية • وسأل رفيقى المسيحيين : « والآن ، اذا افتقدنا نجم الشمال ، فكيف يوجه هذا الربان مسيرتنا ؟ » فسأله المسيحيون السؤال نفسه ، فأرانا أربعة نجوم أو خمسة ، يوجد من بينها واحد مواجه لنجم الشمال الذى نتحدث عنه ، وقال اننا نبحر نحو الشمال لأن البوصلة المغناطيسية (التى معه) مضبوطة • وأخبرنا أيضا أنه فى الجانب الآخر من جزيرة جاوه ، نحو الجنوب ، توجد بعض الأجناس الأخرى يبحرون مهتدين بهذه النجوم الأربعة أو الخمسة (٦٠) ، والمقابلة لنجومنا (فى أوروبا) ، وأكثر من هذا فقد أفهمونا أنه وراء جزيرة جاوة لا يستمر النهار أكثر من أربع ساعات ، وأن الجو هناك أكثر برودة من أى مكان فى العالم • ولما سمعنا ذلك أحسسنا بالسعادة والرضى (٦١) •

جـزيرة جـاوا Giava :
عقائد أهلها ، وأسـلوب حياتهم ، وعاداتهم ، والزراعة عنـدهم •

لقد تابعنا ابحارنا حتى وصلنا فى غضون خمسـة أيام لجزيرة جاوه (٦٢) التى يحكمهـا ملـوك عديدون ، كلهم وثنيون • وأصف لكم عقائدهم كالتالى :

بعضهم يعبد الأوثان كما فى كلكتا ، وبعضهم يعبد الشـمس ، وآخرون يعبدون القمر ، وكثيرون يعبدون الثيران ، وآخرون يعبدون

---

(٦٠) هذه النجوم الأربعة أو الخمسة هى كوكبة (صورة فلكية) الصليب الجنوبى (الكوكبة الجنوبية) Southern Cross • وعندما يكون هذا الصليب الجنوبى عموديا فان الخط المار خلال النجمتين : العلوية والسفلية يمر خلال القطب الجنوبى (يشير اليه) ويلتقى بنجم الكوكبة الجنوبية B. Hydrus الذى هو على مسافة تبلغ ضعف المسافة - بالنسبة للقطب الجنوبى - من مسافة النجم القطبى (كما نسميه) من القطب الشمالى • وهذا بلاشك هو النجم الذى أشار اليه فارتيما بقوله « النجم المواجه للنجم القطبى - أو نجم الشمال الذى تعرفه فى أوروبا » عن C. R. Markam

أما أندريا كورساليز Corsalis فيقدم لنا - بعد قرن من رحلة فارتيما - المعلومات التالية عن الكوكبة الجنوبية اذ قال أيضا أن هذه الكوكبة مواجهة (فى الاتجاه المقابل) لنجم القطب الشمالى ، وذلك بعد أن مر بخط الاستواء بعد أن كان عند خط ٣٧ جنوبا ••• (موجز تعليق بادجر) •

(٦١) هذه الجملة فى غاية الأهمية اذا كانت تشير الى خط عرض يمر باستراليا أو يقع جنوبها فهذا يعنى أنه الى الجنوب بين ارض فان ديمن Van Diemen بـ 15° ••• ان هذا يعنى أنه وصل على الأقل الى استراليا ••• (مختصر تعليق بادجر) •

(٦٢) لم تكن جاوا معروفة حتى بالاسم للاوربيين قبل رحلة ماركو بولو ••• وقد زار ابن بطوطة جاوا سنة ١٣٣٠ وذكر أن ملكها وثنى ••• (عن بادجر) •

الشيطان بالأسلوب الذى سبق أن ذكرته لكم ، لتوى . وتنتج هذه الجزيرة كميات هائلة من الحرير ، بعضه كحريرنا (فى أوروبا) وبعضه غليظ غير متقن ، وأفضل أنواع الزمرد فى العالم موجود هنا ، كما يتوفر الذهب والنحاس بكميات كبيرة ، ويوجد كثير من الغلال كالتى عندنا (فى أوروبا) وكثير من الفواكة الممتازة كالتى فى كلكتا . وتتوفر أعلاف الحيوانات من كل الأنواع ، وهى ــ أى الأعلاف ــ تشبه ما هو موجود عندنا (فى أوروبا) . وأعتقد أن هؤلاء الناس من أكثر خلق الله مدعاة للثقة فى العالم . وهم بيض وفى نفس أحجامنا تقريبا الا أن وجوههم أعرض من وجوهنا ، وعيونهم واسعة وخضراء ، وأنوفهم فطساء جدا ، وشعورهم طويلة .

والطيور هنا متعددة تعددا كبيرا ، وكلها تختلف عن الطيور عندنا (فى أوروبا) ماعدا الطواويس والقمريات turtle-doves والغربان السود .

وتنفذ العدالة هنا بصرامة بين الناس . أما عن لباسهم ، فهم يرتدون ملابس فضفاضة على النسق الرومانى من حرير ، ومن قطن ، ولا يستخدمون كثيرا من الأسلحة لأنهم لا يقاتلون الا من يأتيهم من البحر وهم يحملون الأقواس ، وأعدادا كبيرة من السهام المريشة من الغاب ، وبعضهم يستخدم الزربتان Zarabottane وهو الحملاج low-pipe الذى يستخدمونه فى قذف السهام المسمومة ، وهم يقذفونها بالفم ، وعلى أية حال ، فانهم قليلا ما يسحبون دماء العدو الجريح (١) . ولا تستخدم المدفعية من أى نوع هنا ولا يعرفون كيفية صناعتها بأية حال من الأحوال .

ويأكل القوم خبزا من قمح ، وبعضهم يأكل لحوم الخراف أو لحوم الأيائل (أو الخيول) أو يأكلون ــ حقيقة ــ لحوم الخنازير البرية ، وآخرون يأكلون الأسماك والفاكهة .

كيف يبيع الأولاد آباءهم العجائز لتصبح لحومهم طعاما (فى جزيرة جاوا) (٦٣)

والناس فى هذه الجزيرة ممن يأكلون اللحوم ــ عندما يصبح آباؤهم كبار السن ويغدون غير قادرين على العمل فان أبناءهم أو أقاربهم يبيعونهم فى السوق ، حيث يقوم المشترون بذبحهم (أى ذبح الآباء العجائز) وأكل

(٦٣) يستبعد بادجر وجود هذه العادة فى جاوا وان كان لم ينكرها بالنسبة لبعض المناطق الهندية الأخرى .

لحومهم مطبوخة · واذا مرض أحد شبابهم بمرض خطير ، وبدا للعين الخبيرة أنه قد يموت ، فان الأب أو الأخ يقوم بذبحه ، ولا ينتظر حتى يموت ، وبعد ذبحه يبيعونه للآخرين ليأكلوا لحمه ، وقد اندهشنا كثيرا من ذلك ، فقال لنا بعض تجار المنطقة : « آه ·· أيها الفرس (٦٤) الأغبياء · لماذا نترك هذا اللحم الطيب ليأكله الدود ؟ » فلما سمع رفيقي ذلك صاح لتوه : « هيا ·· هيا ·· أسرع ، دعنا نذهب لسفينتنا ، فلن يقترب هؤلاء الناس منى أكثر من ذلك » ·

الشمس تلقى ظلا فى منتصف النهار (٦٥) فى جزيرة جاوا

قال المسيحيون لرفيقي : « آه ، ياصديقي · احمل هذه الأخبار لبلدك · واليك معلومة أخرى سنريك اياها · انظر هناك · الآن ، نحن فى منتصف النهار · أدر عينيك نحو الشمس » ولما رفعنا عيوننا رأينا أن الشمس تلقى ظلا صوب الشمال لأكثر من بالموه Palmo (٦٦) ومن ذلك فهمنا أننا كنا على بعد مسافة طويلة جدا من بلادنا (فارس وأوروبا) واستغرقتنا دهشة تفوق الحد · ووفقا لما قاله رفيقي أظن أننا كنا فى شهر يونيو ، ذلك أننى كنت قد نسيت فى أى شهر ميلادى نحن ، بل لم أكن أعرف فى بعض الأحيان فى أى يوم من أيام الأسبوع نكون · ويجب أن تعلموا أن هناك بعض الفروق بين درجة البرودة عندنا (فى أوروبا) ودرجة البرودة هنا · ولما رأينا عادات أهل هذه الجزيرة اتضح لنا أنه ليس هناك مزيد من الأسباب لنبقى فيها ، لأنه كان من الضرورى أن نظل طوال الليل تحت الحراسة خوفا من أن يأتى بعض هؤلاء الأنذال ليحملونا ويأكلوا لحومنا (بعد طبخها) · فاستدعينا المسيحيين وأخبرناهم أنه يتعين علينا أن نعود لبلادنا بأقصى سرعة ممكنة · وعلى أية حال فقبل

---

(٦٤) نادوهم بالفرس لأن خوجه ذو النور رفيق فارتيما فى رحلته قدمه ــ كما سبق ــ للناس على أنه فارسى ·

(٦٥) فى الأصل الايطالى fa spera ، لكن فى طبعة راميزيو Ramusio الصادرة سنة ١٩١٣ نجد بدلا عنها faceva ombra وهى تعنى لمة gloss ، الا أن المعنى واحد ــ (بادجر) ·

(٦٦) ينصف خط الاستواء جزيرة بورنيو ، ففى شهر يونيو عندما كان فارتيما يبحر فان سفينته فى الطريق الى جاوا لابد أن تكون قد عبرت (قطعت) مسار الشمس suns path ، نلاحظ عندما كان ينظر ناحية الغرب أن الشمس لابد أن تكون الى شماله ، ومن ثم فان الظل لابد أن يمتد ناحية يده اليسرى » ــ (موجز تعليق ماركهام الذى نقله بادجر) ·

مغادرتنا اشترى رفيقى زمردتين بألف بارادى paradai كما اشترى بمائتى بارادى طفلين صغيرين مخصيين ، ففى هذه الجزيرة نوع من التجار لا يتاجرون فى شىء الا فى الأطفال الصغار ويقطعون أعضاءهم التناسلية ، فيصبحون وكأنهم نساء (٦٧) ·

عودتنا

بعد أن قضينا فى جزيرة جاوا معا ، أربعة عشر يوما قررنا العودة ادراجنا لخوفنا من قسوة سكان الجزيرة من حيث أكلهم لحوم البشر ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب البرد الشديد مما جعلنا لا نجسر على متابعة الرحلة الى أبعد من ذلك ، بالاضافة الى أن المسيحيين المصاحبين لنا ، لم يكونوا يعرفون مزيدا من البلاد التى يمكننا زيارتها ·

لكل ذلك استأجرنا سفينة من النوع المسمى جونشى a giunce وغادرنا الجزيرة فى اتجاه الشرق حيث لا يوجد أرخبيل وحيث الابحار أيسر وأكثر أمانا · ثم أبحرنا مدة خمسة عشر يوما فوصلنا الى مدينة ملقى Malacha وفيها توقفنا لمدة ثلاثة أيام حيث بقى المسيحيون المصاحبون لنا ، ومن الصعب أن أصف لكم البكاء والعويل الصادر عن هؤلاء المسيحيين · لقد أقاموا مناحة كاملة بسبب فراقنا · والحق أقول لكم انه لو لم يكن لى زوجة وأولاد ، لكان من الممكن أن أذهب معهم ، وقد قالوا لى مثل ذلك ، وقالوا انه لولا خوفهم ألا يعودوا فى أمان ، لصحبونا · وأعتقد أيضا أن رفيقى (الفارسى) لم يشجعهم على الاستمرار فى اصطحابنا · لذلك فقد بقوا وقالوا انهم سيعودون الى سارناو Sarnau ، أما نحن فركبنا سفينتنا متوجهين الى كيوروماندل Cioromandel حيث انتهى ايجار السفينة التى ركبناها من جاوا · وبقينا فى هذه المدينة حوالى عشرين يوما ، ثم ركبنا سفينة من النوع المسمى كيامبانا Ciampana فأوصلتنا الى كولون Colon حيث وجدت اثنين وعشرين مسيحيا برتغاليا · ووفقا لحساباتى (تقديرى للموقف) فقد كانت لدى رغبة عارمة فى الهرب، لكننى بقيت ، لأن عددهم (أى هؤلاء البرتغاليين المسيحيين) كان قليلا ، كما أننى كنت خائفا من المسلمين لأنه من بينهم بعض التجار الذين يعرفون أننى كنت فى مكة (المكرمة) وفى المدينة (المنورة) حيث قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد يتخيلون أننى قد أكشف نفاقهم ، لذلك

---

(٦٧) يقول بادجر ان هذه العملية المرعبة كانت تجرى أيضا لبعض الرهبان الأقباط فى مصر) لكنه ليس متأكدا من ذلك ــ (عن بادجر) ·

فقد تماسكت ومنعت نفسى من الهرب • وبعد ذلك باثنى عشر يوما اتخذنا سبيلنا الى كلكتا Calicut ووصلناها فى غضون عشرة أيام •

والآن ، فان فى وسع كل القراء أن يدركوا — من خلال قراءة هذه الرحلة الطويلة — أن رفيقى (الفارسى) وأنا قد بلغ منا الجهد كل مبلغ بسبب اختلاف درجة الحرارة ، وبسبب اختلاف العادات والتقاليد التى واجهناها فى كل خطوة كما وصفنا ذلك من خلال سطور هذه الرحلة ، وبسبب الوحشية — التى دونها وحشية الوحوش — والتى اتصف بها بعض الناس ، كل ذلك — خاصة السبب الأخير — دفعنا للعودة • وسأذكر لكم الآن باختصار — حتى لا تكون روايتى للأحداث مضجرة — ما حدث لى فى طريق العودة ، فسيكون ذلك مفيدا لبعض الناس اما لكبح رغباتهم لرؤية هذا العالم الواسع الذى لا حد لعظمته أو أن يكون ما أذكره معينا لأناس آخرين فى طريقهم لرؤية العالم ولارشادهم عن كيفية اعداد أنفسهم ، واستخدام معارفهم وذكائهم لمواجهة الأمور الطارئة •

لما وصلنا لكلكتا فى طريق العودة وجدنا شخصين مسيحيين من ميلان Milanese • أما أحدهما فاسمه يوان ماريا Ioan-Maria وأما الآخر فاسمه بيرو أنتونيو Piero Antonio ، كانا قد وصلا من البرتغال على سفن برتغالية لشراء الجواهر لحساب الملك (٦٨) ولما وصلا الى كوشن Cocin (٦٩) سرعان ما فرا الى كلكتا • والحق أقول لكم ان السعادة غمرتنى لرؤية هذين النصرانيين ، كما لم تغمرنى من قبل • لقد كنت وهذان المسيحيان البرتغاليان نسير عرايا وفقا لعادات هذه المنطقة • وقد سألتهما عما اذا كانا مسيحيين ، فأجابنى يوان ماريا : « نعم ، حقيقة اننا مسيحيان » وعندئذ سألنى بيرو أنتونيو ان كنت مسيحيا ، فأجبته : « نعم ، تبارك الرب » وعندئذ أمسكنى من يدى وقادنى لمنزله ، وعندما دخلنا بدأنا نتعانق ويقبل كل منا الآخر ، ونبكى • والحق أقول لكم اننى لم أكن أستطيع التحدث كالمسيحيين ، فقد بدا كما لو كان لسانى متضخما ومعوقا ، ويرجع ذلك لأننى ظللت طوال أربع سنوات لا أتحدث مع مسيحيين (٧٠) •

وفى الليلة التالية بقيت معهما ، ولم يستطع أى منا أن يأكل أو ينام بمفرده لفرط سعادتنا • وفى وسعك أن تتخيل أننا كنا راغبين فى

---

(٦٨) هو الملك دون امانويل ، الملقب بالمحظوظ — (بادجر) •

(٦٩) تكتب Cochin وهى مدينة تابعة لولاية (مقاطعة) المالابار الهندية ، وهى تابعة لمدراس • وعند وصول البرتغاليين للهند كانت كوشن تحت حكم الراجا تريامبارا Triumpara الذى يبدو أنه كان تابعا لحاكم كلكتا زامورين ••• (بادجر) •

(٧٠) يقصد الأوربيين أو الأوربيين المسيحيين — (بادجر) •

أن تستمر هذه الليلة عاما ، فقد كنا نتحدث في مختلف الأمور ، ومن بين ما سألتهم عنه ، ان كانوا أصدقاء لملك كلكتا ، فأجاباني بأنهما كانا رجليه الرئيسيين ، وكانا يتحدثان معه يوميا ، وسألتهما أيضا عن مقصدهما ، فأخبرانا بأنهما يودان العودة الى بلدهما ، ولكنهما لا يعرفان عن أى طريق • فأجبتهما قائلا : « عودا من الطريق الذى أتيتما منه » فأجابا بأن ذلك غير ممكن لأنهما هربا من البرتغاليين ، وأجبرهما ملك كلكتا على صناعة أعداد كبيرة من المدافع ، وكان هذا ضد رغبتهما (٧١) ، ولهذا السبب فهما غير راغبين فى العودة من الطريق ذاته ، وقالا انهما يترقبان وصول أسطول ملك البرتغال فى القريب العاجل ، فأجبتهما أنه اذا منحني الله مزيدا من النعمة • فقد أتمسكن من الهرب الى كانانور Cananor عند وصول الأسطول كما آمل أيضا أن يسمح لهم قبطان السفينة (قبطان المسيحيين) لهم بركوب احدى سفن الأسطول ، وأخبرتهما أنهما لا يستطيعان الهرب بطريقة أخرى لأنه بات معروفا من خلال أمم كثيرة أنهما يصنعان المدافع ، وأن ملوكا كثيرين يرغبون فى الاستحواذ عليهما نظرا لمهارتهما ، لكل هذا لم يكن ممكنا أن يهربا بطريقة أخرى • ويجب أن تعلموا أنهما صنعا ما بين أربعمائة وخمسمائة مدفع صغير وكبير ، لذلك فقد كانا خائفين جدا من البرتغاليين والحقيقة لقد كان هناك سبب أبشع من سابقه يجعلهما أكثر خوفا ، فهما لم يكتفيا بصناعة المدافع وانما قاما بتعليم الوثنيين كيف يصنعونها ، وأخبراني ماهو أكثر من ذلك ، اذ قالا انهما علما خمسة عشر خادما من خدم ملك كلكتا كيف يطلقون القذائف Spingarde (؟) • وفى الوقت الذى كنت فيه هنا ، فانهما قدما للوثنيين تصميما لمدفع (morter) بل ونموذجا له من المعدن يزن مائة قنطار وخمسة قناطير • وكان ، هنا أيضا يهودى قام ببناء سفينة شراعية كبيرة وجميلة جدا وذات مجاديف ، كما قام هذا اليهودى بصنع أربعة مدافع Morters من الحديد • وقد ذهب هذا اليهودى ليستحم فى بركة فغرق • دعنا نعد الى المسيحيين المشار اليهما : ان الله (سبحانه) يعلم ما قلته لهما فقد انبتهما وحثثتهما على ألا يفعلا مثل هذه الأشياء التى تضر بالمسيحيين ، فبكى بيرو أنتونو بحرارة ، أما يوان ماريا فقد قال انه سواء عنده أن يموت فى كلكتا أو فى روما ، وأن الله يفعل ما يريد •

وفى الصباح التالى ، عدت لأحد رفقى (الفارسى) قد أقام مناحة كبيرة ظنا منه أننى قتلت • فأخبرته — لأجد لنفسى عذرا — أننى كنت نائما فى أحد مساجد المسلمين شكرا لله (سبحانه) ولمحمد (صلى

(٧١) معظم المدفعيين الذين كانوا فى خدمة الدول الهندية فى هذه الفترة — اما أتراك أو أوربيون Frank or Turk ... (بادجر) •

الله عليه وسلم) لعودتنا سالمين ، فسعد كثيرا بقولى هذا وحتى أعرف ما يدور فى المنطقة ، فقد أخبرته برغبتى فى أن أستمر فى النوم بالمسجد ، وأننى لا أريد أية بضائع ، وأننى أود دائما أن أكون مسكينا • ورغبة منى فى الهرب منهم فكرت أنه لا يمكن خداعهم الا بالنفاق ، فالمسلمون هم أغبى شعوب العالم (٧٢) — حتى يرضى • لقد فعلت ذلك حتى أكون قادرا على الحديث بانتظام مع المسيحيين لأنهما يعرفان كل الأحداث يوما فيوم من بلاط الملك (ملك كلكتا) وبدأت بالفعل أضع خطتى فى النفاق والخداع موضع التنفيذ ، فتظاهرت بأننى درويش مسلم وامتنعت عن أكل اللحم تماما الا فى بيت يوان ماريا حيث كنا نلتهم كل ليلة زوجين من الدجاج • ولم أعد أتعامل مع التجار ، ولم أدع أى انسان يرانى مبتسما ، وظللت طوال اليوم فى المسجد الا عندما يرسل فى طلبى رفيقى (الفارسى) لتناول الطعام ، وقد وبخنى لامتناعى عن أكل اللحم فقلت له : « ان كثرة الأكل تقود المرء الى ارتكاب آثام كثيرة » وبهذه الطريقة بدوت كدرويش مسلم وسعيد هو من يستطيع تقبيل يدى ، بل ان بعضهم كان يقبل ركبتى •

ادعائى الطب فى كلكتا

وقد حدث أن تاجرا مسلما سقط صريع المرض ، ولم يستطع باى وسيلة من الوسائل أن يسترد عافيته الطبيعية ، فأرسل الى رفيقى (الفارسى) الذى كان صديقا حميما له يطلب منه أو من أى ممن هم فى منزله ان كان فى مقدوره تقديم أى علاج له • فقال رفيقى (الفارسى) : اننى يمكن أن أذهب لزيارته ، فذهبنا لمنزل هذا التاجر المريض وسألناه عن علته ، فقال لنا : « أشعر بآلام حادة فى معدتى » فسألته ان كان قد أصيب بالبرد ، فقد يكون هو سبب هذه الآلام ، فأجاب بالنفى لأنه لا يعرف معنى الاصابة بالبرد • فاستدار رفيقى (الفارسى) الى وسألنى : « آه يا يونس ألا تعرف أى علاج لصديقى هذا » فأجبت : ان والدى كان يعمل طبيبا فى بلدنا ، وعرفت بالممارسة ما علمنى اياه فقال رفيقى (الفارسى) : « حسنا ، دعنا نر بأى علاج يمكننا شفاء صديقى الحميم هذا » فقلت عندئذ : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وتناولت يده ، وتحسست نبضه ، فوجدت أنه مصاب بحمى شديدة ، فسألته ان كان مصابا بالصداع ، فأجاب : « نعم ، ان رأسى تؤلمنى كثيرا » فاستفسرت

---

(٧٢) تعبير ينم عن حقد شديد ، مع ان رفيقه خوجة ذو النور قدم له خدمات كثيرة — (المترجم) •

منه ان كان الاخراج عنده سهلا فأجاب « اننى لم أخرج منذ ثلاثة أيام » فسرعان ما طرأ فى نفسى خاطر أن هذا المريض مصاب بالتخمة ، وأنه فى حاجة الى حقنة (شرجية) ، ولما قلت ذلك لرفيقى (الفارسى) قال : « افعل ما تريد حتى يشفى » فقمت بالتجهيز للحقنة كالتالى : أخذت سكرا وبيضا وملحا ، وأخذت بعض الأعشاب التى تضر ولا تنفع (التى تؤدى لمزيد من الأذى) مثل أوراق الجوز ، بغية غليها • وبهذه الطريقة دبرت له فى يوم وليلة خمس حقن ، ولم تؤد هذه الحقن الى تحسنه بسبب الأعشاب المضرة التى حقنته بخلاصتها المغلية ، فقد أدت هذه الأعشاب الى أثر عكسى ، فزادته ألما مما أسعدنى • وأخيرا لما وجدت أنه لا يمكن أن يشفى بسبب الأعشاب المؤذية التى حقنته بها — أخذت قبضة كبيرة نسبيا من الرجلة ، وصنعت نصف ابريق من شراب كحولى مقطر Liquor وخلطتها بالقدر نفسه من الزيت ، وقدر كبير من الملح والسكن ، وقلبتها جيدا ، وقمت بتصفيتها • وهنا ، أعتبر نفسى قد ارتكبت خطأ آخر ، فقد نسيت متعمدا أن أجعلها دافئة ، وانما حقنته بالسائل وهو بارد • وبمجرد حقنه ربطت قدميه بحبل ، ورفعناه لأعلى حتى لمس الأرض برأسه ويديه ، وظل معلقا على هذا النحو زهاء ثمانى دقائق (half a quarter of an hour) فقال رفيقى الفارسى : آه ، يا يونس ! أهذا ما اعتدتم عليه فى بلادكم لعلاج هذه الحالات ؟! » فأجبته قائلا : « نعم اذا كان المريض منفعلا ؟ » فقال ان هذا سبب معقول ، ولأن السائل المحقون يتغلغل فى جسمه بشكل أفضل • وكان المريض البائس يصيح قائلا : كفى •• كفى •• انى أموت •• انى أموت » • وسواء كان ما حدث ، بفعل الطبيعة ، أم أنها ارادة الله ، فقد بدأ يقذف من مؤخرته كالنافورة ، فأنزلناه • والحق أقول لكم فقد أخرج من أمعائه ما يملأ نصف راقود (وعاء ضخم جدا) ، فأحس بالارتياح • وفى اليوم التالى لم يعد يعانى من الحمى أو الآلام فى رأسه أو معدته ، ثم انتظمت أحواله ، فراح يخرج عدة مرات •

وفى صباح اليوم التالى قال انه يشعر بألم فى جنبه ، فوصفت له أن يأخذ زبدا بقريا أو جاموسيا ويدهن به جنبه وأن يربط وسطه بحبال القنب الهندى ، ثم أخبرته أنه ان أراد الشفاء فان عليه أن يتناول وجبتين فى اليوم ، وعليه ، قبل النوم أن يمشى على قدميه ميلا • فأجاب : اذا كنت تريدنى ألا آكل الا مرتين فى اليوم ، فهذا يعنى أن أموت حالا لأنهم يأكلون ثمانى مرات أو عشرا فى اليوم ، فبدا ذلك الطلب له قاسيا جدا • وعلى أية حال ، فانه أخيرا قد غدا صحيح البدن جدا • فكان هذا فى صالح خطتى فى الرياء والنفاق بشكل كبير ، فقد قالوا عنى اننى خليل الرحمن • وأراد هذا التاجر أن يعطينى عشر دوكات لكننى لم أرغب فى أخذ أى مبلغ ، بل اننى قدمت ثلاث دوكات كانت معى لأحد الفقراء بشكل علنى

حتى يعلموا أنني لا أبغي أية ثـروة أو أي مال . ومنذ ذلك الوقت كم كانت سعادة هذا التاجر الذى عالجته فاصطحبنى لبيته لتناول الطعام ، وكم كانت سعادته لتقبيل يدى وقدمى ، وعندما كان أى شخص يقبل يدى فقد كنت أشد قامتى (أرفع هامتى) لأجعله يفهم أنه بتقبيله يدى — انما يفعل أمرا أنا جدير به ، باعتبارى (رجلا مباركا) . وكان رفيقى (الفارسى) هو أولا وقبل كل شيء الذى يدبر لى الدعاية اللازمة ليعتقد الناس أننى درويش ، لأنه هو أيضا اعتقد ذلك وكان يقول انتى لا آكل اللحوم وأنه رآنى فى مكة (المكرمة) وعند قبر محمد (صلى الله عليه وسلم) وأننى كنت رفيقه دائما فى السفر ، وانه يعرف أحوالى ، وأننى (درويش) حقا ، وأنه يعرف أننى طيب وأن حياتى طاهرة (قدسية) لذلك فانه قدم لى احدى بنات أخته لأتخذها زوجة له (٧٣) . لكل هذا فقد كان الناس جميعا يظنون فى ظنا حسنا ، أما فى الليل ، فقد كنت أذهب سرا للتحدث مع المسيحيين الذين أخبرونى فى احدى المناسبات أن اثنتى عشرة سفينة برتغالية قد وصلت الى كانونور Canonor ، فقلت عندئذ انه الأوان المناسب لى كى أهرب من أرض الكلاب ، ورحنا ندبر معا طوال ثمانية أيام الكيفية التى يمكننى أن أهرب بها . وقد نصحونى أن أهرب برا ، ولم يكن لدى الشجاعة لذلك بسبب خوفى من أن يقتلنى المسلمون ، فأنا أبيض وهم سود .

أخبار السفن البرتغالية التى وصلت الى كلكتـا (٧٤)

وذات يوم ، بينما كنت أتناول الطعام مع رفيقى (الفارسى) ، وصل اثنان من التجار الفرس من كانونور ، فدعاهما رفيقى توا لتناول الطعام معه فأجاباه بعدم رغبتهما لأنهما يحملان أخبارا سيئة ، فسألناهما : بم تهمهمون ، فقالا : ان اثنتى عشرة سفينة برتغالية قد وصلت ورأيناهـا بأعيننا » فسألهما رفيقى : « أى نوع من الناس هم ؟ » فأجاباه : « انهم مسيحيون ، وجميعهم مسلحون بالأسلحة البيض ، وقد بدأوا فى بناء قلعة قوية فى كانونور » . فاستدار رفيقى الفارسى الى وسألنى « آه .. يا يونس .. من هم هؤلاء البرتغاليون ؟ » فأجبته قائلا : « لا تحدثنى عن

---

(٧٣) نص العبارة for my Wife ولكنه اشار فى فصول سابقة أن رفيقه الفارسى عرض عليه تزويجه ابنة اخته (شمس) — (المترجم) .

(٧٤) لابد أن يكون ذلك فى نهاية سنة ١٥٠٦ ... (بادجر) .

عن هذا الجنس ، فهم جميعا لصوص وقراصنة بحر ، وأتمنى أن يصبحوا جميعا مسلمين » فلما سمع ذلك أصبح حقودا جدا ، أما أنا فقد كان قلبي يرقص فرحا ٠

كيفية هروع المسلمين للمساجد

وفي اليوم التالى ذهب المسلمون للمساجد لأداء صلواتهم ٠ بمجرد سماعهم هذه الأخبار ، وقبل ذلك صعد المؤذنون للمآذن لدعوة الناس ـ بصوت جهير ـ لأداء هذه الصلاة ، وكان المؤذن ـ حال أدائه للأذان ـ يضع اصبعه باستمرار فى أذنيه ، وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد الا اله الا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ٠٠٠ الخ (٧٥) وهذا الأذان يقوم مقام قرع الكنائس فى بلادنا ٠ وقد أخذونى معهم لأداء الصلاة طالبين منى أن أدعو الله للمسلمين ، فهيأونى لأداء الصلاة جهرا ٠ هذه الصلاة التى سأذكر لكم عنها شيئا ٠ فهذه الصلاة الشائعة بينهم تشبه صلاة باتر نوستر Paten Noster عندنا وصلاة آفا ماريا Ava Maria ، فهم يقفون صفا صفا ، وقد تتعدد الصفوف كثيرا ، ولهم قسيس (يقصد الامام) يقود الصلاة كما هو الحال عندنا ، ويؤدون الصلاة بعد أن يغتسلوا جيدا (يقصد بعد الوضوء) ، ويعلنون عن الصلاة (يقصد هنا اقامة الصلاة بأذان مختصر) ثم يتلون (الفاتحة)(٧٦) وقد أعلنت الصلاة (يقصد أقامها) فى حضور كل الناس ، ثم عدت مع رفيقى (الفارسى) وفى اليوم التالى تظاهرت بأن مرضا شديد ألم بى ، وبقيت ثمانية أيام لا أتناول الطعام مع رفيقى هذا ، وانما أتسلل كل ليلة لتناول طعامى مع الشخصين المسيحيين ٠ وكان رفيقى (الفارسى) مندهشا جدا وسألنى لم لا أشتهى الطعام ، فأجبته « انى مريض جدا وأحس بآلام فى رأسى تجعلنى أشعر أنها متضخمة ومكبوسة » ، وقلت له ان ذلك يبدو أنه بفعل الهواء فالتعرض للهواء أمر غير طيب بالنسبة لى » فقال لى : « اذهب وأقم فى (كانانور) حتى نعود الى فارس ، وسوف أدلك على صديق لى سيقدم لك كل ما تطلبه فقلت له «سأكون سعيدا بذهابى الى (كانونور) لكننى متردد بسبب خشيتى من هؤلاء النصارى » فقال لى

---

(٧٥) يقول فارتيما ان بين عبارات الأذان « محمد رسول الله سيظهر ثانية "Mahometh the messenger of God will rise again. ٠٠ وهذا كذب واضح ، فليست هناك أية جماعة اسلامية تذكر ذلك فى الأذان ـ (المترجم) ٠

(٧٦) كتبها بحروف لاتينية زاخرة بالأخطاء ، ولم نعرف أنه يقصد سورة فاتحة الكتاب الا من خلال تعليقات المستشرق بادجر ـ (المترجم) ٠

« لا تتردد ، ولا تخش منهم لأنك ستبقى دائما داخل المدينة » وأخيرا ، فقد رأيت جيدا كل الأسطول الذى يجهزونه فى كلكتا (لخوض الحرب ضد البرتغال) وكذلك كل المدافع وكل الجيوش التى أعدوها لحرب المسيحيين (البرتغاليين) ـ فأسرعت بالخروج من كلكتا لتنبيه البرتغاليين وتقديم ملاحظات لهم عن استعدادات (العدو) ، ولانقاذ نفسى من أيدى هؤلاء الكلاب (٧٧) ٠

فرارى من كلكتا

لقد دبرت كل ما كان على أن أفعله مع النصرانيين (آنفى الذكر) قبل خروجى من كلكتا بيوم واحد ، ثم قام رفيقى (الفارسى) بجعلى مع الفارسيين الذين حملا الأخبار عن البرتغاليين ، وركب ثلاثتنا مركبا بصوار ثلاثة bark ٠ ويمكنكم الآن أن تتخيلوا مدى الخطر الذى وضعت نفسى فيه ، فهناك أربعة وعشرون تاجرا فارسيا ، وسوريا وتركيا ، كل منهم يعرفنى ، ويحمل لى عاطفة المحبة ، فخشيت اذا تركتهم أن يظنوا أننى أريد الهرب للبرتغاليين ٠ واذا ما غادرت السفينة دون التحدث معهم ، فقد يقولون « لم تتحدث معنا ؟! » وقد أدرت الأمر فى رأسى ووازنته ٠ وعلى أية حال ، فقد قررت أن أذهب دون التحدث مع أحد الا رفيقى (الفارسى) ٠ وفى صبيحة يوم الثلاثاء الثالث من سبتمبر انسللت بحرا مع التاجرين الفارسيين ، ولما أصبحنا على مرمى سهم تقريبا فى البحر أقبل اثنان من النيرى Naeri الى الساحل وتحدثا لقبطان السفينة ، فلما رأيناهما عدنا لتونا الى البر ٠ لقد قالا للقبطان : « لم تحمل معك هذا الرجل بعيدا عن هذا دون اذن الملك (ملك كلكتا) ؟ فقال التاجران الفارسيان : « انه درويش مسلم ، وانا ذاهبون الى كانونور » ٠ فقال النيرى : « اننا نعلم جيدا أنه درويش مسلم ، ولكنه يفهم لغة البرتغاليين ، وسيخبرهم بكل ما نفعله هنا ، فالأسطول الكبير الذى نعده قد أصبح جاهزا » وأمرا قبطان السفينة بألا يأخذنى معه بأى حال من الأحوال ، فنفذ الربان ما طلبا ٠ وبقينا على الساحل ، بينما عاد النيرى الى قصر الملك ٠ فقال واحد من التاجرين الفارسيين : « دعنا نذهب لمنزلنا » يعنى الى كلكتا ، فأجبته : « لا تذهب ، فأنت لو فعلت لفقدت هذه الأقمشة الجميلة التى تحملها ، لأنك لم تدفع عنها مكوسا للملك » فقال التاجر الفارسى الآخر : « آه يا سيدى ، ماذا سنفعل ؟! » فقلت لهما « دعانا نسر على طول هذا الساحل حتى نجد باراو (سفينة بأشرعة ثلاث) فسعدا باقتراحى ، وسرنا اثنى عشر ميلا برا حاملين هذه الأقمشة ٠ ويمكنكم أن تتصوروا ما كان يشعر به قلبى وأنا أرى نفسى فى هذا الموقف الخطر ٠

---

(٧٧) تعصب شديد ساد فى أوروبا البحر المتوسط خاصة فى هذه الفترة ـ (المترجم) ـ

وأخيرا ، وجدنا سفينة (بازاو) أوصلتنا الى كانونور ، مساء السبت ؛ وسرعان ما حملت الخطاب الذى كتبه رفيقى (الفارسى) الى صديقه التاجر ، وكان مكتوبا فيه أن يقدم لى كل الخدمات ، ويحل محله حتى يأتى ، وأخبره أننى درويش مسلم (رجل صالح) وعن العلاقة الوثيقة بيننا • فلما قرأ التاجر هذا الخطاب ، وضعه على رأسه ، وقال انه يجيبنى برأسه ، وجهز عشاء فاخرا فى الحال ، وكانت المائدة غاصة بالدجاج والحمام ، ولما رأى التاجران الفارسيان الدجاج والحمام أقبلا ، وصاحا قائلين : « ان هذا الرجل لا يأكل اللحوم » فسرعان ما حضر لى طعام بديل • ولما انهينا طعامنا قال التاجران الفارسيان لى : « دعنا نذهب قليلا للساحل لنرفه عن أنفسنا » فذهبنا حيث كان الاسطول البرتغالى موجودا وتخيل عزيزى القارىء مدى السعادة التى كنت فيها • ولما تقدمت قليلا رأيت أمام منزل منخفض ثلاثة براميل فارغة ، وتخيلت أن تكون المحطة المسيحية (البرتغالية) مكانها • لقد اعترانى ابتهاج ، وتخلى اليأس عنى ، وشعرت برغبة فى الهرب عبر البوابة التى ذكرتها آنفا ، الا أننى قدرت أننى لو فعلت ذلك فى هذه اللحظة ، لاعترى المنطقة كلها صخب وهياج ، كما أننى لم أكن قادرا على الهرب فى أمان بالنظر الى موقع بناء المحطة المسيحية (البرتغالية) ، فقررت أن أنتظر حتى الغد •

وهربت من كانونور للبرتغاليين

وفى صبيحة السبت ، استيقظت مبكرا ، وقلت انى ذاهب للترفيه عن نفسى قليلا • فأجاب التاجران الفارسيان : « اذهب حيث شئت » فاتخذت طريقى حيث موضع بناء المحطة (البرتغالية) فقابلت رجلين برتغاليين وقلت لهما : « آه •• أيها السيدان • أين القلعة البرتغالية ؟ » فقالا : « أأنت مسيحى ؟ » قلت : « نعم ياسيدى •• تبارك الرب ! » فقالا : « من أين أتيت ؟ » فأجبتهما : « من كلكتا ! » فقال أحدهما للآخر : « اذهب أنت الى المحطة ، وسآخذه أنا الى دون لورنزو Don Lorenzo وهو ابن نائب الملك » • فأخذنى للقلعة التى كانت تبعد عن الساحل نصف ميل ، فلما وصلنا كان دون لورنزو يتناول افطاره • فلما رأيته ركعت على ركبتى عند قدمى سموه ، وقلت : « سيدى ، انى أسلم نفسى لك لتنقذنى ، فأنا مسيحى » ، وبينما كنت أقول ذلك ، سمعنا لغطا شديدا فى المناطق المجاورة للقلعة بسبب هربى ، فدعى على الفور المدفعيون الذين جهزوا مدافعهم خوفا من هجوم أهل المدينة على القلعة ، فلما وجد القائد أن الأهالى لن يسببوا أى أذى ، أمسكنى من يدى وقادنى الى غرفة لاستجوابى عن أمور كلكتا ، واحتجزنى لأخذ كل ما لدى من معلومات مدة ثلاثة أيام ، وقد قدمت لهم كل التفاصيل المتعلقة بالاسطول الذى

يجهزه الأعداء في كلكتا ، لحبي لنائب الملك المسيحي (البرتغالي) • ولما انتهى من استجوابي أرسلني على احدى السفن لأبيه نائب الملك في كوشن Cuccin (٧٨) وكان ربان السفينة التي أوصلتني يدعى يوحنا سرانو Joan-Sarrano (٧٩) وكان نائب الملك في غاية السعادة عند وصولي ، وأولاني اهتماما خاصا لأنني أخبرته عن استعداداتهم في كلكتا ، وطلبت من عظمته أن يعفو عن يوان ماريا Ioan-Maria وبيرو أنتونيو Pietro Antonio البرتغاليين اللذين صنعا المدافع (للأعداء) في كلكتا ، فأكد لي أنهما في أمان ، ويمكنني أن أحثهما على العودة ، وكان ينبغي عليهما ألا يلحقا الأذى بالمسيحيين رغم أن ما فعلاه كان ضد ارادتيهما ، وقلت له : انهما خائفان من العودة دون صك أمان فأبدى سموه سروره البالغ ورضاه وقدم لي صك الأمان • وتعهد ربابنة سفننا وكاهننا (قسيسنا) لنائب الملك ، وبعد ثلاثة أيام أرسلني مع السفينة آنفة الذكر الى كانونور وأعطاني خطابا لابنه يطلب منه أن يمدني بكل ما أريده من مال لشراء البهار المرسل الى كلكتا • ولما وصلنا كانونور وجدت الرجل الوثني الذي سبق أن وهبني زوجته وأولاده كدليل على محبته لي — فأرسلته بخطاباتي الى كلكتا لتسليمها لكل من يوان ماريا ، وبيرو أنتونيو ، وفيها نصحتهما بالعودة بأمان لأن نائب الملك قد عفا عنهما • ويجب أن تعلم انى أرسلت الجاسوس اليهما خمس مرات جيئة وذهابا ، وانني دائما كنت أكتب لهما أنه يجب أن يكونا حذرين والا يثقا في زوجتيهما أو عبدهما ، فقد كان لكل واحد منهما زوجة ، وكان ليوان ماريا ابن وعبد • وكانا دائما يكتبان لي أنهما راغبان في العودة للبرتغاليين ، فقد كان آخر خطاب منهما وصلني ينطق بهذه الكلمات : « يا لدفيكو ، لقد أعطينا كل بضائعنا لهذا الجاسوس » فتعال بسفينتك ذات الصواري الثلاثة أو ذات الصاريين في موضع صيد صيادي السمك حيث يخلو هذا المكان من المراقبة ، فاذا أراد الله فاننا سنأتي — كلانا — ويجب أن تعلم أني كتبت لهما أن يأتيا دون صحبة أحد ، وأن يتركا زوجتيهما ، وابن يوان ماريا ، وبضائعهما ، والعبد ، والا يحضرا معهما الا الجواهر والعملة • ويجب أن تعلم أنه كان لديهما ماسة تزن اثنين وثلاثين قيراطا ، كانا قد قالا انها تساوي خمسا وثلاثين ألف دوكات ، وكان لديهما لؤلؤ يزن أربعا وعشرين قيراطا ، وكان معهما ألفا ياقوتة تزن الواحدة ما بين قيراط وقيراط ونصف ، ولديهما أربعة وعشرون خاتما مرصعة بالجواهر ، بالاضافة الى ألف وأربعمائة بارادي paradai ، كما رغبا أيضا في أن يصحبا معهما سبعة Spingarde

---

(٧٨) المقصود كوشن Cochin — (بادجر) •

(٧٩) هو Joao Serrao الذي صحب أنتوا ذي نورنها Noranha في حملته على القطيف وجزيرة هرمز في الخليج الفارسي — (بادجر) •

وثلاثة apes واثنين من سنانير المسك ، وآلة اصلاح الجواهر واعدادها ٠
لقد كان الجشع سببا في موتهما ٠ ذلك أن العبد الخصي بهما ــ وكان من كلكتا ــ راى انهما يريدان الهرب ، فذهب توا للملك وأخبره بكل شيء ، فلم يصدقه الملك ، وكل ما فعله أن ارسل خمسا من النيرى Naeri ليكونوا معهم ٠ ولما رأى العبد ان الملك لم يعدمهما ذهب الى قاضي المسلمين واخبره بما سبق ان اخبر الملك به ، واكثر من ذلك ، فقد قال للقاضي انهما أخبرا المسيحيين (البرتغاليين) بكل ما تم اعداده في كلكتا ٠ فعقد القاضي مجلسا للقضاء حضره كل التجار المسلمين ، وجمع منهم مائة دوكات حملوها للملك Gioghi الذي كان موجودا في كلكتا في ذلك الوقت بصحبة ثلاثة آلاف من رعيته ، وقال التجار المسلمون له : « يا مولانا ، أنت تعلم أنه في أعوام سابقة عندما كنت تأتي هنا ، كنا نقدم لسموكم واجب الـكرم والتبجيل والاحترام ، أكثر مما نفعل الآن ، وذلك يرجع لظروف خاصه ، اذ يوجد هنا اثنان من المسيحيين (البرتغاليين) وهم أعداء لدِيننا ولسموكم، فقد اخبرا البرتغاليين بكل ما يجرى في بلادنا ، ونحن نطمع من سموكم أن تحكم بقتلهما ، ونطمع أن تقبل هذه المائة دوكات » فأرسل الملك في الحال مائة رجل لقتلهما ، فلما ذهبوا لبيتهما بدءوا ــ عشرة عشرة ــ ينفخون في أبواقهم ويطلبون الصدقات ٠ فلما رأى المسيحيان (البرتغاليان) أعدادا كبيرة تزداد ، أدركا أنهم يريدون شيئا اخر الى جانب الصدقات ، وبدءا يحاربان ، فقتلا منهم ستة أشخاص ، وجرحا أكثر من أربعين ٠ وأخيرا ألقى هؤلاء الـ Gioghi عليهما قطعا خاصة من الحديد مستديرة كالعجلة ، وقد قذفوا قطع الحديد هذه بمقلاع فأصابت يوان ماريا ، وبترو أنتونيو في رأسيهما ، فسقطا على الأرض ، فجرى المكلفون بالقتل اليهما وقطعوا أوردة رقبتيهما وأيديهما ، وشربوا من دمائهما ٠ وقد هربت زوجة يوان ماريا بطفلها الى كانونور فاشتريت منها طفلها بمبلغ ثماني دوكات ذهبا وعمدته في يوم القديس لورنس وأسميته (لورنس) ، وقد مات بعـد عـام بالمرض الفرنسي French disease ٠ ويجب أن تعلم أنني رأيت المصابين بهذا المرض على بعد ثلاثة آلاف ميل وراء كلكتا ، ويسمونه مرض بوا pua (٨٠) ، ويقولون انه لم يعرف هنا الا منذ سبعه عشر عاما ، وهو أسوأ مما عندنا (في أوروبا) ٠

---

(٨٠) ربما كانت من الكلمة السنسكريتية paya ألتي تعني قرحة أو مرض ناتج عن قرحة ٠٠٠ (بادجر) ٠

وفي الثامن عشر من شهر مارس سنة ١٥٠٦ (٨١) وصلتنا أنباء قتل هذين البرتغاليين وفي اليوم نفسه غادر الأسطول الضخم بانانى Pannani ، فكلكتا ، فكابوجات Capogat فبندارانى Pandarani ، فتورماباتان Tormapatan . وبلغ هذا الأسطول مائتى سفينة وتسع سفن ، من بينها أربع وثمانون سفينة كبيرة أما الباقيات فمن نوع (البارأو Paraos) وهى سفن ذوات مجاديف وكان الأسطول غاصا بالمسلمين ، وكانوا يرتدون ملابس محشوة بالقطن وعلى رءوسهم عمائم كبيرة محشوة ، ويحيط بأذرعتهم أساور وقفازات محشوة ، وكانوا مزودين بعدد هائل من الأقواس والرماح . والسيوف والتروس ، وبصحبتهم مدافع ضخمة ومدافع صغيرة على شاكلة مدافعنا (البرتغالية) . ولما رأينا هذا الأسطول فى السادس عشر من شهر مارس ، ظننا أننا ازاء غابة ، وأنا هنا أقول لك الحقيقة . الا أننا نحن المسيحيين نأمل دوما فى تلقى العون من الله ، لندحض العقيدة الوثنية .

وقد كان موجودا ، ابن دون فرانسسكو دا الميدا dal Meda نائب الملك البرتغالى فى الهند ، وهو (الابن) أشجع الفرسان ، وكان قائدا لأسطول برتغالى من احدى عشرة سفينة ، من بينها سفينتان من النوع ذى الصاريين ، وسفينة واحدة من النوع ذى ثلاثة الصوارى . فلما رأى القائد البرتغالى هذا العدد الكبير من سفن (الأعداء) ، تصرف كأشجع القادة فدعا كل مقاتليه وبدأ يحثهم ويستثير نخوتهم باسم الرب وباسم العقيدة المسيحية أن يرحبوا بالموت ، فقال لهم : « آه يا سادة ، أيها الاخوة ، ان يومنا هذا هو اليوم الذى يجب علينا أن نتذكر فيه آلام المسيح (عليه السلام) وكيف تحمل الآلام ليفتدينا نحن الخطاة . ان يومنا هذا هو يوم تغفر فيه خطايانا . لهذا أدعوكم أن تقدموا ببسالة لمحاربة هؤلاء الكلاب ، لأنى واثق أن الرب سيهبنا النصر لأنه لن يرضى أن تسقط عقيدته ثم وقف القسيس (الأب الروحى) على السفينة ، وقد حمل الصليب فى يده ، ووجه للجميع عظة جميلة ، وحثنا أن نفعل ما تعاهدنا عليه ، ثم منحنا الغفران من الخطايا ، وأعفانا من العقاب (فى الآخرة) وقال : « الآن ، يا أبنائى ، دعونا نذهب جميعا راغبين ، فالرب سيكون

---

(٨١) هذا التاريخ مرتبك على نحو ما ، ففى مجموعة جرين Green's Collection ان أسطول دون فرانسسكو دالميدا قد غادر لشبونة فى ٢٥ مارس ١٥٠٧ ، وفى Modern Universal his انه غادر الميناء فى ٢٥ مارس ١٥٠٥ ... وقد اعتمدت هذا التاريخ الأخير ... (بادجر) .

معنا » وقد كان القسيس بليغا حقا ، فقد بكى معظمنا ، طالبين من الرب أن يكتب لنا لقاءه (الموت) في هذه المعركة · وفي الوقت نفسه أقبل أسطول المسلمين نحونا · وقد غادر قائدنا بسفينتين اتجه بهما نحو المسلمين ومر بين أكبر سفينتين من سفنهم ، وحيا كل سفينة منهما بوابل من القصف بالمدافع ، وقد فعل قائدنا هذا ليعرف كيف يتصرف المسلمون ، ولأن هاتين السفينتين كانتا أكبر ما في أسطول (الأعداء) وكانتا تحملان كثيرا جدا من الشارات والأعلام ، وكان بهما قادة الأسطول كله · ولم يحدث شيء أكثر من هذا ذلك اليوم · وفي الصباح الباكر بدأ المسلمون ينشرون أشرعتهم واتجهوا الى مدينة كانونور ، وأرسلوا لقائدنا طالبين أن يدعهم يمرون ويستمرون في رحلتهم فهم غير راغبين في محاربة المسيحيين فأرسل قائدنا اليهم ان مسلمي كلكتا لا يسمحون للمسيحيين بالعودة ، وقد قالوا ذلك لأبناء دينهم ، بل انكم قتلتم ثمانية وأربعين منهم (من البرتغاليين) وسرقتم منهم ثلاثة آلاف دوكات ، بضائع وأموال · ثم قال لهم : « مروا ، ان كنتم تستطيعون المرور ، لكن ستعلمون أولا أي نوع من الرجال نحن البرتغاليين » فقال المسلمون : « ان محمدنا سيحمينا منكم أيها المسيحيون (البرتغاليون) » وبدءوا جميعا ينسحبون وقد اعتراهم فزع شديد ، ولأنهم كانوا راغبين في المرور فقد كانوا دائما يبحرون بالقرب من الساحل (البر) مسافة ثمانية أو عشرة أميال · وقد سمح لهم قائدنا بذلك حتى وصلوا في مواجهة مدينة كانونور · وقد فعل قائدنا ذلك لأن ملك كانونور كان يراقب الموقف ، فأراد قائدنا أن يريه مدى عظمة الشجاعة البرتغالية · وعندما حان وقت تناول الطعام وبدأ الهواء يكون منعشا شيئا ما ، قال قائدنا : « لقد حان الوقت الآن يا اخواني ، فكلنا مقاتلون جيدون » وبدأنا في الاتجاه صوب أكبر سفينتين من سفنهم · ومن المستحيل أن أصف لكم مدى الأدوات والاستعدادات التي أعدوها وفقا لعاداتهم · لقد تشبث قائدنا بشجاعة باحدى السفينتين ، وكانت أكبرهما ، وقذف المسلمون خطافاتهم الحديدية ثلاث مرات ، وفي المرة الرابعة بقينا راسخين وسرعان ما قفز البرتغاليون على ظهر سفينة المسلمين التي كان بها ستمائة مقاتل · وهنا دارت أقسى المعارك فسالت دماء مهولة ، ولم يتمكن أحد منهم من الهرب ، فقد قتلوا عن آخرهم · وما لبث قائدنا يجد في اثر سفينة المسلمين الكبيرة الأخرى ، والتي كانت مشتبكة مع احدى سفننا ، وهنا أيضا دارت معركة قاسية قتل فيها خمسمائة مسلم · وبعد أن تم الاستيلاء على هاتين السفينتين الكبيرتين ، دخل باقي أسطول المسلمين المعركة بروح يائسة ، فقسمنا سفننا الست عشرة ، لوجود بعض سفننا يحاصرها المسلمون بخمس عشرة أو عشرين سفينة ·

انه لمنظر مبهج أن ترى الأعمال الفذة لقائدنا الهمام يوان سارانو Ioan Sarano الذي اســتطاع بسفينة ذات شراعين أن يقيم مذبحــة

للمسلمين بطريقة يصعب وصفها • ففي وقت من الأوقات كان حول سفينته خمسون سفينة ، بعضها بالمجاديف وبعضها الآخر بالأشرعة ، وكلها مزودة بالمدافع ، لكن ببركة الرب لم يقتل أحد من البرتغاليين ، وان جرح كثيرون لان المعركة استمرت طوال النهار •

وفي احدى المرات ، ابتعدت سفينتنا ذات الأشرعة الثلاثة قليلا عن الأسطول ، وسرعان ما أحاطتها أربع سفن من سفن المسلمين الذين قاتلوا سفينتنا بحدة وشراسة ، وقفز فيها خمسة عشر مقاتلا مسلما ، مما جعل كل البرتغاليين في سفينتنا ينسحبون الى مؤخرتها • ولما رأى قبطان سفينتنا الشجاع ، واسمه سيمون مارتن Martin ، ذلك ، قفز بين هؤلاء الكلاب وصاح قائلا : « آه يا يسوع المسيح ، أعطنا النصر ، وساعد ديننا » وقطع بسيفه رقاب ستة أو سبعة من المسلمين ، فألقى الباقون أنفسهم في البحر ، وتفرقوا هنا وهناك • ولما رأى المسلمون الآخرون أن سفينتنا هذه قد أحرزت النصر ، أرسلوا أربع سفن أخرى لمساعدة زملائهم • فلما رأى سيمون مارتن ذلك ، سرعان ما أخذ برميلا يحوي بارودا ، وأخذ قطعة من الشراع ، وأقحمها في ثقب البرميل الذي يبدو للرائي كأنه حجر مدفع ، ووضع حفنة من الباردو فوق البرميل ، ووقف وفي يده شعلة نار متظاهرا أنه سيشعل بارود المدفع ، فلما رأى المسلمون ذلك عادوا أدراجهم ظنا منهم أن هذا البرميل مدفع • فانسحب القائد البرتغالي وانضم لباقي الاسطول ، بعد أن أحرز النصر بسفينته ذات الصاريين • وقد جعل قائدنا نفسه في وسط هؤلاء الكلاب ، وأسر منهم سبع سفن بعضها محمل بالبهارات والبعض الآخر بغير ذلك من البضائع ، وضرب تسع سفن أو عشرا ، بالمدافع ، كان من بينها سفينة محملة بالأفيال• ولما رأى المسلمون أن كثيرا من سفنهم قد تعرضت للضرب بالمدافع وأن السفينتين الأساسيتين قد استولى عليهما البرتغاليون ، وأن قادتهم قد أسروا ، شرعوا في الهرب في كل اتجاه وسادت الفوضى بينهم ، فبعضهم انسحب ، وبعضهم هرب مع رفاقه ، وبعضهم هرب برا ، وبعضهم هرب بحرا ، وبعضهم هرب في الميناء ، وبعضهم هرب في الاتجاه المعاكس • وفي خاتمة المطاف وجد قائدنا أن كل سفننا آمنة لم يلحقها ضرر فقال : « مبارك أنت يا يسوع المسيح ، دعنا نكمل نصرنا على هؤلاء الكلاب » وعاهدنا أنفسنا جميعا لنتبعه • والحق أقول لكم ، ان كل من رأى هؤلاء الكلاب يولون الأدبار يظن أن هناك أسطولا من مائة سفينة يطاردهم • لقد بدأت معركة الأسطول هذه منذ موعد الافطار واستمرت حتى المساء ، وظللنا نلاحق فلولهم طوال الليل ، ومن عجب أن أسطولهم الكبير هذا لم يؤد الى مقتل برتغالي واحد • وتابعت سفننا التي بقيت هنا سفينة كبيرة أخرى (للمسلمين) كانت قد غيرت اتجاهها في البحر • وأخيرا ، سادت سفننا على سفنهم فأحطنا بها فألقى كل المقاتلين المسلمين أنفسهم

في البحر ليسبحوا ، لكننا تتبعناهم بشكل مستمر الى الساحل في مراكب صغيرة ذوات مجاديف ، ورحنا نقذفهم بالقوس والنشاب ونطعنهم بالرماح ، فقتلنا منهم وجرحنا ٠ لكن بعضهم نجا بفضل مهارته في السباحة وهؤلاء لا يتعدى عددهم مائتين ، وقد سبحوا مسافة أطول من عشرين ميلا ، وكانوا أحيانا يغوصون تحت الماء ، وكنا نظن أحيانا أن هؤلاء السابحين تحت الماء قد ماتوا ، الا أننا كنا نراهم يصعدون مرة أخرى على سطح الماء على مرمى سهم منا ، فاذا ما اقتربنا لقتلهم ظانين أنهم قد أجهدوا تماما ، غاصوا مرة أخرى تحت الماء ٠ ان قدرتهم على السباحة لهذه المسافة الطويلة تبدو كمعجزة كبيرة ٠ وعلى أية حال ، فقد قتلنا أخيرا الجانب الأكبر منهم ، وأشبعنا سفنهم قصفا بمدافعنا ٠ وفي صبيحة اليوم التالى أرسل قائدنا سفنا ذوات مجاديف وسفنا من ذوات الشراعين على طول الساحل ، لاحصاء جثث القتلى ، فاتضح أن عدد القتلى في البر والبحر والسفن التى استولينا عليها ، ثـلاثة آلاف وستمائة ٠ ويجب أن تعلم أن كثيرين آخرين قد قتلوا أثناء الهروب ، فألقوا بأنفسهم في البحـــر ٠

ولما رأى ملك كانونور هذه المعركة قال : « هؤلاء المسيحيون شجعان حقا » والحقيقة أننى وجدت نفسى وسط بعض المعارك التى دارت على أيامى ، ولكننى لم أر أبدا من هم أكثر شجاعة من البرتغاليين وفي اليوم التالى عدنا الى نائب ملكنا الذى كان في كوشن Cuccin ٠ وأترك لخيالك أن يرسم صورة لمدى سعادة نائب الملك ، ومدى سعادة ملك كوشن الذى كان صديقـا حقيقيا لملك البرتغال ـ عندما رأونا عائدين مكللين بأكاليل النصر ٠

عودتى مرة أخرى لكانونور
بتكليف من نائب الملـك

دعنا نترك أسطول ملك كلكتا الذى لاقى الهزيمة ، ولنعد الى أمورى ٠ فبعد مرور ثلاثة أشهر ، تعطف على نائب الملك بوظيفة الوكيل التجارى Factorship في هذه الأنحاء ، وظللت شاغلا لهذه الوظيفة مدة عام ونصف العام ٠ وبعد ذلك ببضعة شهور أرسلنى مولاى نائب الملك بسفينة الى كانونور لأن كثيرين من تجار كلكتا ذهبوا الى كانونور ، وأخذوا من البرتغاليين (المسيحيين) تصريحات (عهود أمان) عن طريق تقديم بيانات تفيد أنهم من كانونور بسبب رغبتهم في المرور ببضائعهم في سفن كانونور ولم يكن بعض هذه البيانات صحيحا ٠ لهـذا أرسلنى نائب الملك لهؤلاء

التجار لكشف التزوير ٠ وحدث فى هذه الأثناء أن مات ملك كانونور وكان الملك الذى تولى بعده يضمر العداوة الشـديدة لنا (للبرتغاليين) وكان كرهه لنا هو السبب الذى جعل ملك كلكتا يوليه ، مستخدما الأثر القوى للمال ، وزوده بثلاثة وعشرين مدفعا ٠ وفى سنة ١٥٠٧ بدأت حرب خطيرة جدا فى السابع والعشرين من أبريل ، واستمرت حتى السابع عشر من أغسطس ٠ والآن ستدرك قيمة العقيدة المسيحية ، وقيمة البرتغاليين ٠ ففى يوم ، ذهب البرتغاليون لجلب المياه ، فهاجمهم المسلمون بحقد شديد ، فعاد رجالنا الى القلعة التى كانت وقتها فى حالة جيدة ، ولم يحدث لرجالنا أذى فى هذا اليوم ، وأرسل قائدنا ــ وكان اسمه لورنزو دى برتو Lorenzo de Britto ليخبر نائب الملك ــ وكان فى كوشن ــ عن هذه الحوادث ، وسرعان ما وصل دون لورنزو Don Lorenzo بسـفينة a Caravella مزودة بكل ما هو ضرورى ، وبانتهاء أربعة أيام عاد ثانية الى كوشن ، وبقينا نحارب هؤلاء الكلاب مع أن عددنا لم يكن يزيد عن مائتى رجل ٠ وكان طعامنا يتكون ــ فقط ــ من الأرز والسكر ، والجوز ، ولم يكن فى القلعة ماء للشرب ، لذا فقد كنا مضطرين لجلب الماء من بئر معينة مرتين فى الأسبوع ، وكانت هذه البئر على مرمى سهم من قلعتنا ٠ وكنا فى كل مرة نذهب لجلب الماء نضطر لاستخدام القوة ٠٠ وفى كل حين كنا نناوشهم ٠ وكان أقل عدد منهم يأتى (صوب قلعتنا) أربعـا وعشرين ألفا وأحيانا ، ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا أو خمسين ألفا ، مسلحين بالسهام والرماح والسيوف ، ومحصنين بالتروس ، وبصحبتهم مائة وأربعون قطعة مدفعية ما بين صغيرة وكبيرة ، وعليهم نوع من الدروع سبق أن وصفتها لك عند الحديث عن أسطول كلكتا ٠ وكانت طريقتهم فى القتال كالتالى : يقبل ألفان منهم أو ثلاثة آلاف ، دفعة واحدة محدثين أصواتا وجلبة مزعجة من آلات خاصة ، ويقومون بألعاب نارية ، ويجرون بشكل يبعث على الفزع ــ لدرجة أنهم ــ حقيقة ــ يمكن أن يبثوا الخوف فى عشرة آلاف رجل ٠ الا أن الرجال المسيحيين الأكثر شجاعة ذهبوا لملاقاتهم خلف البئر ، فلم يقتربوا (أى المهاجمون) من القلعة أبدا مسافة مرمى حجرين وكنا مضطرين لوضع حراسة من خلفنا وأمامنا ، لأنه يحدث فى بعض الأحيان أن يأتى المسلمون من البحر بستين سفينة من نوع (الباراو) فيحصروننا بينهم ٠ وكنا كل يوم نقاتل فيه نقتل منهم عشرة أو خمسة عشر ، أو عشرين وليس أكثر من ذلك لأنهم كانوا بمجرد رؤية بعض قتلاهم ــ يولون الأدبار لكن ، ذات مرة ، قتلنا منهم ثمانية عشر قتيلا ، بفضل مدفعنا المسمى (الحية) ولم يقتلوا منا أحدا ٠ وقالوا اننا نستعين بشيطان هو الذى يدافع عنا ٠ ولم تتوقف هذه الحرب من السابع والعشرين من شهر أبريل حتى السابع والعشرين من شهر أغسطس ٠ ثم وصـل الأسـطول البرتغالى بقيادة الهمام الشـجاع ترسـتان دا كوجنـا

الى كانونور ، فأخبرناه أننـــا فى حالة حرب ، Tristan da Cugna
فسرعان ما أعد هذا القائد الحكيم كل قوارب الأسطول وجهزها بالسلاح
وأرسل ثلاثمائة منا مسلحين جميعا ومدرعين بالدروع البيض ، لنحرق
كل مدينة كانونور • ولا تتصور عزيزى القارىء مدى سعادتنا عندما رأينا
مثل هذا العون فالحق يقال لقد كان الجهد قد بلغ منا قبل وصول الأسطول
البرتغالى كل مبلغ ، وكان عدد كبير منا جرحى • ولما رأى المسلمون وصول
الاســـطول البرتغالى أرســـلوا سـفيرا هو التاجر الثرى مامال ماريكار
Mamal Maricar يطلب السلام ، فأرسلنا الى نائب الملك البرتغالى فى
كوشن فأمرنا بالموافقة على السلام دون ابطاء ، وقد كان (١) • ولم يفعل
ذلك الا ليكون قادرا على شحن السفن وارسالها للبرتغال • وبعد مرور
أربعة أيام ، حدث أن وصل تاجران من كانونور ، كانا صديقين لى قبل
الحرب ، وتحدثا الى كصديق على هذا النحو : « أيها الوكيل التجارى ،
أرنا الرجل الفذ (abrazza) والأكثر اقداما من أيكم ، والذى كان
يقتل كل يوم خمســة عشر وعشرين منـا ، والذى كان النيرى Naeri
البالغون أحيانا أربعمائة وخمسمائة يطلقون النـار عليه ، ولم يستطيعوا
اصابته مرة واحدة » فأجبتهما قائلا : « هذا الرجل ليس هنا ، وانما ذهب
الى كوشن » ثم فكرت أن هذا كان مسيحيا آخر ، فقلت لسـائلى :
« يا صديقى ، تعال هنا ان ما رأيته ليس رجلا برتغاليا ، وانما هو رب
البرتغاليين ، ورب كل العالم » •

"... is not a portuguese, but he is ahe God of the portuguese and of all the world"

فأجاب قائلا : « والله ! أنت تقول الصدق لأن كل النيرى قالوا انه
ليس برتغاليا ، وانما هو ربهم ، وأن رب المسيحيين أفضل من ربهـم
(رب النيرى) وهم لم يعرفوه ، فقد كان يتجلى للجميع ، كمعجزة منه » •
انظر أى نوع من البشر هم ، فقد كانوا يجلسون أحيانا عشر ساعات
واثنتي عشرة ساعة ليراقبوا أجراس كنيستنا وينظرون لها كشىء معجز ،
ولما تكف الأجراس عن الدق يقولون : « ان هؤلاء الناس يلمسون هذا
الجرس ، وهو ـ أي الجرس ـ يتحدث ، واذا امتنعوا عن لمسه ، امتنع
بدوره عن الحديث • ان رب البرتغاليين ، طيب جدا » ومرة أخرى كان
بعض هؤلاء المسلمين حاضرين بيننا ، فلما تجلى جســـد المسيح (عليه
السلام) قلت لهم : « هذا هو اله البرتغاليين ، واله الوثنيين ، واله كل
العالم » فأجابوا : « أنت تقول الحق لكننا لا نعرفه » ومن هنا ، قد تعلم
أنهم خطاة دون معرفة (علم) • وعلى أية حال ، فقد كان بعضهم من
السحرة الكبار ، فقد رأيناهم يمسكون الأفاعى التى تؤذى غيرهم ان لمسها ،
فتسقطه على الأرض ميتا فى التو • وهم ـ كمـا أعتقد ـ أكثر الرجال
العاملين خبرة ومهارة فى العالم كله •

هجوم البرتغاليين على بانـاني

Panani

والآن ، لقد أزف ميعاد العودة لبلادى ، لأن القائد بدأ يشحن الأسطول للعودة للبرتغال ، فقد ظللت بعيدا عن بيتى وحبى سبع سنين محتفظا بمشاعرى الطيبة ازاء وطنى ، ولأحمل لوطنى جانبا كبيرا من العالم ، فسألت سيدى نائب الملك الاذن فى الرحيل فتفضل بالموافقة ، ورغب الى أن أذهب معه أولا الى حيث سأقص عليك ـ لقد ارتدى نائب الملك ، وكل من معه ـ خلا العدد القليل الذى بقى فى كوشن ـ الدروع البيض ٠ وفى الرابع والعشرين من نوفمبر ، شننا هجوما على ميناء (بانانى) (٨٢) ٠ وفى هذا اليوم عسكرنا قبالة الميناء ، وفى صبيحة اليوم التالى ، قبل طلوع النهار بساعتين ، دعا نائب الملك كل من فى الأسطول لحضور اجتماع وأخبرهم أن (بانانى) قد شنت على البرتغاليين حروبا كثيرة أكثر مما فعلت أى منطقة هندية أخرى ، لذا فهو يرجونا جميعا أن نهجم عليها باصرار ورغبة فهى ـ أى بانانى ـ أقوى من أى مدينة أخرى على السواحل الهندية ، ولما أنهى نائب الملك حديثه ألقى القس عظة أبكتنا جميعا وجعلت كثيرين يودون ـ حبا فى الرب ـ أن يموتوا فى هذه المعركة ٠ وقبيل اتضاح النهار بقليل بدأنا أعنف حرب ضد هؤلاء الكلاب البالغ عددهم ثمانية آلاف ، بينما كان عندنا حوالى ستمائة ٠ لكن الحقيقة أن السفينتين من النوع ذى الشراعين لم يفيدا كثيرا لعدم قدرتهما على الاقتراب كثيرا من الساحل ، بعكس الحال بالنسبة للقوارب ٠ وكان الفارس المقدام دون لورنزو ابن نائب الملك ، هو أول من وثب للساحل ، وتلا ذلك وصول قارب نائب الملك الذى كنت فيه ، وفى الهجوم الأول دارت معركة قاسية ، بسبب ضيق النهر (كذا) جدا فى هذا الموضع ٠ كما كان على حدود المدينة عدد كبير من المدافع ، استولينا على أكثر من أربعين قطعة منها ٠ وفى هذا الهجوم كان هناك أربعة وستون مسلما قد أقسموا على النصر أو الشهادة لأن كلا منهم كان قائد سفينة ، لذلك فقد أطلقوا نحونا فى الهجوم الأول كثيرا من قذائف المدافع لكن الرب ساعدنا فلم يقتل منا أحد ، بينما قتل منهم حوالى مائة وأربعون شخصا كان من بينهم ستة قتلهم فى حضورى دون لورنزو ، وقد جرح منهم كثيرون ٠ لقد وصلت المعركة ذروة القسوة بعد وقت قصير من بدايتها ، لكن بعد تمكن السفينتين التابعتين لنا ، وهما من النوع ذى الشراعين من الساحل ، بدأ هؤلاء الكلاب يتراجعون ، ولما بدأ الجزر لم نعد قادرين على مطاردتهم أكثر من ذلك ، وبدأ هؤلاء الكلاب

---

(٨٢) ٣٤ ميلا الى الجنوب الشرقى من كلكتا ، على الشاطىء الجنوبى لنهر يحمل الاسم نفسه ٠٠٠ (عن بادجر) ٠

يتزايدون فقذفنا النار على سفنهم ، فاشتعلت منها ثلاث عشرة سفينة كانت فى غالبها جديدة وضخمة . ثم سحب نائب الملك كل مقاتليه الى البر الرئيسي ، حيث منح رتبة الفارس لبعض المقاتلين ، وكنت من بين هؤلاء بفضل من نائب الملك ، الذى منح الرتبة نفسها لأكثر القادة شجاعة وهو ترستان دا كوجنا ، الذى كان ضامنا لى . وبعد ذلك بدأ نائب الملك فى الاشراف على ركوب مقاتليه ، وان استمر فى احراق منازل كثيرة فى بانانى (بقصفها) ، وقد تم كل هذا بفضل الرب دون أن يموت منا أحد . وأبحرنا الى (كانونور) فزود قائدنا السفينة بالمؤن بمجرد وصوله .

السفر الثامن
(الأخير)

سواحل شرق أفريقيا

سـواحل شرق أفريقيـا (Ethiopia)

الى أولئك الذين يرغبون العمل فى مجال التاريخ وعلوم الكون Cosmography التى يمكنهم عن طريقها أن يشاركوا فى تحقيق مزايا عامة ، كما هو ملموس فى مناسبات عديدة ، كما يمكنهم الاحتفاظ بالشهرة والخلود عن طريق الانهماك فى الحياة الجادة والعمل الدؤوب ـ الى هؤلاء نقول ان لا شيء أكثر ضرورة وأهمية من أن تكون ذاكرتهم قوية متماسكة حتى يكونوا قادرين على تذكر ما وقع لهم فى أى مكان سبق أن مروا به دون خلط أو اضطراب حتى لا يتعرضوا من قبل الذين يتابعون أعمالهم بنقد حاد لا يرحم ، أو حتى لا يتعرضوا للاهمال أو الاتهام بضعف الذاكرة . لذا فاننى أعدك فى هذا الاستهلال أن أعرض لك جانبا من أثيوبيا (شرق أفريقيا) بعد أن تركت المشاكل والمتاعب التى فرضت نفسها على . فأنا الآن فى طريق عودتى ، وهناك فرصة لتحقيق هذا الوعد ، وسأعرض لك حديثى عن أثيوبيا بايجاز حتى تنهى قراءة عملى هذا بسرعة ، وأستريح أنا فى وطنى .

الجزر المختلفة فى ساحل أفريقيا الشرقى (أثيوبيا)

فى السادس من ديسمبر توجهنا الى سواحل شرق أفريقيا وعبرنا الخليج ، وقطعنا حوالى ثلاثة آلاف ميل حتى وصلنا الى جزيرة موزمبيق Mozambich (١) التابعة لملك البرتغال . وقبل وصولنا الى هذه الجزيرة رأينا بلدانا كثيرة تابعة لسيدى ملك البرتغال my lord the king of Portugal وقد احتفظ سيدى ملك البرتغال بتحصينات قوية فى هذه المدن (الجزر) خاصـــة مالندى Melindi ، وهى مملكة ، وممبســة Mombaza التى أحرقها نائب الملك البرتغالى ، وفى كلوة Chilva توجد قلعة برتغالية ، كما تم بناء قلعة أخرى فى موزمبيق Mozambich وفى سفالة Zaphala توجد أيضا قلعة برتغالية حصينة جدا . ولا أصف لك ما فعله القائد الباسل ترستان دا كوجنا Tristan da Cugna ، فهو الذى استولى فى طريقه الى الهند على كوجيا Cogia وباتى Pati وبرافا Brava الجزيرة الحصينة جدا ـ وسوقطرة Sacutara التى يحتفظ فيها الملك البرتغالى بقلاع حصينة . ولا أصف لك الحروب التى دارت لأننى لم أكن حاضرا وقتها .

ولن أتحدث أيضا عن كثير من الجزر الجميلة التى رأيناها فى طريقنا، بما فى ذلك جزيرة القمر the island of Cumere التى يحيط بها ست

---

(١) كذا بالأصل ، وربما يقصد احدى الجزر المقابلة لساحل موزمبيق . (المترجم) .

جزر أخرى وينمو فيها (جزيرة القمر وما حولها من جزر) كثير من الزنجبيل وقصب السكر وكثير من الفاكهة الفريدة Singular fruits • كما تنمو بها ــ وبوفرة ــ أعلاف مختلف أنواعها ــ للحيوانات • وعلى النحو نفسه ، فانني لا أذكر لك شيئا عن جزيرة أخرى جميلة يقال لها بندا Penda يربطها بالملك البرتغالى علاقة صداقة ، وهى جزيرة خصبة وقد أوتيت من كل شىء (١) •

جزيرة موزمبيق وسكانها •

دعنا نعد للحديث عن موزمبيق التى حصل منها الملك البرتغالى على كميات هائلة من الذهب والزيت (حصل الملك البرتغالى أيضا على كميات هائلة من الذهب والزيت ، من جزيرة سفالة Zaphala) والتى كانت ترد (أى كميات الذهب والزيت) من البر المواجه للجزيرة • وقد مكثنا فى هذه الجزيرة حوالى خمسة عشر يوما ، وقد وجدناها جزيرة صغيرة وسكانها سود وفقراء ، وليس فى هذه الجزيرة الا طعام قليل جدا ، لذا فان الطعام يرد اليها من البر المواجه لها ، وهو ليس بعيدا • ومع هذا ، ففى الجزيرة ميناء جيد جدا • وفى بعض الأحيان ، كنا نذهب الى البر المواجه للجزيرة لنرفه عن أنفسنا ولنشاهد هذه البلاد التى رأينا فيها بعض الأجناس السوداء تماما ، وعراة تماما الا من لحاء شجر يستتر به الرجال ، وأوراق شجر تضع الواحدة من نسائهم واحدة على القبل وأخرى على الدبر • ولهؤلاء الناس شعور منتصبة (واقفة) وقصيرة their hair bristling up & short وشفاههم غليظة فى غلظ اصبعين ، ووجوههم عريضة ، وأسنانهم كبيرة وبيضاء جدا كالثلج • وهم جبناء جدا ، خاصة عندما يرون رجالا مسلحين • أما وقد رأينا قلة عدد هؤلاء السوائم وتفاهتهم فقد اصطحبنا دليلا من جزيرة موزمبيق (وقد كان عددنا حوالى خمسة أو ستة ، وكنا مسلحين جيدا بأسلحة نارية Spingarde) تجول بنا فى المناطق المواجهة للجزيرة حيث استمتعنا برحلة ممتعة وقد وجدنا عددا كبيرا من

---

(١) موزمبيق ومالندى وممبسه وكلوه وسفاله وأنجوكسا Angoxa وباته Pate وبرافا Brava وبمبا ، وجزر القمر ، بالاضافة الى جزر أخرى قليلة غير مسماه ــ حاصرها جميعا البرتغاليون فى الفترة من ١٤٩٨ الى ١٥٠٧ وهم فى طريقهم للهند وعند عودتهم منها • وقد أوردت بعض الملاحظات التاريخية عن العرب الذين استقروا فى هذه المناطق لعدة قرون قبل وصول البرتغاليين ــ فى مقدمة هذا الكتاب • أما جزيرة سوقطرة التى تقع على بعد مائة ميل وعشرين ميلا من الطرف الشمالى الشرقى للبر الافريقى ؟ فقد استولى عليها الاسطول البرتغالى أواخر سنة ١٥٠٧ ••• (عن بادجر) •

الفيلة في جماعات وقد أرشدنا دليلنا الى أن نحمل معنا قطعا من الأخشاب (الأغصان) الجافة نبقيها مشتعلة دائما ، لأن الفيلة اذا رأت النار ، فانها تبتعد ، وهذا صحيح ، الا أنه حدث ذات مرة أن قابلنا ثلاثة فيلة اناثا تتبع صغارها ، وقد عدت هذه الفيلة خلفنا حتى الجبل ، حيث اختبأنا ورحنا نسير فى هذا الجبل حوالى عشرة أميال على الأقل ، ثم نزلنا من فوق هذا الجبل من الناحية الأخرى ووجدنا بعض الكهوف كان يلوذ بها بعض الزنوج من أهل المنطقة ، وكانوا يتكلمون بطريقة أجد عناء كبيرا فى أن أشرح للقراء كيفيتها • ومع ذلك فسأحاول جهد الطاقة أن أشرحها لكم • فعلى سبيل المثال ، نلاحظ أن البغال (قائد البغال) عندما يتبع بغله فى جـزيرة صقلية Sicily ، ليحثه على المسير فانه يضع لسانه فى أعلى باطن فمه ، ليخرج ألحانا خاصة وأصواتا معينة ، تدفع البغل للسير • ان أصوات البغالين هذه وطريقة اخراجهم لها (للأصوات) تشبه طريقة كلام هؤلاء الناس ، وبالاضافة للأصوات فانهم يستخدمون الاشارات حتى يمكنهم الفهم • وقد سألنا دليلنا اذا كنا نرغب فى شراء بعض الأبقار والثيران لأنه يستطيع أن يجلبها لنا بسعر رخيص وقد أجبناه بأننا لا نمتلك نقودا ، مخافة أن يكون قد تفاهم مع هؤلاء السوائم على سرقتنا • الا أنه (أى دليلنا) قال : « ليس من حاجة للنقود للشراء ، فلديهم من الذهب والفضة أكثر مما لديكم ، فهما موجودان (الذهب والفضة) بالقرب من هنا ، وهم يذهبون لجلبهما » • فسألناه : « فماذا يريدون اذن ؟ » فقال : « انهم مولعون بالمقصات الصغيرة ، ويحبون قطع القماش الصغيرة للفها حول أجسامهم ، وهم شغوفون جدا ببعض الأجراس الصغيرة لتقديمها لأطفالهم ، كما أنهم يرغبون فى أمواس الحلاقة » فقلنا له : « سنقدم لهم بعض هذه الأشياء اذا أحضروا الأبقار للجبل » فقال الدليل : « سوف أرى ما اذا كانوا سيحضرونها الى قمة الجبل — لكن ليس أبعد من ذلك — لأنهم لا يتخطون ذلك الحد أبدا • أخبرنى على أية حال ماذا ستقدمه لهم ؟ » فقـال أحـد رفاقنا وهو مدفعى bombardier :
« سأقدم لهم موسى حلاقة جيدا وجرسا صغيرا » أما أنا ، فلكى أحصل على طعام حيوانى ، فقد خلعت قميصى ، وقلت اننى سأقدم لهم قميصى هذا • فلما رأى دليلنا ما سنقدمه قال : من الذى سيقود هذه الأبقار الكثيرة الى الساحل ؟ فأجبنا : « اننا على استعداد لاصطحاب الأبقار التى سيقدمونها لنا الى الساحل ، مهما كثر عددها ؟ » عندئذ أخذ دليلنا ما أعطيناه له وقدمه الى خمسة رجال أو ستة منهم ، وطلب منهم ثلاثين بقرة ، فأبدى هؤلاء الرجال (السوائم) من الاشارات ما يفيد أنهم سيقدمون لنا خمس عشرة بقرة • فأخبرنا دليلنا بالموافقة ، لأن هذا العدد كان كافيا ، وسرعان ما جمع الزنوج خمس عشرة بقرة على قمة الجبل • الا أننا بعد أن ابتعدنا قليلا عنهم بدأ الزنوج الذين كانوا فى الكهوف يصدرون أصواتا ، فظننا

انهم يزمعون اللحاق بنا ، فتركنا الأبقار ولجأنا جميعا لأسلحتنا الا أن الزنجيين اللذين كانا يقودان الأبقار بينا لنا ببعض اشاراتهم ألا نخاف • وقال لنا دليلنا ، انهم لابد أن يتعاركوا لأن كل واحد منهم يريد الجرس لنفسه • عندئذ أخذنا الأبقار مرة أخرى وذهبنا الى قمة الجبل ، وعاد الزنجيان فى طريقهما • وعند هبوطنا من فوق الجبل فى طريقنا للساحل مررنا عبر بساتين كبابة (٢) Cubebs مسافة تقارب الخمسة أميال ، واكتشفنا وجود جانب من الفيلة التى كنا قد قابلناها عند ذهابنا وقد جعلنا ذلك نصاب بالرعب فتركنا ـ مضطرين ـ بعض الأبقار التي كرت عائدة الى الزنوج ، أما نحن فقد تمكنا من العبور الى جزيرتنا (٣) • وعندما أصبحت سفننا مجهزة بكل ما نحن فى حاجة اليه ، أبحرنا الى رأس الرجاء الصالح ، ومررنا بجزيرة سانت لورنزو San Lorenzo (٤) التى تبعد عن البر الأفريقى ثمانين فرسخا (٥) Leagues ، وأظن أن ملك البرتغال سيغدو قريبا سيدها (ستتبع البرتغال قريبا) لأن البرتغاليين قد حاصروا بالفعـــل موضـــعين من الجزيرة وأصلوهما نارا حاميـــة Put them to fire & flame • ومن خلال ما رأيت فى الهند ، وفى شرق أفريقيا (أثيوبيا) يبدو لى أن ملك البرتغال ـ اذا أذن الله ـ وواصل انتصاراته فانه سيغدو أغنى ملوك الأرض • والحقيقة أن ملك البرتغال يستأهل كل خير ، ففى الهند ـ خاصة فى ككن Cucin ، يتحول للمسيحية يوميـــا ما بين عشرة أشخاص واثنى عشر شخصـــا من الوثنيين Pagans والمسلمين Moors ، ويتم تعميدهم ، فالمسيحية تنتشر يوميـــا بفضل هذا الملك ، وهذا هو السبب ـ فيما أعتقد ـ الذى يجعل الله ينصر هذا الملك ، وسيحقق له النجاح والرخاء فى المستقبل •

---

(٢) ثمار نبات تابلى من الفصيلة الفلفلية ـ ويطلق اللفظ نفسه على النبات المنتج للثمار ـ (معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية) ـ (المترجم) •

(٣) فيما يلى وصف بربوسا Barbosa لموزمبيق ، الذى يتضح منه أن المستوطنين العرب ـ على أيامه ـ رغم تبعيتهم للبرتغال الا أنهم استمروا فى ممارسة نظامهم القضائى الخاص : « لما مررنا بانجوكسا Angoxa فى طريقنا للهند وجدنا ثلاث جزر قريبة جدا من البر الافريقى ، احداها تسمى موزمبيق يسكنها المسلمون ولها ميناء جيد يتردد عليه المسلمون فى طريقهم الى سوفالا Sofala وانجوس (انجوكسا) ولهؤلاء المسلمين شريف يحكمهم •••• » ـ (بادجر) •

وموزمبيق بطبيعة الحال هى البر الافريقى المواجه للجزيرة آنفة الذكر ـ (المترجم) •

(٤) جزيرة مدغشقر ، اسماها البرتغاليون جزيرة سان لورنزو ، ويؤكد بعض الباحثين أن لورنزو دى ألميدا هو الذى اكتشفها سنة ١٥٠٦ ، الا أن باحثين آخرين يؤكدون أن أول من زارها من الأوربيين هو ترستان دى كنوا Cunna واصطدم أسطوله بالمسلمين فى أكثر من مدينة على الساحل الشرقى للجزيرة ـ (بادجر) •

(٥) الفرسخ ، قياس للطول يتراوح بين ٢ر٤ و ٦ر٤ من الميل ـ (المترجم) •

رأس الرجاء الصالح

دعنا الآن نواصل الحديث عن رحلتنا • فعندما عبرنا رأس الرجاء الصالح وابتعدنا عنه حوالى مائتي ميل، أصبحت الرياح معاكسة ، وذلك لأنه كانت توجد عن شمائلنا (الى اليسار) جزيرة سانت لورنزو وجزر أخرى كثيرة ، كانت تهب فيها (خلالها ـ أى خلال هذه الجزر) عواصف شديدة جدا لأكثر من ستة أيام ، وعلى أية حال ، فقد نجونا بفضل الله من أى حادث • وعندما قطعنا مائتى فرسخ واجهنا عاصفة هوجاء لأكثر من ستة أيام فتشتتت سفننا هنا وهناك ، وعندما هدأت العاصفة اتخذت كل سفينة طريقها مستقلة عن الأخرى ، ولم ير ركاب كل سفينة ، ركاب السفن الأخرى ، الا عندما وصلنا للبرتغال • ولقد كنت أجد ركاب سفينة بارثولومو ماركيونى Batholomeo Marchioni الفلورنسى ، المقيم فى لشبونه ، وكانت سفينته تسمى سانتو فيسنتيو Santo Vicentio وكانت تحمل سبعة آلاف قنطار Cantara من البهارات المختلفة ، وقد مررنا بالقرب من جزيرة أخرى تسمى سانت هيلانة Santa Helena حيث رأينا حوتين كبيرين two fishes ، يبلغ حجم الواحد منهما ، حجم المنزل الكبير ، وكانا كلما ظهرا على سطح الماء ، يرفعان شيئا كمقدمة الخوذة أو حافة القبعة ، أظن أن عرضها يبلغ ثلاث خطوات passi • وكان الحوتان ينزلان هذا الشىء اذا رغبا فى الغوص مرة أخرى فى الماء • وقد كنا فى غاية الفزع من قوة هذه الحيتان (الأسماك) حتى اننا أطلقنا نيران كل مدافعنا وقد وجدنا جزيرة أخرى يقال لها أسينسون Lascension (٦) ، وجدنا بها نوعا كبيرا من الطيور ، يبلغ حجم الواحد منها حجم البطة (٧) وكانت هذه الطيور تحط على السفينة ، وهى طيور غبية وساذجة وغير حذرة ، اذ يمكن امساكها باليد بسهولة ، فاذا ما تم امساكها أبدت مقاومة عنيدة جدا (٨) • وكانت هذه الطيور قبل أن نمسك بها تنظر الينا بشكل يكاد يكون اعجازيا • ويرجع ذلك الى أنها (أى هذه الطيور) لم تر مسيحيين قبل ذلك فليس فى هذه الجزيرة سوى الأسماك والماء وهذه الطيور • وبعد أن عبرنا هذه الجزيرة ، وأبحرنا لعدة أيام ـ بدأنا نرى نجم الشمال the north Star ويذكر كثيرون أنه اذا لم يرنجم الشمال فانه يكون من المستحيل ، الابحار بأمان مهتدين بالقطب الجنوبى by Antarctic Pole • ودعنى

(٦) هى Ascension (بادجر) •

(٧) هى ما يعرف شعبيا باسم boobies (بادجر) وفى معجم مصطلحات العلوم الزراعية للشهابى هى الأطيش طائر مائى يطير ويسبح ومعروف بالبله لأنه يدع الانسان يقترب منه لقصر قدميه وطول جناحيه مما يجعل بدء طيرانه صعبا ـ (المترجم) •

(٨) هى The Azores (بادجر) •

أقل لك ان البرتغاليين يبحرون دائما مهتدين بنجم الشمال رغم أن هذا النجم لا يظهر فى بعض الأيام ، وفى هذه الحالة فان البوصلة المغناطيسية The magnet ـ على أية حال ـ تؤدى عملهـــا مشيرة للقطب الشمالى Arctic Pole وبعـد ذلك ببضعة أيـام وصلنـــا الى جزر أزورو Astori الجميلة التى تتبع ملك البرتغال ، فقد رأينا أول ما رأينا جزيرة بيكو Picco ، فجزيرة كورفو Corvo فجزيرة فلوريس Flores ، فجزيرة ســـانت جورجيو San Giorgio فجزيرة جراتيوزا La Gratiosa ، وجزيرة فايل Faial ثم وصلنا إلى جزيرة ترتيرا Tertiera حيث مكثنا فيها يومين • وهذه الجزر عامرة بالثمار والفواكه ، ثم غادرنا هذه الجزيرة متجهين صوب البرتغال فوصلنا الى لشبونه ـ المدينة العظيمة ـ فى سبعة أيام • وأتركك لتتصور ـ عزيزى القارىء ـ مدى السعادة التى غمرتنى ، والفرح الذى شملنى عند وصولى لليابسة • ولأن الملك لم يكن فى لشبونة ، فقد ذهبت للقائه فى مدينة ألمادا Almada (٩) المقابلة للشبونة • وعندما وصلت اليها ذهبت لتقبيل يد عظمته الذى أحاطنى برعاية فائقة منه ، واستبقانى عدة أيام فى بلاطه ليسمع منى عن أمور الهند • وبعد بضعة أيام ، أظهرت له براءة (وثيقة) الفروسية التى منحنى اياها نائب الملك (نائبه) فى الهند ، متوسلا اليه ـ اذا رغب ـ أن يعتمدها ، ويوقعها بيده ويختمها بختمه ، وعندما رآها ذكر لى أنه يسعده ذلك ، وتناول منى الوثيقة التى خطت على الجلد الرقيق (رق Parchment) ووقعها بيده ووضع عليها ختمه ، وتم تسجيلها ، ومن ثم استأذنت عظمته فى الرحيل ، ووصلت الى مدينة روما •

---

(٩) ورد فى طبعة راميوزيو Ramiusio التى تم انجازها سنة ١٦١٣ أن المدينة التى كان للملك البرتغالى بهـــا هى الميريم Almeirim التى كان بهـــا قصر للملك البرتغالى ـ (بادجر)

فهــرس تفصــيلى

اقرأ فى هـذه السلسلة

أحلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسل
الألكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا ·
نقطة مقـابل نقطة	الدس هكسلى ·
الجغرافيا فى مائة عام	ت · و · فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليستر ديل راى
الرواية الانجليزية	والتر ألن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقـود	ديفيد وليام ماكدونالد
الموسيقى ـ تعبير نفسى ـ ومنطق	عزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشرف س· بى كوكس
الانسان ذلك الإنسان الفريد	جون لويس
الرواية الحـديثة	بول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنور المعـداوى
القوة النفسية للاهرام	بيل شول وأدنبيت
فن الترجمـــة	د· صـفاء خلوصى
تولســـتوى	رالف ئى ماتلو
ســـتندال	فيكتور برومبير
رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجـو
الجزء والكل (محـــاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سـيدنى هـوك
ادارة الصراعات الدولية	د· السيد عليـــوة
الميكروكمبيـوتر	د· مصطفى عنـانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير

اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	أنطونى دى كرسبنى وكينيث هينوج
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف٠س
أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س ٠ م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د ٠ سمبسون و نورمان د ٠ اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د٠ أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسيط الكيمياء	فرد ٠ س ٠ هيسى
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما ماسينيج
دراما الشاشة (٢ جـ)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف٠ ع ادنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجحيم	هنرى باربوسى
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا٠ سبنسر

النحـل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحـدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البيـر
أثر الكوميديا الالهيـة لدانتى فى الفـن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبـل الثـورة البلشـفية وبعدها	د٠ رمسيس عـوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين
نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج٠ دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟	طائفة من العلماء الأمريكيين
حـرب الفضاء	د٠ محمد أسعد عبد الرؤوف
الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د٠ محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضـاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليـام بينـز
تربية أسماك الزينة	ديفيـد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى	جمعها : جون ٠ ر ٠ بورر وميلتـون جـولد ينجـر
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صـالح رضـا
التغذية فى البلدان النامية	م ٠ هـ ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جـورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديره
حوار حول النظامين الرئيسيين للكـون	جاليـليو جاليـليه
الارهـاب	أريك موريس ، آلان هـو

اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
الثورة الاصلاحية فى اليابان	أ . ج . قوينس
التوافق النفسى	توماس ا . هاريس
الدليل البيبليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
	ميكائيل ألبى
الانقراض الكبير	جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠	جاك كرابس جونيور
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كونر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار واعداد صبرى الفضل
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
سقوط المطر	نادين جورديمر وآخرون
صناع الخلود	موريس بيربراير
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	أحمد الشنوانى
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى رسميث
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
الكنائس القبطية (٢ جـ)	الفريد . ج . بتلر
ترانيم زرادشت	اعداد وتقديم : د. فيليب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٤٨٢ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3583 — 6

هذه رحلات لودوڤيكو ڤارتيما ذى الأصل الإيطالى ، الذى كان يعمل لحساب البرتغال ، وقد قام برحلاته فى مطلع القرن السادس عشر ، وزار مصر والشام والحجاز واليمن والقرن الافريقى والخليج العربى وفارس والهند وجزر أندونيسيا وهناك ما يشير لوصوله لإستراليا ، وزار أثناء عودته سواحل شرق أفريقيا ومرّ برأس الرجاء الصالح . وقد قدم نفسه للناس فى الحجاز والخليج وفارس باعتباره الحاج يونس المصرى ، أما فى الهند ، وأندونيسيا فقد قدم نفسه على أنه الحاج يونس العجمى ، وذلك قبل أن يسفر عن وجهه الاوروبى بهروبه لإحدى القلاع البرتغالية فى الهند ، وقد ساعده على التغلغل فى مجتمعات الشرق حاج فارسى .وهذه الرحلات زاخرة بالملاحظات الإجتماعية التى لا تخلو من متعة وطرافة بالإضافة لأهميتها للمهتمين بتاريخ الكشوف الجغرافية ومرحلة الصراع الهامة فى القرن السادس عشر ، ولأهميتها فى مجال التاريخ الإقتصادي ، والتاريخ العسكرى ــ إذ يبدو أن ڤارتيما ــ فيما يقول المستشرق بادجر ــ كان عسكريا سابقاً .

٣٢٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب